هنري توماس
دانالي توماس

أعلام الفن القصصي

ترجمة
عثمان نويه

مراجعة
محمد بدران

الكتاب: أعلام الفن القصصي

الكاتب: هنري توماس ، دانالي توماس

ترجمة: : عثمان نويه

مراجعة : مُحمَّد بدران

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توماس، دانالي / توماس، هنري

أعلام الفن القصصي/ هنري توماس ، دانالي توماس، ترجمة:عثمان نويه، مراجعة : مُحمَّد بدران – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٧٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ١٤٣ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان **رقم الإيداع : ٤٦٩٢ / ٢٠٢١**

أعلام الفن القصصي





المؤلفان

– هنري توماس ودانالي توماس اسمان مستعاران للكاتبين الأمريكيين دكتور هنري توماس شنتكيند (Dr. Henry Thomas Schnittkind)

ودانا أرنولد شنتكيند (Dana Arnold Schnittkind)

– ولد هنري توماس شنتكيند سنة ١٨٨٨، وولدت دانا أرنولد شنتكيند سنة ١٩١٨.

– رغم ضخامة إنتاج الكاتبين وسعة انتشاره، ووفرة ما نشر من تعقيبات عليه، فقد لزم الناشرون والمعقبون الصمت عن سير المؤلفين ولعل ذلك كان احتراماً لرغبتهما، لأنهما فيما يبدو يؤثران أن يقرأ الناس لهما لا عنهما.

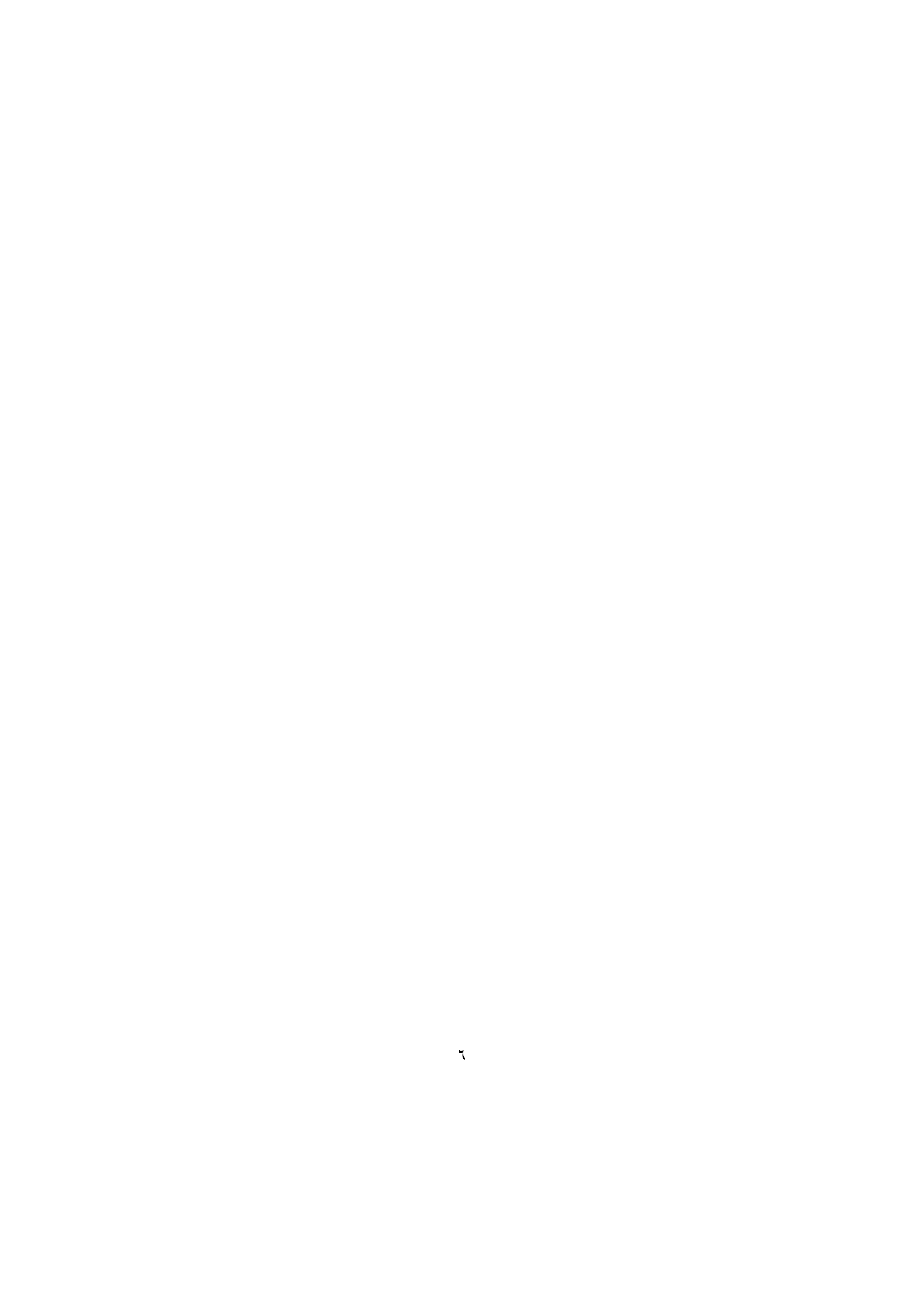
– كان هنري توماس تلميذاً للفيلسوف جورج سنتيانا في جامعة هارفارد وقد ألف وحده (تيسير الرياضة) و(تيسير العلم).

– كذلك انفردت دانا أرنولد شنتكيند بتأليف (المجاهدون في سبيل الله).

– اشترك الكاتبان في تأليف مجموعة شائقة من كتب السير، قدر لها ذيوع فريد في كافة أنحاء العالم وترجمت إلى مختلف اللغات، وهي: أعلام الفن القصصي، أعلام الفلسفة الغربية، القادة الدينيون، أفذاذ العلم، مشاهير الحكام، عظماء الرجال، أعلام الموسيقيين، فحول الشعراء، أقطاب النقش، شهيرات النساء. إلخ.

– تمتاز هذه السير بالحياة والحركة والتشويق مع الدقة العلمية، وهكذا وفقت إلى الجمع بين صدق العلم ورواء الفن.

المترجم



تصدير

اجتاز فن كتابة التراجم كما اجتاز غيره من الفنون تطورات كثيرة، وتعددت مذاهبه كما تعددت مذاهب الفنون، ومذاهب الأدب بنوع خاص.

فقد مضى حين من الدهر كانت فيه سير القدامى لا تتناول إلا بالتمجيد والإكبار، حتى ليخيل إلى القارئ أن أصحاب السير أنصاف آلهة، لا سبيل إلى اللحاق بغبارهم، أو إحراز ما أحرزوا من علم أو فن.

ولسنا ننكر أن هذا التقديس الذي لم يكن له مبرر في غالب الأحيان، قد صدر إلى حد ما عن دوافع نبيلة، وتقاليد كريمة، منها التنزه عن نبش قبور الموتى، وعدم التعرض لذكراهم بما يسوءهم، بعد إذ طواهم الموت، وصاروا بخيرهم وشرهم إلى حيث يرثى لهم الأحياء الذين كانوا يجدون عليهم ويحقدون، كما أن هذا التقديس يرجع كذلك إلى حد ما إلى ذلك الجلال والوقار الذي يسبغه الموت وبعد الإنسان في الزمان.

على أن الناس حين شب إدراكهم عن الطوق، من أثر ما. استحدث من علم ومعرفة، قد تغير رأيهم في علوم القدامى ومعارفهم. واستتبع ذلك تغيراً في النظر إلى أشخاصهم وأسلوب تناول سيرهم.

وكذلك رأينا بعض كتاب السير في أواخر القرن الماضي[1] يجردون الأعلام القدامى مما أضفى عليهم من جلال جعلهم أقرب إلى الآلهة. وأبعد عن طبيعة البشر. ويحاولون تصويرهم تصويراً واقعياً، أو قل تصويراً بشرياً لا تصويراً أسطورياً.

وكان هذا يرجع إلى ما كشف تقدم العلم من أخطاء القدامى من جهة، وإلى ما استحدث في علم النفس خاصة من نظريات التحليل النفسي من جهة أخرى.

ومن أسف أن هذا الاتجاه قد شابه ما يشوب كل انتقاض كامل على القديم من مبالغة

[1] حمل لواء هذه الحركة صمويل بتلر (١٨٣٥– ١٩٠٢) وتابعه فيها برناردشو عليها في الأدب الإنجليزي حركة التجريد من الخداع. **Debunking Movement**

وإسراف. فمزق الأقدمون أرباً. لأن تمجيدهم قد أدى إلى تقديس نظرياتهم وعدم تطورها، مما عاق تقدم العالم قروناً طويلة. ويصدق هذا بنوع خاص على تقديس أرسطو وأثره في تعويق الفكر عن التقدم. بحيث وصف بعض كبار الكتاب أرسطو بأنه أعظم كارثة حلت بالعالم.

على أن "الحكمة ليست كلها جديدة، ولا الحماقة كلها قديمة" كما يقول برتراند رسل. والمبالغة في التعييب، كالمبالغة في التمجيد أمر تجفوه روح العلم الصحيح.

والطريق السوي هو أن تطبق مكتشفات علم النفس، وبخاصة التحليل النفسي، في دراسة السير، وهذه المكتشفات في ذاتها تنهى عن الإسراف في المدح أو القدح، لأنها تنتمي إلى ميدان العلم لا إلى ميدان القيم.

وثمة أمر آخر على أعظم جانب من الأهمية، وهو أنه ينبغي لنا أن نزن أصحاب السير بموازين عصورهم، وعلى ضوء ما ساد بلادهم على أيامهم من تقاليد وطرائق في العيش وأساليب في تناول الحياة.

فمن غير الإنصاف مثلاً أن نزن جاليليو بميزان عصر نيوتن أو نزن نيوتن بميزان عصر أينشتين. وإلا كنا جاحدين لفضل أولي السبق، آخذين إياهم بارتفاع صرح المعرفة على يد أخلافهم، عما كان على عهدهم، منكرين عليهم فضل السابقين والرواد.

فالخير إذن في التوسط بين الإسراف في أضفاء الجلال والإسراف في التعرية عن الجلال. وهذا ما توخاه في رأينا مؤلفا تلك المجموعة من السير التي بين يديك. ففي كل سيرة تقويم نفسي للكاتب، وإن صيغ بأسلوب قصصي جذاب، تقويم على ضوء ما اكتنف عصره من ظروف وعقائد وطرائق في الحياة.

وإني أعتقد أن دراسة تراجم أعلام الفن القصصي لها قيمة خاصة. لأن القصاص يعيش في داخل نفسه ويعيش في مجتمع.

فينفعل بما ينعكس عليه من حياة الجماعة ويكتب قصصه مرآة أو انعكاساً لهذا الانفعال.

ولهذا كانت سيرة القصاص تفسيراً لبعض ما يكتب، وكانت كتابته تفسيراً لبعض جوانب سيرته. وهذا التجاوب بين نفس الفنان وبين آثاره تراه جلياً في هذه المجموعة من السير.

ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من مكتشفات التحليل النفسي قد سبق إليها كتاب القصة

الأفذاذ عن طريق تأملاتهم الفلسفية. فإن الأستاذ فلوجل[٢] أستاذ علم التحليل النفسي بجامعة لندن سابقاً يستخدم بعض المشاهد من قصص الأعلام ليعرض بها بعضاً من أحدث نظرياته في التحليل النفسي عرضاً ملموساً ينبض بالحياة.

والكتاب الذي بين يديك يشتمل على سير عشرين كاتباً من أبرز كتاب القصة في العالم منذ ميلاد فن القصة الحديثة على يد بوكاشيو في القرن الرابع عشر حتى توماس هاردي في القرن العشرين. والكتاب العشرون ينتمون إلى مختلف الجنسيات. فمنهم الإيطالي والإسباني. والإنجليزي والفرنسي والأمريكي والأرلندي والروسي. وقد صيغت سيرة كل كاتب في قالب قصة قصيرة قائمة بذاتها، تحمل في تضاعيفها لمحات من خير كتابات صاحب السيرة. وفي ختام كل قصه ثبت بأسماء أهم مؤلفات الكاتب ليستطيع القارئ بعد إذ عرف أعلام الفن القصصي أن يوثق صلته بآثارهم على نحو مباشر. وذلك هو الهدف النهائي لهذا الكتاب. والكتاب يعتمد في تصوير شخصيات الأعلام على الحقائق المادية التي تؤدي إلى رسم الصورة حية ناطقة، تجمع بين الطرافة والفائدة. وتتناول الكاتب من حيث هو إنسان فتتعقب أخطاءه وجهاده حتى تبوأ المكانة التي سلكته في الخالدين.

وبعد: فإذا كان بعض كتاب السير يتسترون على أخطاء الموتى تجملاً، وكان غيرهم يقتحم على الموتى قهورهم توقحاً، فإن منهج هذه المجموعة من السير التأدب في دخول قبور الموتى، ودراسة محتوياتها دراسة نزيهة القصد. ثم مغادرة القبور بعد لثم الأعظم العطرات.

محمد بدران

---

[٢] في كتاب الإنسان والأخلاق والمجتمع. تعريب عثمان نويه. وهو من سلسلة الألف كتاب.

مقدمة المؤلفين

حينما استحال الشاعر الصغير والترسكوت قصاصاً كبيراً، خجل من عمله الجديد. وكتب يقول "لن أنسب ويفرلي إلى نفسي فلست على ثقة من أنه يليق بمن كان مثلي من رجال القانون أن يكتب القصص" فقد كان القصص يعد في أيامه فرعاً منبوذاً من فروع دوحة الشعر. إذ كان يمثل الابن البغيض في الأسرة الأدبية.

كتب محرر مجلة أدنبرة يقول "أن القصص ليس بالسمك ولا اللحم. وليست له قيمة خلقية، لأنه مسرف في التسلية والترفيه".

أما اليوم فقد نما القصص واكتمل. لأنه أعطانا روائع تعد في صف أنبل أنماط الأدب. فالقصة الحديثة، حتى في أدنى مستوياتها، بساط سحري يحملنا على النسيان المبارك. وهي بهذا تمنحنا المناعة على تحمل صروف الزمان، وهي في أسمى مستوياتها عرض متحرك. ملموس للفكر الفلسفي. وهي في أحسن صورها تجسيد نثري للملحمة الشعرية القديمة. قال أمرسون "كل قصة عظيمة مدينة لهوميروس"، فالقصة تشبه قصائد هوميروس في أنها لا تقتصر في أعلى مستوياتها على أن تكون نموذجاً للفلسفة كما تطبق في الحياة بل هي كذلك صورة أدبية تنتظم كل الصور الأخرى– الشعر والتمثيل والتاريخ والسير والعلم والاجتماع والسياسة والمغامرة والدين والفن. فالقصة العظيمة اليوم– أو في أي وقت آخر– هي صورة كاملة للإنسان، صورة تشمل جسمه وعقله وروحه، وهي شيء آخر فضلاً عن كل ما ذكرنا تكشف عن إنسان واحد بنوع خاص، هو القصاص نفسه. فأجود جزء من القصة هو ذلك الذي يتجلى فيه القصاص.

ولم يكن هدفنا في روايتنا سيرة كل من القصاصين الذين يشتمل عليهم هذا الكتاب أن نقتصر على تصوير الرجل من الخارج، كما يرى من خلال حقائق حياته، بل أن نصور كذلك الرجل من الداخل كما يرى من خلال أفكار عقله. وقد سعدنا إذ وجدنا أن كل قصاص عظيم إذا نظر إليه من هذه الزاوية المزدوجة تراءى هو نفسه بطلاً لقصة عظمى.

هنري توماس

دانالي توماس



جيوفاني بوكاشيو

١٣١٣ - ١٣٧٥

كانوا يدعونه (جيوفاني الهادئ) لقدرته على الاحتفاظ بروح المرح والخير إذا ألمت به الخطوب. وقد تطامنت له تلك القدرة العجيبة على أن ينقل إلى الناس بشاشته ومرحه. فهو إن كان في صحبة نسوة سئمن رتابة الحياة وتشابهها جعل همه أن يرفه عنهن ويخرجهن من السأم. ولم يجد في العالم شيئاً أجلب للترفيه من قصة الغرام الجيدة. فقد لاحظ أن المرأة لا تبلغ أوج المتعة إلا إذا لعبت بنار العاطفة. فإن خشيت أن تحرق النار أناملها أصابت نفس المتعة تقريباً من قراءه أخبار نساء أخريات قد لعبن بهذه النيران. وكان يقول: "أن هذا الحب بالتوكيل" يكاد يبعث كل النشوة التي يبعثها الحب المباشر. ولا يعرض صاحبه لشيء من مخاطره. فالذي تفعله النسوة المغامرات تحب غير المغامرات أن يتخيلن أنهن فاعلات مثله. وهكذا استطاع بوكاشيو بمحاولته تغذية خيال أخواته. الأقعد عن المغامرة أن يبدع فن القصة الحديثة.

وقصة بوكاشيو أشبه بصورة مصغرة لمجالي الطبيعة الإيطالية في فتنتها وتنوعها غير المحدود. ضحكات فضية في ليلة مقمرة، ومروج رزينة الجمال، وجداول تستلقي وقد تدافعت فيها الفكاهة، ومنعطفات على الطريق مفاجئة، واستشراف روائع لم تخطر على قلب، وزوابع الغيرة الثائرة، وسحب عابرة من الأسى الموقوت، وشمس الأخوة العالمية التي وسع عناقها كل شيء. هذه هي العناصر التي يبدع منها قصصه.

وإن عالمه لعالم شديد اليقظة، يحف به مجد الشمس في الظهيرة وأرض القرون الوسطى زاخرة بشخوص أحياء شرايينهم مليئة بالدماء.. من رجال ونساء يتحدثون عن طبع ويحبون في اشتهاء، بحيث أننا لا نزال نراهم ونسمعهم وتستمتع بهم من خلال تلك القرون التي تفصل عالمهم من عالمنا. فقد كانت قصص بوكاشيو تصور الحياة في أمانة وصدق، حتى ليقول عنه أحد النقاد "إن الله حين خلق جيوفاني قد خلق العالم مرة ثانية".

كان جيوفاني بوكاشيو، ابناً غير شرعي لتاجر من فلورنسا. وقد ولد في عصر ديني، عصر دانتي (١٣١٣). وما كاد يلقن صوفية الكنيسة حتى استبدل بها واقعية الحياة، وسار متهاوناً في تعلمه بالمدرسة. فما هو إلا أن تذوق الآداب القديمة تذوقاً سريعاً ثم تتلمذ في عامه العاشر لباريسي من رجال الأعمال وصار بعد بضع سنوات وكيلاً تجارياً متنقلاً لأبيه ولكن به إلى القراءة نهماً وعن التجارة صدوفاً ويقول أبوه شاكياً (أن الشقي الصغير ليشتري من الكتب أكثر مما يبيع من السلع) كان تلميذاً بطبعه فأصاب من العلم بالأدب ما لم يصب معظم خريجي الجامعة في عصره. ولم يقف عند توثيق صلته بالأدب، فقد وثقها بالحياة أيضاً. فاستوت كفايته في قرض الشعر، وحذقه أفانين الغزل. وهام بصحبة الكتب كما هام بصحبة النساء وأما تجارة بوكاشيو (فليعن بها أبي الذي يجري في عروقه الذهب المذاب أما عروقي أنا فيجري فيها الدم الأحمر).

فلما خاب أمل الوالد في أن يجعل من ولده رجل أعمال، قرر أن يجعل منه محامياً. فبعث به إلى جامعة نابولي، وهنالك جعل جيوفاني يجد في أعداد نفسه لكل شيء خلا الدراسات القانونية، وكان أبوه يمنحه فضلاً من المال، فشرع يؤلف ما بين نفسه وبين ثمار المعرفة غير المألوفة، والثمار المحرمة منها خاصة، وكان شباب عصره الأميل منه إلى الجد، ينقبون عن أسرار الجحيم والمطهر والجنة. أما بوكاشيو فقد أضاف إلى الأسرار الثلاثة المقدسة سراً رابعاً، وكان هذا السر عنده يفوق الأسرار جميعاً في أهميته.. هو سر الأرض لأنه يفوقها جميعاً في إنسانيته. ذلك بأن دانتي وبترارك قد لفتا العالم إلى الحب الروحي، حب بياتريس ولورا، فوجه بوكاشيو بصر قلبه إلى حب مادي لماريا، وكانت ابنة غير شرعية لملك صقلية. وكان في عامه الثامن والعشرين حين وقع في أسر هذا الغرام.

وقد أطلق عليها ذلك الاسم الشعري **Fiammetta** ومعناه (اللهب الصغير) وألقى بنفسه في غير حذر يلتمس الدفء خلسه من نار حبها. غير أنه أجزل لها المكافأة على مودتها فكتب باسمها قصة وخلدها إذ جعلها من الشخصيات الرئيسية في العشريات (ديكاميرون) **Decameron**.

ومع أنه قد أخلص نفسه لهذه البقعة وهذه اللحظة فهو لا يزال ابناً أميناً لعصره شديد الاهتمام بالحياة الأخرى. فكتب سيرة لحياة دانتي ولكن الكتاب فشل. ذلك بأن بوكاشيو كان قد أوغل في الملهاة البشرية بحيث لم يفهم ملهاة دانتي الإلهية. فإن روحه لفي عمى عن اجتلاء صورة واضحة للرجل الذي حاول أن يصفه. فهو يعجب بشعر دانتي لكنه لا يحفل بلا هوته. فإذا حاول أن يبعث الحياة في دين دانتي لم يبتعث غير دخان غامض مضطرب فهو يشير إلى اللاهوت بـ (شعر الله) لكنه في ريب من وجود الله فارتاب في حقيقة شعره فجاءت (حياة دانتي) نغماً جميلاً في الأدب الإيطالي لكنه نغم غير متميز، هو محاولة لتمجيد عقيدة القرون الوسطى قام بها رجل لا يؤمن بها في قرارة نفسه.

واتبع بوكاشيو (حياة دانتي) بكثير من المحاولات الأدبية الكبرى واستمر يعزف لحناً غير متميز كان أسلوب عصره ثقيلاً مصطنعاً مزوقاً ولكن بوكاشيو بسيط صادق غير متكلف. فإن حاول التصنع كما يفعل معاصروه أصيب بالفشل.

فنثر عصره المتكلف وشعر عصره المهول كانا غريبين في فمه الضحوك وقد كتب قصة طويلة يظهر بها علمه هي فيلوكولو **Filocolo** فمضت القصة تتعرج كأنها نهر طويل بطيء يتعثر بين شطان من الطين الثقيل. فهي تخلو من الجمال خلواً تاماً ذلك بأن بوكاشيو لم يكن حتى الآن قد تعلم الكتابة بالأسلوب الصادق الطبيعي الذي يستخدمه في حديثه، فهو يجنح إلى توريط نفسه في تلك العبارات المعقدة التي يصطنعها المتعالمون. من ذلك قوله (الناس الأولى في فجر حياتهم قد اعتدل شراع عقولهم للرياح السارية من المروحة الذهبية التي صنعت من ريش ولد سيثريا) حين يكون كل ما يريد قوله (الشباب الذين يعشقون) وفي الفيلوكولو لا يقبل المساء في هدوء قط وإنما يقبل (إذ تهدر الأبواق. وتتألق الشمس الغاربة بينا جياد أبولو المتوثبة وقد استشعرت الحر من جهادها طول النهار تدفع بجسومها الملتهبة في أمواه المحيطات الغربية). وأشخاص هذه القصة مخلوقات هائلة لا تكلمنا قط في صوت طبيعي بل تصيح بنا دائماً من مكبر صوت. وهم لا يستطيعون أن يطلبوا جرعة ماء دون إلقاء خطاب طويل مزهر عن ظمئهم فلغة بوكاشيو لا تزال ثقيلة صارخة الألوان. فهو يحاكي أسلافه ممن يقلون عنه شأناً بدلاً من التعبير عن

ذاته الأجل شأناً. فيؤثر العبارة الإغريقية أو اللاتينية المركبة على مراد فتها الإيطالية البسيطة لذا فإن بوكاشيو في قصة الفيلوكولو، وهي التجربة الأولى الساذجة للقصة الحديثة، يبدو عالماً من الطبقة الأولى باللغات القديمة غير أنه شاعر عاطفي من الطراز الثاني.

ومع ذلك فإن (فيلو كولو) على ثقلها قد نجحت نجاحاً مالياً. فالعالم كان مهيأ لقبول القصص وقد عزف بوكاشيو في الأدب لحناً جديداً رضى عنه ذوق الجمهور فتشجع لرواج قصته النثرية. وهو يحاول الآن أن يكتب قصة شعرية فيؤلف كتاب تسيد وهو ملحمة منظومة على غرار إنياذة فرجيل وكان حظه من النجاح والخلو من الحياة مثل حظ (فيلو كولو) فهو كتاب عن الأبطال كتبه رجل لا يؤمن بالبطولة فجاءت تسيد صورة رائعة ولكنها ميتة، هي حفل قديم مزخرف قد

استحال إلى حجر، فليس فيه حركة ولا حياة.. إنها تشمل كل العناصر الجميلة التي تتطلبها القصيدة، عدا الشعر، وهي تنطوي على مقدرة أدبية ولكن تعوزها شرارة الحماسة.

عن أن بوكاشيو تعلم تدريجاً كيف يكتب بقلبه كما يكتب بعقله فيأتي كتابه التالي فيلوستراتو أقرب نوعاً ما إلى حياة عصره.

ويروي بوكاشيو في هذا الكتاب قصة كرسيد وترويلس فيقدم إلينا فيه لأول مرة قصة شخصين يحملان أسمين أجنبيين وعقلين عصريين. كان حبهما عاطفة أرضية صحيحة، خالية من كل المبالغات البيانية والصوفية العليلة التي حجرت مشاعر أشخاص بوكاشيو الأولى. لقد عاد بوكاشيو الآن من جولاته في عالم الأدب وأقام يدرس الحياة. فينقل بصره من التماثيل الرخامية إلى أشخاص أحياء يعرفهم أتم معرفة ويحبهم أشد حب. فيهتدي بوكاشيو إلى نفسه آخر الأمر بعد تعييث لبث عدة سنين. فنبدأ هنا نرى لمحات من المتهكم المرح، الفيلسوف الطيب الذي تعلم كيف يضحك مع الناس بدلاً من أن يضحك منهم أنه يصيبهم بفكاهته اللاذعة ثم يخشى أن يكون قد آذاهم فيربت عليهم

بفكاهته الوادعة.

فإذا انتقلنا إلى تقدير عبقرية بوكاشيو شعرنا في فيلو ستراتو أننا نقترب من هذه العبقرية، إذ نرى فيها قليلاً من الأوراق والأغصان المبعثرة سابحة نحونا من الخمائل السحرية لعبقريته التي سنجتليها فيما بعد. ففيها نسمع صوت بوكاشيو الحقيقي الذي سيخلق العشريات **Decameron** فيحدثنا عن الحب فيقول (ما أعجب هؤلاء البخلاء البائسين، الذي ينعون على العشاق والذين يصرون على أن كسب المال خير من كسب الحب.

فلندعهم يسألون أنفسهم هل مدخرات العمر كله قد جلبت من المتعة مثل ما تجلب لحظة واحدة من لحظات الحب. سيجيبون أن نعم ولن يكونوا صادقين ولسوف يضحكون من الحب ويدعونه (جنونا اليما) لكنهم إذ يجمعون أموالهم يسمحون لروح السرور الحقة أن تفلت من أيديهم. إن ما لهم قد يضيع في ساعة ولكن الحب إذا ذقته مرة فقد جلب لك المتعة إلى الأبد ألا فليتعس الله البخلاء وليرد على العشاق ما أصابوا من مال).

إن بوكاشيو العالم يتحول تدريجاً إلى جيوفاني الشاعر فهو يتأهب للتخلص من نسبته لأبولو، إله المعرفة، ليعتنق دين فينوس آلهة الحب، وهو في كتابه التالي **Aomrosa Visione** يخطو خطوة أخرى في هذا الاتجاه ومع أن هذا الكتاب قد جاء من وحي قصيدة دانتي فهو مع ذلك ليس (بالصورة المجردة لسماء الكاتب الخيالية) بل هو على نقيض ذلك صورة مادية جداً لأرض واقعية. فدانتي قد تسامى عن اللحم إلى الروح. وأما بوكاشيو فينزل من الروح إلى اللحم. وفي هذا التنزل يقل تساميه المبهم الغامض وتزيد إنسانيته الواعية البصيرة فنساء بوكاشيو الدنيويات أمتع من ملائك فردوس دانتي لأنهن أقل كمالاً. وإذا كانت ملائك دانتي يثرن إعجابنا فإن نساء بوكاشيو يثرن عطفنا فما أشبههن بنا لذا فما أحبهن إلينا.

إن بوكاشيو يبشر بإنجيل جديد.. إنجيل المحبة الإنسانية "فالحب لم يعد خطيئة بل

صار متعة". ويتعلم بوكاشيو كيف يصور الأنثى الخالدة في كل سحرها الجامح المخطئ ويبدد هاله الفضل والدماثة التي كانت تحوط نساء جيله، وهو لا يظهرنا على ما تنبس به شفاههن من عبارات بريئة فحسب بل ويظهرنا كذلك على ما تهجس به عقولهن من خواطر أقل براءة. فنحن في القصيدة التالية نرى أول صورة أمينة لامرأة إيطالية في القرن الرابع عشر:—

بجانب بئر صافية، وسط حقل صغير.

زاخر بالعشب الأخضر والأزهار من شتى الألوان، جلست ثلاث فتيات يروين (كما علمت) قصص غرامهن.

وقد هصرت كل منهن فننا ليحجب وجهها الحبيب، وأسبغ الورق الأخضر ظله على الشعر الذهبي.

وامتزج اللونان البهيجان. وقد تخلله في رفق نسيم وادع طالما أثار وطالما أخبى.

وبعد هنيهة قالت إحداهن. (لقد سمعتها) ترى! لو حدث قبل أن تدق الساعة التالية أن حضر عشاقنا إلى هنا اليوم.

أتظنان أننا ينبغي لنا أن نهرب أو نخاف؟. فأجابتها الأخريان:

من مثل هذا الحظ (الباهر). تكون الفتاة حمقى لو أنها فرت).

هذا الاعتراف الصريح بعاطفة طبيعية. يمثل النغم الأول في السمفونية الواقعية...

ويعزف بوكاشيو في **Corbaccio** نغمة أخرى أوضح من تلك في صراحتها الواقعية، لقد خدعت الشاعر في حبه أرملة طروب. فكان أول ما خطر له أن يزهق روحه بخنجره. ولكن حبه الشديد للحياة يحول بينه وبين ذلك فيقرر خطة أحكم هي أن يقتل معشوقته الخائنة بسيوف تهكمه.

وفكرة القصة ساذجة إلى حد ما. ولكن التهكم فيها جيد فإن بوكاشيو يقترب شيئاً فشيئاً من روح العشريات **Decameron**.

ويهتدي بوكاشيو إلى نفسه أخيراً في الديكاميرون. أنه هنا في ميدانه الحق وعالم الديكاميرون هو عالمه. وجاءت شخوص هذه القصص كشخوص الحياة الواقعة فقد كفوا عن تحليل أنفسهم وأخذوا يمتعون أنفسهم فهم لا يفكرون تفكيراً حراً وحسب، بل هم كذلك يتصرفون تصرفاً حراً. فينظرون إلى الحياة نظرة تستوي فيها الصراحة والطيش. وإذ كانوا لا ينتحلون ثوب أصحاب الرسالات الإصلاحية، فقد قنعوا من العالم بإغماض عيونهم عن شروره. وهم لا يؤمنون إلا بمبدأ واحد (عش ودع غيرك يعش).

وإذا كانوا راغبين عن التضحية بأنفسهم- من أجل الآخرين فهم كذلك راغبون عن التضحية بغيرهم من أجل أنفسهم، لقد تخففوا من تعصب العصر الوسيط وتخففوا من عدم التسامح الذي كان طابع هذا العصر. فهم لا يصدرون في حركاتهم عن أى روح صليبية. ولا يبتغون أن يحيلوا أحداً إلى دينهم أو أن يتحولوا هم إلى دين غيرهم وهم لا يكترثون بالماضي أو القابل سواء بسواء. وهم على استعداد لأن يشتروا متعة اليوم بذكريات الأمس ووعود الغد. وتصور إحدى قصصهم المحبوبة موقفهم ذاك أحسن تصوير. تقول هذه القصة: أن الفيلسوف (ديوجين) حين لقى الإسكندر حاول لومه على أطماعه الحمقاء فسأله: بعد أن تغزو أثينا.. ماذا تنوي أن تفعل؟.

أغزو فارس.

وبعد فارس؟

أغزو مصر.

وبعد مصر؟

أغزو العالم.

وبعد غزو العالم.

أستريح وأستمتع.

فسأله: وماذا يمنعك أن تستريح وتستمتع الآن؟

وكل أشخاص الديكاميرون مصممون على أن يستريحوا ويستمتعوا الآن وليس لديهم أحساس بالمسئولية العامة. فحين انتشر الطاعون في فلورنسا (١٣٤٨) لم يشعروا بوجوب البقاء في مدينتهم ومساعده الضحايا. بل وجدوا الأمتع لهم والأسلم أن ينتقلوا إلى الريف حيث يستطيعون قضاء أيامهم في الطعام والشراب والغزل ورواية الحكايات اللاذعة.

(لست أحفل بغير لحظات الحياة الصافية).

تلك الحياة السطحية التي لا تبالي بالعواقب الدنيوية والتي لا يزعج صفاءها أي عمق في الإخلاص أو أيغال في البغض. هذا النوع من الحياة هو ما تجده مصوراً تصويراً ممتعاً في (الديكاميرون) لجيوفاني الهادئ. لقد لبث العالم قروناً عدة يغمره الإحساس بالخطيئة الأصلية، والخوف من العقاب المقبل. لقد نسي الناس قدرة الضحك على التفريج عن النفس فعلمهم بوكاشيو كيف يضحكون.

والواقع أن قصصه في الديكاميرون قد رويت من قبل، فهي ليست من خلق بوكاشيو. بل هي أشبه بقصص (ألف ليلة) في أنها نتاج أقطار كثيرة، وعقول كثيرة. ولكن بوكاشيو قد أخذها من وضعها الساذج الأمي فأجاد تشكيلها وبث فيها الحياة. وليست الديكاميرون لكنها مجموعة لا نظام لها من قصص لا رابطة بينها. بل هي وحدة محكمة أقيمت على نظام من المنطق. ويحوي الكتاب عشرة أشخاص رئيسيين بينهم سبع سيدات وثلاثة رجال. وقد فروا من مخاوف الطاعون إلى حفلة تنكرية خيالية. ولكي يسروا عن أنفسهم عشرة أيام جعل كل من اللاجئين يروي قصة في كل من الأيام العشرة. فكانت تروي كل يوم عشر قصص إذن، فكان المجموع مائة قصة. وكانت كل مجموعة يومية من عشر قصص تتشابه في موضوعها إلى حد ما. فالقصص التي نسمعها في اليوم التالي مثلاً تدور كلها حول من قاسوا الشقاء ولكنهم أصابوا النجاح آخر الأمر. ونتسلى في اليوم الثالث بمغامرات أوغاد لا وازع لديهم من ضمير. وقد كوفئوا على نذالتهم مكافأة لا مبرر لها. ولكنها مكافأة ممتعة. ويختص اليوم الرابع بالحكايات ذات

النهاية المحزنة. وأما اليوم السادس فيوم النوادر فتدور كل نادرة حول إجابه بارعة. وكان الواحد منهم إذا أحرج أو أوشك أن يقهر لجأ إلى جواب مفحم قارص يقهر به خصمه. ويقدم لنا اليوم السابع معرضاً من النسوة الخائنات لأزواجهن. وهؤلاء الأزواج رجال لا أثر فيهم للشهامة الزوجية فحقت عليهم خيانة الزوجات.

وهكذا.. ومهما يختلف موضوع كل من القصص فإن الكتاب كله شلال واحد يهدر بالضحك وحتى الحكايات الحزينة لا تترك وراءها أثراً من ألم فأسى بوكاشيو لا يعدو أن يكون ظلاً يمتد على أرض بهيجة ولولا اقتران سرور بوكاشيو بالأسى لكان سروره لا لون له ولا طعم. فإذا قيل: أن فولتير يضحك ليخفي دموعه، أمكن أن يقال عن بوكاشيو أنه يذرف دمعة بين الحين والآخر ليجعل ضحكه أشخذ للشهية وكان بوكاشيو صاحب تهكم ولكنه ليس صاحب سخرية عابسة. فهو يسخر من الناس ولكنه لا يصلاهم سعيراً. وهو يثير عليهم ضحكاً طيب الروح وديعاً يسري في الناس بالعدوى حتى ليضطروا أنفسهم إلى المشاركة فيه. أنه يسخر من الحماقة ويحظى بحب الحمقى (أنك يا صاحبي تؤدي في الحياة دوراً هازلاً غاية الهزل) ثم يقول وهو يهز كتفه في روح وادع (ولكن ألسنا كلنا ذلك الرجل).

-٤-

ومعظم حكايات الديكاميرون قصيرة. فهي تعد في عرف يومنا هذا من قصار القصص القصيرة. وهو يصور الموقف بقليل من الكلمات ثم يصل إلى نهاية مباغتة من ذلك قصة أرمينوجر يمالدي ذلك الجشع الذي قال لصديق أريب من صحابه (أريد أن ينقش منزلي نقشاً جديداً وأريد أن تقترح على موضوعاً لهذا الرسم شيئاً لم أره قط) فأجاب صاحبه على الفور (ارسم التسامح). وقصة أخرى من نفس الطراز هي مغامرة الملك في منزل سيدة يحاول أغواءها وكان الملك يشتهي هذه السيدة فأرسل بزوجها إلى الحروب الصليبية ودعا نفسه إلى منزلها لتناول العشاء وكانت السيدة لا تستطيع عصيان الملك وهي مع ذلك لا تريد الاستجابة لرغباته. فتعد مأدبة فاخرة تتكون من عدد من الدجاج قد اختلف تشكيله وطهيه. فلاحظ الملك أنه لم يقدم إليه غير الدجاج وأصابه

الدهش فقال (سيدتي: أليس يوجد في البلاد طعام آخر؟.

يوجد يا مولاي، ولكن النساء كالدجاج فهن على اختلاف المظهر سواء في كل مكان.

فأدرك الملك ما ترمي إليه السيدة وعاد إلى زوجه في هدوء. وفي هذا الطراز من القصص كان بوكاشيو يغير في المفاجأة بأن يدفع بها إلى مفاجأة أعظم، فيكون الختام مفاجأتين لا واحدة. ومن خير الأمثلة لهذا النوع من الديكاميرون قصة (إبراهام اليهودي) وكان إبراهام هذا شخصاً بلغ من الأمانة والصدق بحيث تاق صديقه جيانودي شيفيني إلى إدخاله في المسيحية. ولكن اليهودي لا يستمع إلى رجاء صاحبه فهو لا يقدر ديناً كدينه وقد ولد يهودياً وينوي أن يعيش ويموت كذلك ويمضي جياتو في جهوده رغم عناد اليهودي حتى يقبل اليهودي آخر الأمر أن يدخل في المسيحية قائلاً (ولكني قبل أن أفعل أريد الذهاب إلى روما لأرى البابا وأتدبر سلوكه شيئاً ما. وأتدبر سلوك هؤلاء الكرادلة الأخر، فإذا بدوا لي بحيث أفهم من سيرتهم أن دينهم يفضل ديني فإني فاعل ما تريد وإلا فأنا مقيم على اليهودية).

فإذا سمع جيانو بذلك أصابه قلق شديد وقال لنفسه (لقد ضاعت كل جهودي، لأن إبراهام لو ذهب إلى روما ورأى شرور رجال الكنيسة فلن يقتصر على رفض الدخول في الدين المسيحي بل سيتحول إلى اليهودية ولو كان أصلاً من المسيحيين) لذلك حاول أن يصرف صديقه عن الذهاب إلى روما. لكن اليهودي أصر على ما اعتزم، فأسرج حصانه وذهب إلى روما وأخذ في دراسة أساليب القسس ولشد ما أدهشه أنهم منغمسون في كل ألوان الرذيلة وأنهم في مجموعهم أشد حرصاً على بطونهم منهم على أي شيء آخر. وجدهم يحبون المال بحيث لا يتحرجون أن يصيبوه لا من المسيحيين أنفسهم. هذه وأمور أخرى لن أذكرها صدمت شعور اليهودي، وكان شخصاً أريباً وادعا، فاكتفى بما رأى وعاد إلى بلاده.

قد يبدو أن هذا ختام منطقي للقصة ولكن بوكاشيو الضاحك السن أبداً ينعرج

بالقصة إلى مفاجأة ختامية تحيل قصة جيدة وكفى إلى إحدى روائع الأدب. فإبراهام حين يعود من روما يخبر صاحبه أنه قرر اعتناق المسيحية برغم ما شهد (لأنه إذا كان رجال الكنيسة يبذلون الجهد لقتل الدين المسيحي وإذا كان الدين المسيحي ينمو في سرعة كبرى رغم كل ما عملوا لتشويهه فمن اليسير أن أرى أن روح الله ترأمه لأنه أصح الأديان وأقدسها).

ويستطيع جيوفاني الهادئ أن يتسامح لا في معتقدات الناس وكفى، بل وفي أخطائهم أيضاً. فموقفه العام نحو (خطايا الناس الصغيرة غير الضارة) هو (أسعد الله من يحظون بها) فاستمتع وامتع حيثما استطعت فليس عاراً أن تمتع نفسك بشرط أن تشرك غيرك في متعتك وإذا ضبط أشخاصه في أشد لحظاتهم حرجاً لم يخجلوا قط من أنفسهم، فهم يدركون كما يدرك الرياضيون الطيبون أن موقفهم مثير وهم على استعداد لأن يهبوا لمن ضبطوهم وقتاً سعيداً.

إن بوكاشيو أمير شعراء الضحك فهو يرغب عن تصوير الحزن لأنه يعجز عن بثه. فهو من السلاسة والدعة بحيث لا يستطيع إيذاء أحد. ويقف بوكاشيو وحده في عصر عرف بالتعصب والحقد رجلاً بريئاً كل البراءة من التعصب والحقد على اختلاف صورهما، فعنده أن العنصر والطبقة الاجتماعية والعقيدة والأمة كلها كلمات تعني شيئاً واحداً. فكلها وحدة صغيرة من الناس تنتظمها أخوة البشر الكبرى. وكان شعوره الوطني فاتراً غير مكترث. ذلك بأنه، وطني عتيد، وطنه العالم كله. فهو يسمح لكل أنواع الناس من شتى البقاع بأن يشاركوا في هذه الزمالة العالمية الطيبة. فيحترم الفرنسيين كما يحترم الإيطاليين، ويحترم اليهود كما يحترم غير اليهود. ومن أجمل قصص الديكاميرون، بل ومن أثمن الدرر في الآداب كلها حقاً قصة (الخواتم الثلاثة) لبوكاشيو.

هذه الخواتم الثلاثة ترمز للأديان الثلاثة، اليهودية والنصرانية والإسلام. وقد قال بوكاشيو فيها (كان لرجل عظيم من الأغنياء خاتم فائق الجمال والقيمة. وكان يريد لهذا الخاتم أن يبقى لأسرتي إلى الأبد. فقرر في وصيته أن الذي سيعطي خاتمه من أبنائه فهو وارث الأب. فليعترف له بذلك، ولينل من التوقير ما تخوله له رئاسة الأسرة) ويمضي

بوكاشيو فيقول (مات الرجل الغني حين جاء أجله. نورث ابنه خاتمه الثمين وظل الخاتم أجبالاً كثيرة يتوارثه خلف عن سلف، حتى انتهى إلى رجل له ثلاثة بنون، كلهم فاضل مستجيب واجبه نحو أبيه فأحب الأب ثلاثتهم على السواء. وحرصاً من الأب على أن يخلف لبنيه الثلاثة هدايا متساوية القيمة كلف الجوهري بأن يشكل خاتمين آخرين على غرار الخاتم الأصيل. فإذا أعاد الجوهري الخواتم الثلاثة كانت من التشابه في قيمتها وجمالها بحيث عجز الأب نفسه عن تمييز الخاتم الأصيل من سواه. فإذا حضره الموت منح كلاً من أبنائه الثلاثة خاتماً وعندئذ شجر الخلاف بينهم، فكل يدعي أنه صاحب الخاتم الوحيد الأصيل.

فاختصموا إلى القانون ليقرر أيهم صاحب الحق. ولا تزال القضية منظورة لم يفصل فيها إلى اليوم، ويختتم بوكاشيو قصته بقوله: هذا ما حدث للأديان الثلاثة التي منحنا الله (الأب). فكل أصحاب دين يعتقدون أنهم ورثة الله الحقيقيون ولكن لم يحكم لأينا بأنه صاحب الحق، كما لم يحكم لأصحاب الخواتم.

وإذا كان لا يستطيع أحد منا أن يتحقق أينا آثر إلى الله فالأليق بنا جميعاً أن نحقق الشركة العامة بين بني الإنسان فتتعاون أمم العالم على الخير.

-٥-

كان بوكاشيو في أعوامه الباكرة يلهو بالدنيا، وهو في أعوامه التالية يؤدي عملاً جاداً من أعمال الدنيا. فهو يلقي سلسلة من المحاضرات عن دانتي، ويسافر إلى أقطار شتى ليؤدي طائفة من المهمات السياسية. وكاد أن يترهب ويدخل الدير ليكفر بذلك عن الجريمة التي ارتكبها إذ ألف الديكاميرون. ولكنه أغرى بالعدول عن هذا الرأي فمات كما عاش مذنباً بشوشاً بدلاً من أن يختم حياته قديساً عابساً.

وإنا إذا استعرضنا ذلك الرهط الجميل من مذنبي العالم الباشين من الرجال والنساء الذين يحبون ويصفحون، ويأملون أن يحبهم الناس ويغفروا لهم، تبدي لنا جيوفاني الهادئ وسط هذا الرهط وقد احتل مكاناً غير هين.

Amorosa Visione

Filostrato **Decameron**

Teseide **Ameto**

Fiammetta **Coarbaccio**

Life of Dante

فرانسوا رابليه

١٤٩٥ – ١٥٥٣

من عجيب الأمر أن أعظم الكتاب، أولئك القادرين على الحديث عن غيرهم في فصاحة واسترسال، يلتزمون الصمت فيما يتعلق بأنفسهم. فنحن لا نعرف عن حياة رابليه إلا قليلاً. كما لا نعرف عن حياة شكسبير غير القليل. فقد شغف كل منهما بتسجيل أفكاره بحيث نسي أن يحدثنا عن نفسه. ويمكن سرد قصة رابليه في بضع مئات من الكلمات.

كان فرانسوا رابليه مديناً بخشونته الصريحة السليمة إلى دم الفلاحين الذي يتدفق في عروقه، فأجداده الأقربون قد تخرجوا من طبقة الفلاحين والتحقوا بالطبقة الوسطى، وكان أبوه (أنتوان رابليه) ثرياً من ملاك الأرض ومحامياً في (شينون) تلك المدينة التي بدأت فيها جان دارك حياتها المجيدة قبل ذلك بنصف قرن. وولد فرانسوا سنة **١٤٩٥**. ولا يعرف شيء عن طفولته ومراهقته. ولا نلمح صورة واضحة له إلا وهو في السادسة والعشرين من عمره، فنراه شاباً طويلاً رقيقاً مرحاً بالغ الوسامة قوى الجبين عظام خديه بارزة قوية، وعيناه رائعتان، ومعارفه تبعث على الدهش، ومن المشكوك فيه أن رأساً آخر في هذا العصر قد استطاع استيعاب مثل هذه الذخيرة الضخمة من المعلومات، ولا يعرف على التحديد أين تلقي تعليمه، وإن كان من المعروف أنه انضم عام **١٥٢٠** إلى إخوان القديس فرانسيس في دير بوي سنت مارتن ولا يعلم أحد سبب دخول رابليه في تلك الطائفة.

فإن شخصيته المرحة لا تبدو متلائمة مع حياة التواضع والفقر التي يطلب إلى الإخوان الفرنشيسكان التزامها، ولعله اتخذ هذه الخطوة إرضاء لبعض أصدقائه الذين سبقوه إلى الانضمام إلى الفرنشيسكان. فلقد كانت الصداقة هي العاطفة القوية التي

تسود حياته. وكان مما يسره أعظم السرور أن يمنح الآخرين السرور وفضلاً عن ذلك فإن حياة الدير لم تكن خالية مما يرضى رجل المعرفة. فهي تمنحه الفراغ ليتعلم ويكتب، وتخليه من المسئوليات المالية. فإذا تصادف أن كان من محبي المغامرة كما هو من محبي الدرس، مكنته الكنيسة من أن يسافر مبشراً، أو وكيلاً عنها في أعمالها العلمانية. فالدير. لم يكن باختصار مكاناً غير متلائم مع رجل أحب المعرفة وأحب الحياة أيضاً. فلم تكن الالتزامات الرتيبة المفروضة على حياة الدير بالغة الطول ولا بالغة الدقة، فاستطاع رابليه في دير (بوي سنت مارتن) أن يتابع هوايته الأدبية على النحو الذي يرتضيه قلبه. وكانت مدينة فونتناي التي يقع فيها هذا الدير قد أصبحت مركز دائرة ثقافية من الإنسانيين، أعني هؤلاء الرجال الذين حاولوا تطبيق ثقافة الماضي السامية على حاجات الإنسان الحاضرة. وكانت الحلقة تجتمع بإلهام من أبيها الروحي ارزم **Erasmus** في حديقة الحاكم تراكو **André Traquau** حيث تحتسي نبيذها في ظل الغار، وتتناقش في الشعر والسياسة والموسيقى والدين والفن وما بعد الطبيعة والأخلاق والقانون.

انضم رابليه إلى تلك الحلقة على حداثة سنه، وسرعان ما أصبح رئيسها الفكري غير منازع.. وفي تلك الأثناء كانت تثور عاصفة من اختلاف الرأي في فنجان مناقشاتهم غير الرسمية، ذلك الفنجان الصغير الهادئ. وكان الخلاف يدور حول النساء والزواج. وكان (تراكو) الذي تزوج من صبية في الحادية عشرة من عمرها قد ألف لإرشادها كتاباً عن واجبات الزوجة إزاء زوجها، وكان يعتبر كل النساء أطفالاً غير مسئولين، ويعاملهن على هذا الأساس. ولما كان كتابه هذا يرضي المحافظين الذين أصروا على إبقاء نسائهم في "مكانهن الصحيح" فقد قوبل بحماس ولقي سوقاً رائجة. ولقب تراكو ألد أعداء المرأة في زمنه.

أما في دائرة فونتناي الأدبية فقد خالف آراء تراكو عدد من الشباب وكانت مخالفتهم لها شديدة. فأصدر أحد هؤلاء الشباب (الثائرين) كتاباً انحاز فيه إلى جانب ذلك الجنس (الأضعف شيئاً) والأشيق كثيراً من الجنس الآخر وعندئذ ثار ثائر (تراكو) فأصدر كتاباً جديداً أكبر من الكتاب الأول، وهو كراسة تعليمات تبين واجبات النساء، وامتيازات

الرجال، فعلى المرأة دائماً طاعة زوجها وعلى الرجل ألا يدلل زوجته قط. ولا ينبغي لأي رجل أن يتزوج امرأة بالغة الدمامة أو بالغة الجمال. فهي إن كانت بالغة الدمامة لم تستطع في الغالب إمتاع زوجها. وإذا كانت بالغة الجمال أمتعت في الغالب أزواجاً آخرين. ولا تدع زوجتك تعد نفسها مساوية لك. ولكن لا تبن بمن تساويك، واحتفظ بزوجتك بعيدة عنك بعداً لائقاً، فلا تقربها منك بحيث تسحرك، ولا تبعدها عنك بحيث تسحر غيرك من الرجال. وعاملها دائماً في قسوة رحيمة، ولا تطعمها إلا قليلاً من العناق يتخلله التهديد من آن لآخر.

وحين صدر هذا الكتاب ثارت مناقشات حامية في دائرة فونتناي الثقافية. وانضم كل عضو فيها إلى أحد الجانبين ومن عجب أن رابليه قد انحاز إلى جانب المحافظ (تراكو). وإذا كانت الحجج التي ساقها تراكو لم تثر إعجابه، فقد كان على استعداد أبداً لأن يوجه سهام تهكمه إلى حماقات الجنس اللطيف. فهو لم يكن مولعاً بالنساء من حيث هن طائفة.

ولم يكن كذلك مولعاً بالرجال من حيث هم طائفة، وإن أحبهم فرادى، فقد كان يشعر إزاء الأسرة الإنسانية (الغبية الشريرة) بزراية ودية. فهو يرثي (لإخوانه المزدرين) ويضاحكهم ويدرسهم ثم يرسمهم رسماً حياً في (بنتاجرويل وجارجنتوا). فالمحامون والأطباء والتجار والفنانون وأهل المعرفة.. كل هؤلاء من رجال الأعمال والحرف الذين كان يلقاهم في حديقة تراكو قد أصبحوا النماذج التي يرسمها في صوره التي تعز على الإحصاء كما تعز على المحاكاة. فهو يتعمق أشخاصه، وينفذ إلى صميم قلوبهم في يسر لم يتطامن إلا لشكسبير، كان يعرف كل ألوان الناس على اختلاف أعمالهم ومهنهم. فلقد كان يعرف أحوال الفلاحين في شينون ويتحدث بلهجتهم ويحلل عواطفهم، ويفهم أفكارهم. ونفذت بصيرته إلى أعماق حياة الإخوان الفرنشيسكان. وأمدته الألفة بحكام فونتناي بالأساس العملي لدراسة السياسة. وهو الآن موشك على خطوة جديدة في برنامجه، هي استقصاء الأفق المستدير للعادات والناس فهجر الفرنشيسكان وانضم إلى البندكتيين وكانت لهذا أسباب ثلاثة:

أولها أن الانتقال إلى هيئة من القسس أرقى تعلماً أمر يعينه على متابعة دراساته في مزيد من اليسر. وثانيها أن رئيس دير البندكتيين الذي انتقل إليه رابليه كان من أرقى رجال المملكة في ثقافته. وثالثها أن رئيس الدير قد عرض عليه وظيفة الأمين المتنقل له. (وهذه فرصة إلهية لتوسيع خبرته بالعالم) فسافر إلى إيطاليا. وكانت هذه الرحلة عند رجل خصب الخيال مثله أشبه برحلة إلى أرض الجان والخيال. فبدت له روما ذلك الملتقى للجمال الوثني والتقوى المسيحية، مدينة حوت آلاف المباهج. فأسماها في لغته الرائعة (عاصمة العالم) وتعلم في فترة مقامه القصيرة بها كيف يعرفها عن كثب، كأنما قد قضى بها طول حياته وكتب بعد عودته من إيطاليا يقول (ما من بيت يعرفه صاحبه.. أكثر من معرفتي لروما بكل شوارعها وأزقتها). وسافر رابليه في صحبة رئيس الدير إلى أقطار أوربية أخرى. وكان أينما حل ينصرف همه إلى دراسة الناس وأمرائهم في شتى مواقفهم وأعمالهم وطباعهم، وأتيحت له فرصة ملاحظتهم في السلم والحرب. إذ كان المعتدون وقتئذ كما ظلوا طوال التاريخ البشري، يحاولون سلب الحقوق من أصحابها. فملوك فرنسا وإسبانيا يدمرون مقاطعات شمال إيطاليا، وكان سلطان تركيا يحاصر فينا وكان جنوب ألمانيا يسحقون روما بأقدامهم.

وهكذا كانت الأمور تجري في دوامة مستمرة من الجنون وسفك الدماء، وشهد رابليه ذلك المنظر المخزي لقسوة الإنسان بالإنسان، فقرر مهاجمته بالضحك لا بالغضب. فهو في الفصل الثالث والثلاثين من (بنتا جرويل) يكشف عن غباء الحرب العدوانية بأن يصوغ منها مهزلة سافرة، فالدوق بيكروشول (الممرور) يتلهف على أن يزيد مجده، ويعمر خزانته، وهو من المؤمنين بتلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الطريق الوحيد إلى رخاء قطر من الأقطار إما يكون على حساب الأقطار الأخرى. لذلك برسم خطة الهجوم على جيرانه، وتكون قيادة الحملة لشركائه الثلاثة في الجريمة (سير سمول تراش) والكونت (سواش بكل) ولورد (لوسي لوكس) ويدعو قواده الثلاثة إلى الاجتماع به، ويرسم المجلس خطة لحمله هدفها أن تكتسي بلادهم ثوب المجد وتكتسي أرض جيرانهم جنت الموتى. ولكن كان من شهود الاجتماع سيد مسن خبير بالحروب يقال له (ايشفرون)، (اليقظ

الحواس) قال حين سمع خطة الحملة (أني لكبير الشك في أن هذا المشروع كله سيكون أشبه بقصة الجرة المليئة باللبن التي خدع الحذاء نفسه بأنها ستجلب له الغنى، فلما كسرت الجرة لم يجد عشاءه.. ما هدفكم من تلك الانتصارات الضخمة؟ لن تزيدوا عن كسر جرتكم) فقال الكونت سواش بكل: (يالك من ساذج! إذن فلنختبئ في ركن قصي، حيث نقضي أعمارنا بين السيدات نطرز ونغزل وننظم العقود. أن من لا يغامر لا يجد له حصاناً ولا بغلاً) فأجابه ايشفرون. (ولكن من يسرف على نفسه في المغامرة يفقد كلاً من الحصان والبغل). وهنا لباب فكرة العسكرية العدوانية. لقد كان رابليه يعلم كما يعلم كل عاقل في كل عصر، أن الانتصار النهائي لا يتحقق للمعتدي وأن انتصاراته الأولى إن هي إلا مقدمة هزيمته النهائية.

بيد أن رابليه لم يكن عميق الاهتمام بمسألة السلم والحرب. بل لم يكن في الواقع عميق الاهتمام بأية مسألة سياسية أو اجتماعية. فهو في جوهره كاتب فكه مرح لا كاتب متهكم ساخر. فهو لا يبلغ غاية سعادته –كما يقول– إلا حين يستطيع (الجلوس والراحة والطرب) للمسلاة البشرية التي لا يبدو لها معنى. وكان دائماً منشرح الروح. فعواء الساخر القاسي الفؤاد لم يجد سبيلاً إلى ضحكه. لقد كان ينعم بالهضم السليم بحيث لا يثور ثائره لحماقات رفاقه. وكانت نظرته إلى الحياة دائماً غير شخصية. فكان أشبه بمخلوق علوي أرسله سكان كوكب آخر ليعود بتقرير عن المهزلة الممتعة التي تمثل على الأرض.

وكان مصوراً للحياة لا يشبع نهمه، فلذلك كان يحاول دائماً أن يرقب الحياة من زاوية جديدة. فما كاد يتم مهمته مع الرهبان البندكتيين حتى أخذ على عاتقه أن يدرس الطب. وكان في الثانية والثلاثين من عمره حين بدأ دراساته الطبية بجامعة منتبلي. وحصل على إجازة الطب بعد ذلك بثلاث سنين فعكف على مهمته الخطيرة في الحياة، وهي إبراء الناس من أمراضهم بالدواء والضحك. فبدأ يكتب التذاكر الطبية ويكتب (بنتا جرويل) وما مضت خمس سنين حتى قدم كتابه الرائع إلى العالم باسم مستعار.

–٢–

ولا يمكن إدراج قصة بنتا جرويل تحت أي عنوان مما يصطنعه مصنفو القصص. أنها مزاج عجيب من الجنون والأخلاق، والخشونة والجمال، والامتهان والإخلاص، واللغو الميتافيزيقي والحكمة الفلسفية، والهذر الطائش والروعة الشعرية. إنها أشبه بالحياة في أنها لا تنتظم في خطه، وأنها مليئة بالمفاجآت. فالكتاب كله زاخر بالتواءات الفكرة وتغيرات الأسلوب، على نحو ما كان لغير الله ورابليه أن يتصوره على الإطلاق. فهو يقودك في طريق ممتع، وعلى حين بغتة يواجهك بجبل

لا سبيل إلى اجتيازه. فإذا وقفت مذهولاً مستيئساً من خدعته، فتح لك فجأة نفقاً في الجبل ودار بك من خلال كهوف جميلة تحت الأرض لا تخطر على بالك حتى في الرؤى. ولا تكاد تخرج إلى ضوء الشمس حتى يغلبك على أمرك بطوفان من القذارة يكاد يذهب بأنفاسك. فتكاد تستيئس منه في تقزز وإذا هو ينظفك وينعشك بحمام سحري من ندى الصباح، فتشعر باستعداد للمضي معه إلى سحر ما سيهديك إليه من مناظر الأرض التالية.

هذا هو الأثر بالأحرى سلسلة الآثار التي يحدثها رابلية في عقل قارئه. أنه حرباء عالم الأدب، وهو الساحر صاحب الملايين من الأطوار والأخيلة. لم يكن رابليه يحترم الصورة الأدبية فإذا نحن نظرنا من الوجهة الفنية إلى قصة بنتا جرويل وجدناها أخلاطاً من اللغو غير منطقية. يصف الكتاب الأول مولد جارجنتوا أبي بنتا جرويل وطفولته وتعليمه– وكيف أتى إلى باريس وسرق نواقيس (نوتردام) ليعلقها حول عنق جواده، وكيف انتصر جده على بكوشول بفضل معاونة أخيه جون.

وكيف جازى الراهب على ذلك بأن بنى له (دير تيليم) الذي صار مقر المذهب الديني الذي يقال له (افعل ما بدالك).

ويخبرنا (رابليه) أن القاعدة الوحيدة التي يفرضها هذا المذهب هو ألا تراعي قواعد على الإطلاق. وليس بالدير ناقوس يذكر أحداً بالزمن من أو بالواجب. وليس على رهبان مُحَمَّد الدير وراهباته أن يقسموا اليمين الثلاثية على التزام العفة والفقر والطاعة. بل

لهم أن يتزاوجوا وأن يكدسدوا الثراء ويخضعوا القانون لما يشتهون. وأبواب هذا الدير موصده أبداً في وجه (المتعصبين والمنافقين والمحامين والقضاة والحكام والصيرفيين والفاسقين والكذابين والجبناء والغشاشين اللصوص. وإنما يرحب هذا الدير برجال ينشدون المتعة، ونساء قادرات على الإمتاع، بعشاق أولي مرح وذكاء وطلاقة وطوب ورشاقة ودعابة ووسامة وكياسة وجدارة ودعة ومجانة، ونسا يشتهين ممتعات ضاحكات بارعات يسبين العقول، ساحرات مغريات ناضجات غيد، عزيزات رفيعات المكان غنجات رقيقات جميلات لا غاية بعدهن لمستزيد بارعات فاتنات).

هؤلاء هم الرجال والنساء الذين اكتفينا في وصفهم بحفنة من الصفات التي خلعها عليهم رابليه، الذين منهم يتكون أعضاء المذهب الجديد (افعل ما بدا لك) وهم يقضون حياتهم في المرح لا في الصوم. وفي الإمتاع والاستمتاع وفي الرضى الهادئ بامتلاء البطن ومرح القلب أشبع رغبتهم تقتل جشعهم لأن من طبيعة الإنسان أن يتلهف على ما يمنع عنه.

ويختتم الجزء الأول من القصة بتلك الصورة الهزلية لدير تيليم– ويتناول الجزء الثاني مولد وتعليم ابن (جارجنتوا) ويدعى (بنتا جرويل) ولقاءه ببانورج **Panurge** ذلك الطبيب المخادع الذي يعاني من خواء مزمن في جيبه. وهو سكير عربيد متهتك لا يلحق بغباره في الخسة والاستهتار أحد في باريس. وهو في كل ما عدا ذلك من الأمور أرق إنسان في العالم. وبعد إذ يقدم المؤلف بطله على هذا النحو الرسمي يأخذنا من يدنا أو قل من أنفنا ويجوب بنا عبر آفاق اللامكان إلى بساتين اللغو. ويقول رابليه (إني أدعو عليكم بالوقوع في الكبريت أو النار أو في بئر غير ذات قرار، إذا لم تؤمنوا حق الإيمان بكل شيء أرويه لكم في هذه الرواية) كيف فر بانورج من أسر الأتراك وكيف انتصر على أربعة عشر وستمائة ألف كلب ليلطخ سيدة فمنعت عليه، وكيف نسل بانتا جرويل بطريقة بالغة الغرابة ثلاثة وخمسين ألف رجل صغير ومثلهم من النساء الصغيرات.. وكيف أصاب النصر الباهر على المرأة وكيف أن (ابسنمون) قد عاد إلى الحياة بعد أن قطع رأسه ليخبر العالم بآخر أنباء الجحيم. وهكذا يختم الكتاب الثاني بهذه العبارة (طابت ليلتكم أيها

السادة ولا تكثروا من التفكير في أخطائي بحيث تنسون أخطاءكم).

والجزء الثالث من هذا الخيال الهازل والحماقة الخداعة يفل منطقية حتى عن الكتابين الأولين من حيث بناؤه. يبدأ بصورة الفيلسوف دبوجين الذي دحرج برميله على منفسح ثلاثة ومائة فعل على التتابع. ولم يحظ شكسبير نفسه بمثل هذه السهولة المذهلة في استخدام اللغة. ثم ينقلنا رابليه إلى أرض النعيم المقيم **Utopia** هذه الأرض المستحيلة الوجود تمام الاستحالة يقطنها ثمانية بلايين من السكان عقدوا العزم على فتح العالم. على أنهم لا يستخدمون في ذلك قوة السلاح، بل إخلاء الناس من همومهم، وتعليمهم كيف يحيون حياة آمنة طيبة. فيمنحونهم قوانين خيرة ويعاملونهم بأقصى ما يمكن من الرقة والمجاملة والدعة والحب، وبعد أن ينقلنا المؤلف إلى هذه الأرض التي تهفو إليها القلوب ويعد أجنحة آمالها للتحليق في مغامرات جديدة يوقف الوصف فجأة ويخصص كتاباً كاملاً للكلام عن الزواج. وقد بعثه على ذلك أن بانورج يريد الزواج لكن يحمله على التردد في إنجاز تلك الرغبة خوفه من أن زوجته قد تخونه، وتشغل هذه الحيرة عقله. فيشرع في بحث يستغرق أربعة وثلاثين فصلاً عن النساء. وهل هن أمينات أم خائنات لأزواجهن. فيشاور عدداً كبيراً من الناس منهم نبيه وشاعر وأخرس أصم وفلكي وفقيه ديني وفلاح مهرج بسيط.. ويدعهم جميعاً وقد تزود بالألفاظ ولم يتزود من الحكمة بشيء، على أنه تلقى من الفلاح البسيط اقتراحاً عملياً.. هو أن يحيل مشكلته إلى مهبط الوحي الذي يعرف الجواب على كل سؤال.

وهذا يؤدي بنا إلى الكتابين الرابع والخامس، الرحلة إلى مهبط الوحي. وقد أثارت الرحلة روح المغامرة والضحك في كل أرجاء الأرض وما فوقها وما تحتها فإذا وصل بانورج وبنتا جرويل آخر الأمر إلى نهاية الرحلة، علماً من مهبط الوحي أن الجواب الوحيد على سؤالهما ينحصر في كلمة واحدة (اشرب) اشرب عبأ كأس الحياة والجمال والمتعة والمعرفة والحقيقة. (وكل هذا مستحب) كما يقول (بانورج) ولكنه لا يزيد حكمة في شأن الزواج عما كان عليه قبل الرحلة إلى مهبط الوحي.

وهكذا ينقطع بلا تمهيد ذلك الخيط المعقد الذي لا فكاك له من اللغو السامي الذي

بدأ في غير مكان، ولم يؤد إلى مكان. ولنكتف بذلك في شأن الخطة غير المنطقية للقصة. ولننتقل إلى التفصيلات فنجدها قد عولجت بنفس هذا القدر من الإهمال غير المنطقي. فجارجنتوا في بعض الفقرات مارد جبار، وهو في فقرات أخرى رجل عادي في طوله. ويكون (بانورج) أحياناً رجلاً عاقلاً شجاعاً أميناً وفي أحيان أخرى يكون محتالاً أحمق جباناً. وأحداث القصة تسير في دوران جنوني مرح كأنها العالم. وفي الكتاب الأول يحيا جارجنتوا في أرض النعيم الأسطورية ونجده في الكتاب الثاني قد اختطف بلا سبب ولا مناسبة إلى تورين مسقط رأس رابليه. وفي الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثاني يختفي جارجنتوا من القصة بعد أن تحول إلى أرض الجان. ثم يأتي الفصل الخامس والثلاثون من الكتاب الثالث فنجده قد عاد إلى صفحات الكتاب وكأن شيئاً لم يصبه وهذا قليل مما يزخر به الكتاب من عدم الاتساق. لم يكن رابلية ممن يحسبون حساباً للعقول الصغيرة. فإنه إذ وجه همه إلى خلق إحدى الروائع لم يحتفل بتافه الأمر كما يحتفل به أصحاب الصناعة الأدبية. وأنه ليحدث أحياناً أن يكون خير الفنانين من أردأ الصناع، فحمداً لله على ذلك!.

–٣–

يبدو عمل رابليه في ظاهر أمره –كما رأينا– دعابة هاذرة طائشة حائرة لا معنى لها ولا خطة. ولكن لنعد إلى فتح باب الخزانة، ولننظر نظرة أدق إلى بعض ما حوت من كنوز تثير العجب. فما الذي نبدأ بفحصه؟ إن المشهد غني بالغرابة والخصب والتنوع والإذهال، غني بالحياة بحيث تصيب العقل منه نشوة فلا يسعه أن يقرر ماذا يختار. وليس من سبيل لتقدير رابليه إلا بأن تقرأه من أوله إلى آخره. غير أننا رغبة في تقديم نموذج للنكهة الفريدة لعمله، سنأخذ منه أية صفحة على نحو عشوائي تقريباً.

انظر مثلاً كيف يتهكم على العجرفة غير ذات المعنى في أحكام القضاة بالمحاكم. فلقد اشتبك لورد كسبريتش ولورد سكسفت في مناقشة في حضرة بنتا جرويل. وفيما يلي حكم بنتا جرويل بعد أن سمع أقوال الطرفين، (بعد رؤية وسماع وتدبر وبحث الخلاف بين لورد سكفست ولورد كسبريتش تقول لهما المحكمة أنه بالنظر إلى ما أصاب الخفاش على

حين بغتة من الرعد، والارتجاف والمشيب– فانسحب في شجاعة من الاعتدال الصيفي، والمحاولة بوسائل خاصة إزعاج بنادق اللعب عند المصابين بقليل من التوعك لإسرافهم في الجرعة بسبب المظهر الشيق واستفزاز الخنافس التي تسكن في الجو المعتدل لنسناس منافق على ظهر جواد قد شد إلى الخلف وترقوس. فإن المدعي صاحب حق في العجل الصغير، أو أن يسد بحبال القنب شقوق السفينة التي نفختها المرأة الطيبة وإحدى قدميه منتعلة والأخرى حافية، فيدفع له ويعاد إليه لضميره الدنيء اليابس من الفستق الجبلي أو الخرشوف بقدر ما في اثنتي عشرة بقرة من الشعر ويدفع مثل ذلك للمطرز ومبلغ كذا لفلان. كذلك تعلن المحكمة براءته من التهمة المترتبة على التدليس في الخطر الذي ظن أنه محدثة).

وهكذا وهكذا تمضي صفحات كثيرة. وفي ختام رطانتها بأمر القاضي المدعي بأن يدفع للمتهم غرامة حوالي منتصف أغسطس في مايو، وإذا شكا القارئ من أنه لم يفهم شيئاً مما كتب، فإن المؤلف يعترف له في ابتسامة ماجنة (وكذلك أنا لم أفهم شيئاً) وكان رابليه يزدري مهنة القانون زراية سليمة كان يقول (ما أشبه قوانيننا ببيوت العنكبوت) توقف الذباب الغبي، وتمسك به، وتدمره في داخلها ولكن الحشرات الأقوى تحطمها وتقذف بها وتحملها حيث شاءت).

وعيب معظم المحامين في رأيه هو أن كثيراً جداً من الكلمات تجري على ألسنتهم، ولا يوجد في رءوسهم من الحكمة إلا أقل القليل.

ويصدق هذا فيما يقول رابليه على معظم الفلاسفة، وخاصة فلاسفة ما وراء الطبيعة الذين يصفون في عبارات العلماء، ويقيسون في دقة العلماء، أشياء لا وجود لها. ويحدثنا رابليه أن أحد هؤلاء الميتافيزيقيين قد كتب بحثاً علمياً موضوعه: "هل تستطيع العنقاء إذا أزت في الفضاء أن تلتهم الغايات الثانية" وأن آخرين يشغلون أنفسهم بمثل هذه المشكلات: هل تستطيع فكرة أفلاطونية، تقفز إلى اليمين تحت فوهة العماء، أن تعصف بذرات ديمقريطس أو هل برد الشتاء في جزء الأرض المقابل لنا إذا أمر في خط اكثيولوجي عن طريق الصلابة المتناسقة للمركز، يستطيع عن طريق إحداث حركة مضادة للحركة

الدودية للأمعاء أن يدفئ الغشاء السطحي لكعب الإنسان (إلا سحقاً لهؤلاء الطبول الجوفاء الذين يخنقون الفكرة حتى يقتلونها تحت ستار من الألفاظ).

هؤلاء العلماء المزيفون الذين تتضاعف معلوماتهم. ويتناقص عدد ما يعرفون عنه، حتى يعلمون كل شيء عن لا شيء، هؤلاء المدرسون العميان الذين يعلمون عميان، إنما يتخبطون في حجرة ظلماء يبحثون عن فأر أسود لا وجود له.

يخلصنا رابليه من كل ما شابه ذلك من سخف حين يواجهنا لا بأفكار لا وجود لها، بل بحقائق ملموسة. وهو يمكن لنا من أن نخبر هذه الحقائق بكل حواسنا الحية. بيد أنه يلمس حواسنا بأشعة

العقل.

وإن خياله الخصب ليتراقص على الصفحات وتتدفق منه الحكمة والجمال. فهو من أبرع أساتذة العالم في تفسير الحق عن طريق الخيال، وكتابه مليء بالنوادر المنيرة والقصص الخرافية المثيرة. وأن بعضاً من نوادره وقصصه لا ترضى عنه الأذن خجلاً واستحياء. ولكنها جميعاً تضيء جنبات القلب بوهج الفهم. والحياة كلها عند رابلية نادرة من النوادر، دعابة إلهية ذات نهاية لاذعة. ولولا اللذع المسرحي أعني لولا صدمة الدهشة لما استحقت حياة أن نحياها. ولا استحقت قصة أن نقرأها. وكان رابليه مسرحياً حقاً. ويجب حين نقرأ قصصه أن نتوقع ما لا يتوقع، وأنه ليجد هذه المفاجآت في مغامرة الرجل الذي تزوج من امرأة خرساء. وفي نادرة فرانسوافيون وإدوارد ملك إنجلترا وفي قصة الجمال الذي دفع رنين المال ثمناً للدخان الذي على الخبز وفي الأدوية الخمسة التي استخدمها بانورج ليخضع بها شهواته الجسدية. وفي أمتع هذه الدرر جميعاً– قصة خاتم هانس كارفل. ولعل هذه القصص تبدو خشنة للغتنا الإنجليزية الحديثة البسيطة الصريحة، ولكنها في الظلال المرهفة للغة الفرنسية في القرن السادس عشر لا يبدو فيها شيء من الخشونة. فلقد كان رابليه يعرف دائماً كيف يمزج أشد خموره حرافة بنكهة الإدراك السليم.

على أن السنوات الأخيرة من حياة رابليه كانت تختلف عن قصصه في أنها كانت ممزوجة بالتوابل، ولكنها لم تكن ممزوجة دائماً بالإدراك السليم. فقد حاضر في الطب وكان من أول من أدخلوا تشريح الجثث في دراسة علم التشريح واخترع آلة جراحية تدعى قاطعة الألسن **Clottotomon** وعاش فترة في دير القديس مور، فقد نفى نفسه إليه بوصفه راهباً صحيحاً، إن وجد حقاً راهب صحيح منذ وجدت الرهبانية. غير أنه قد تدخل في السياسة بعد ذلك وسجن وبعد فترة قصيرة أفرج عنه. فعمل مستشاراً لناشر– وحاول كذلك أن يمثل على المسرح، بوصفه متنفساً لطاقته الدافقة..

ثم عاد إلى الدير، وانضم إلى رجال الدين. وجدد قسمه على التزام العفة. وحنث به وصار أباً جسدياً كما هو أب روح روحي، وندم على ضعفه ثم ندم على ندمه، وأخيراً نام نومته (٩ أبريل عام ١٥٥٣) غنياً بالمغامرات لا بالسنين.

وهكذا عاش وضحك ومات، ساخر بذ الساخرين أجمعين مرحاً وطرباً.

أهم مؤلفات رابليه

Gargantua Pantagruel

ميجل دي سرفانت

١٥٤٧-١٦١٦

نحن مدينون لسيرفانت بقصتين من أمتع القصص في تاريخ الأدب. أولاهما: قصة حياة دون كشوط العجيبة، والثانية: قصة حياة سرفانت التي تفوقها عجباً.

ومن أسف أن كتاب سيرة سرفانت يميلون إلى إسقاط مالاً يسيغونه من هذه السيرة. ولكن ماذا يحول دون إعجابنا بآثاره الأدبية وروايتنا سيرته رواية صادقة في الوقت ذاته؟ أنه لا يضير الورود أنها تنمو من التربة العادية، وأن جمالها طعامه الماء والطين. كذلك الشأن في فن سرفانت. فهو ثمرة عذابه وآلامه. ولو كانت حياة سرفانت أقل مرارة مما كانت لقصرت رواية دون كشوط عن بلوغ ما استشرقته من آفاق.

وكان ميجل دي سرفانت سافيدرا معاصراً لشكسبير. ولد في المدينة الجامعية (الكالادي هنارس) لكنه لم يكد يفيد من جوها الثقافي في حياته الباكرة ذلك لأن أباه كان طبيباً مشعوذاً ينتقل من بلد إلى بلد بصيب رزقه من تقديم الدواء، وتقطيع الأوصال من أولئك الشياطين التعساء الذين يلتمسون لديه الشفاء. وكان ميجل الصغير الذي يصحب أباه في أسفاره لا يكاد يتعلم من الكتب شيئاً، وإن تعلم من الحياة كثيراً. فإن فاته الالتحاق بالكلية فهو على ذلك شاب واسع الإدراك مدرب على شئون الحياة، فقد اشترك في مبارزة وهو لم يزل حديث السن شيئاً ما. وما هي إلا فترة قصيرة ثم وقع في حبائل حب مشوب لإحدى وصيفات الشرف.

وإنه لحثيث الخطى في جمع مادة لكتبه المستقبلة، فنراه بروما في عامة الثالث والعشرين. ولعله منها في منفى بسبب ما اقترف من حماقات الشباب. ويشتغل في هذه المدينة قرابة العام. ثم يحدو به قلقه وعدم استقراره إلى التطوع في الجيش. ثم يشترك في واقعة (ليبانتو) ويكاد يفقد يده اليسرى في هذه الموقعة من أثر ضربة سيف تخلف بها

جراحاً تعطلها طول حياته فيطلق عليه "كسيح ليبانتو" ويظل حتى آخر أيامه مزهواً بكفاءته العسكرية العادية أكثر من زهوه بعبقريته الأدبية النادرة.

وفي عودته من الحرب يقع في يد قرصان مراكشيين، فيبيعونه بيع الرقيق. ولم يفد من عبوديته إلا بعد خمس سنين. وهو بعد إذ مارس حياة الجند وحياة الرقيق يجرب حظه في الشعر، ويوفق فيه إلى إخراج طائفة من القصائد تعد من أردأ ما عرف الأدب الإسباني من شعر مكسور. وهو على قلقة وعدم استقراره إذ يتجه إلى المسرح فيؤلف بين عشرين مسرحية وأربعين. فياله من بركان من النشاط ثائر.

ولكنه يقذف بالرماد ولا يقذف بالحمم. فمسرحياته أردأ من شعره إن جاز أن هناك ما هو أردأ من هذا الشعر. ويحاول آخر الأمر أن يكتب قصة من قصص الرعاة. فيكون فشله فيها آلم ما أصابه من فشل. وبدأ سيرفانت وكأن القدر لا يريد أن يسلكه في الأدباء.

لقد فشل سعيه لإصابة الشهرة. واستقرت به النوى، ليبحث عن السعادة. فتزوج من سيدة تصغره بثماني عشرة سنة. لكنها على شبابها تعجز عن إرضاء خياله الجوال الأفاق. فما هو إلا عام بعد زواجهما حتى كان أباً لطفل.. من امرأة أخرى.

وحاول بعض الوقت أن يصيب بسن قلمه رزق أسرته متمشياً في ذلك مع القانون والطبيعة. وفي عام ١٥٨٨– وكان في عامه الأول بعد الأربعين فولى وجهه شطر مورد للمال أكثر حكمة، فسلك بين العملاء التجاريين الأرمادا العظيمة. ولكن سوء الطالع لاحقة هنا أيضاً. فهزمت الأرمادا وفقد سيرفانت مورد رزقه.

ثم اشتغل في عمل آخر.. فعمل محصل ضرائب في غرناطة ونقص الإيراد على عهده نقصاً خطيراً سواء لعدم أمانته أو إهماله، فقبض عليه وحكم عليه بالسجن فترة من الزمان. فلما أطلق سراحه عاد إلى الأدب يتعيش به، وصار من مرتزقة الشعارير، إذا جاز هذا التعبير. فهو يكتب المقدمات المنظومة تمجيداً لكل أنواع الكتب مهما تختلف موضوعاتها بين ملاحم الشعر وفن التوليد. وكانت هذه المقدمات. لا تفضل الكتب

عادة. حتى لقد كتب (لوب دي فيجا) وهو من كبار كتاب المسرح (في خطاب مؤرخ في الرابع عشر من أغسطس سنة ١٦٠٤) أنه ليس في إسبانيا شاعر أسوأ من سيرفانت. وأن سيرفانت نفسه ليعترف بذلك فيقول في مرارة ماجنة "إنني أشد دربة على قلب النظم مني على النظم".

وهكذا بلغ عامه الثامن والخمسين.. فتراه رجلاً محطماً مسناً خائب الأمل، ضائقاً بالحياة. لقد فشل في كل شيء، وفشل في الأدب على الأخص. وهو الآن إذا استعرنا قوله– "رجل ذو لحية كالفضة، وإن كانت كالذهب منذ أقل من عشرين عاماً، وشارب ضخم وفم صغير" أما الأسنان: فليس له منها غير ستة وهذه حالتها سيئة، ونظامها أسوأ، لأن أسنان الفك الأعلى لا تقابل أسنان الفك الأسفل. ويخبرنا أيضاً أنه ذو بشرة إلى البياض أميل منها إلى السمرة، ثقيل الكتفين شيئاً، وليس خفيفاً نشيطاً في سيره. وهذه صورة لا تأخذ بمجامع القلب صورة رجل مهجور مهمل يبدو أنه قد ارتضى أن يسير إلى النسيان الأبدي بطيئاً متثاقلاً.

–٢–

وبعدئذ قفز فجأة إلى المجد دون إيذان النفير، كأنه وهج مفاجئ بعثت به الشمس الغاربة. فهذا الرجل الذي كتب في شبابه بضعاً من أردأ قصائد العالم قد وأتاه الإلهام في شيخوخته. فكتب إحدى آيات القصص في العالم.

كان سيرفانت يشتغل في كتاب "دون كشوط" منذ أمد طويل. وكتب منها فصولاً في زنزانة السجن. وقد نسفت حوادثها جميعاً وسجلت في حمأة الفقر ولذعه اليأس. وما كانت دون كشوط غير بستان نما من الطين، وحكمة تمخض عنها الألم. وإلهام تجلى على روح وادع، سيم

العذاب في جسم مرهف الحس، وإذا كان العالم قد سلك هذه القصة في عداد الآيات العالمية. فما أبعدها مع ذلك عن أن تكون كتاباً كاملاً لا غبار عليه. فإن بها لأخطاء فاضحة، وأنها لمصابة– كما قرر كثير من نقدتها– بذلك الداء الذي مني به

الراوية الإسباني، أعني داء الإسهاب الممل. فالكتاب بالغ في طوله، بالغ في تفككه. فأزاهير عقل سيرفانت موزعة لذلك على أرض بالغة في السعة. وعليك إذا شئت بلوغ مواطن الجمال المنعزلة هنا وهناك أن تجوب إليها كثيراً من الدروب والمسالك القائمة الكئيبة، ولعل هذه القصة (دون كشوط) كان يتضاعف حظها من الجودة، لو تضاعف حظها من الإيجاز.

والقصة إلى ذلك مصابة بالكثير من عدم الدقة سواء في بنائها أو في أسلوبها. فسيرفانت لم يصحح كتابه قط على ما يظهر. ولم يعد قراءته حينما كتبه، فما أكثر ما بدأ فصلاً جديداً بما ينقض ما كتب آخر الفصل السابق، وكان ذات مرة أشبه بما روي عن يوشنع في التوراة من أنه وقف مرور الزمن، وأمر الشمس أن تلزم مكانها لا تتحول عنه أياماً عدة. فقد دعي دون كشوط وسانشوبانسا إلى منزل الدوق لتناول العشاء إذا أقبل الليل. وبعد أن أصابا من الطعام ألوناً عدة شاركا في نقاش طويل، جاوز بهما منتصف الليل بوقت طويل لأمراء، يقول سيرفانت "الآن قرب المساء".

وفي مكان آخر يذكر لنا سيرفانت أن حمار سانشو قد سرقه لص ثم تجد (المؤلف) لا يني عن وضع سانشو بانسا فوق حماره المسروق سبع مرات على الأقل، والكتاب مليء بمثل هذه الزلات.

على أننا سنتناول أخطاء سيرفانت بنفس الروح التي تناولها هو بها، فهو حين يكتب الجزء الثاني من دون كشوط يلفت القارئ إلى أخطاء الجزء الأول ويضحك منها: "يا إلهي ما أخرقنا نحن البشر" فهو لا يعتذر عن أخطائه، ولا يسعى إلى تصحيحها ولن يفكر في صقل قصته وتنميقها إلا كما فكر في زخرفة أبطاله وتجميلهم، أنها التؤلولة المضحكة في الوجه، والسخف الخرف في العبارة هو ما يجعل الإنسان والكتاب حياً محبوباً. وأن بعض آيات الفن لتبلغ من الكمال ما يباعد بينها وبين الإنسانية، أما قصة (دون كشوط) فقد بلغت من الإيغال في الإنسانية ما باعد بينها وبين الكمال.

ودون كشوط هي قصة مجنون وادع. يرويها ساخر وادع. هي سخرية رقيقة بحماقات

البشر. وهذا الكتاب على ما به من تهكم، قد خلا من المرارة. فنحن نضحك كلما رأينا صورة لحماقتنا في حماقة دون كشوط وصورة لخشونتنا في خشونة سانشو بانسا، ونشعر ذات لحظة أننا أقرب صلة بالفارس الذي أربت شجاعته على بصيرته، وننحاز في اللحظة التالية إلى التابع الذي أربت بصيرته على شجاعته.. ويحدث كثيراً إذ نرى الأول يحارب بسيفه والثاني يحارب بلسانه أن نقول "أنها صورتي الحقة رسمتها عبقرية سيرفانت"، فكل منا –كما يعرف سيرفانت– كان له يوم مع السيف ويوم مع اللسان. وكل آدمي منا هو مزاج من دون كشوط وسانشوبانسا، ففي أوقات نلوذ بقوة أذرعنا، وفي أوقات أخرى نعتمد على رشاقة أرجلنا وخفتها ونشاطها. ونكون في لحظة حكماء في حماقتنا فننحاز إلى دون كشوط فنحارب طواحين الهواء، ونكون في لحظة أخرى حمقى في حكمتنا فننحاز إلى التابع الذي يجتنب الجهاد منذ الآن "لينام ليلة على سطح الأرض".

وسواء أكنا من الحمقى أو الحكماء فكلنا يسعى على غير هدى إلى نفس الغاية وهي أن نجعل عبء الحياة أخف وطأة.

–٣–

لنقض الآن بضع لحظات مثيرة، فلنسرج خيلنا ونعتلي صهوتها لنلقي دون كشوط، ذلك السيد المتجهم الأسارير، حين يأخذ في غزوته ممتطياً جواده (روزيمانت) ذا الساقين النحيلتين، يتلمس أن يقوم بمغامرة نبيلة، ودون كشوط عزب في الخمسين، نحيل الجسم، خوى جيبه من المال، وزخر عقله بالخيال وكان قد قرأ الكثير من كتب الفروسية، والتجوال طلباً للمبارزة، فعزم على أن يكون فارساً مبارزاً، وأحاط جسمه بدرع مزرد هو كجسمه في قدمه وصدئه. ولبس خوذة قد شدت إليه بعقد كثيرة يستحيل عليه أن يخلعها إذا كان الليل، وتسلل من منزله ذات صباح مونق مشرق من يوليه "وكان عقله قد خبا" فيحسب طواحين الهواء مرده، والقسيسين قرصاناً، والحلاقين سحره، والأكواخ قلاعاً، والمجرمين سادة، وعاملات المشارب ملكات، ويحاول رد الظالمين وإعانة المظلومين، فلا يلقى جزاء على عمله غير الركل واللكم، يلقاهما من الظالمين والمظلومين على السواء.

ولكنه ما عظمت متاعبه إلا زاد إيغاله في الجنون فكرس حياته لإنقاذ فتاة ريفية لا تحس حتى بوجوده، ودعاها السيدة "دلشينيا الشقراء" ويقبل ما عرضه خادمه الأمين (سانشوبانسا) من تطوع لخدمته. وكان سانشو بانسا ذا حظ من الخرق والحماقة يعدل حظ سيده من الجنون... وإن كان لسانه يجري أحياناً بكلمات تزينها حكمة سليمان. امتطى اتمانه وتبع سيده إلى مواقع الجنون بشتى ألوانه، وهو يأمل في دون كشوط أن ينصبه آخر الأمر حاكماً على جزيرة.

وكذلك نراهما ذات صباح وقد بلغ منهما العناء والجهد، ولكنهما غير مكتئبين، وقد تأهبا لخوض مغامرة من تلك المغامرات التي عرفا بها وصارت علماً عليهما، ويرفع دون كشوط عينيه فيرى... اثني عشر رجلاً تقريباً مترجلين وكأنهم حبات سبحة ربطت في سلسلة من الحديد. وهذه السلسلة تلتف بأعناقهم وأما أيديهم فمقيدة بالأصفاد. وكان يحرسهم فارسان. وفي يد الراكبين بنادق ذات قداحات، وفي يد الراجلين رماح وسيوف، ولا يكاد يراهما سانشو حتى يقول "هذا عقد من الرقيق المسخرين، قوم سخرهم الملك تسخيراً في الأعمال الشاقة، فيقول دون كشوط "لماذا؟ رجال مسخرون؟ أيستطيع الملك أن يسخر أي إنسان؟ فيجيبه سانشو "لم أقل ذلك، وإنما قلت أنهم قوم يعاقبون على جرائمهم بأن يسخروا في خدمة الملك تسخيراً" فيجيب دون كشوط "لكن هؤلاء الناس على أية حال، وإن كان يرافقهم حرس فهم ذاهبون كرهاً لا طوعاً، فإن كان الأمر كذلك فهذه رسالتي محددة المعالم.. القضاء على العنف والتعذيب وإنقاذ المعذبين والمحتاجين.

وكانت سلسلة الرقيق قد وصلت وقتئذ فسأل دون كشوط أول الرقيق عن جريرته التي ساقته إلى الأشغال الشاقة. فقال الرقيق "إني أحب". فسأله دون كشوط "وكيف كان ذلك؟".

"أصبت بهوى سلة من الكتان غراماً جارفاً، حتى لقد احتضنتها.. وحاولت أن أفر بها" وسأل دون كشوط رقيقاً آخر ما سبب القبض عليه. فأجاب السجين "كان السبب أني لم أمتلك عشر ديكات، ولو تهيأ لي هذا المبلغ لأجريت به قلم مسجل الصكوك وشحذت به قريحة المحامي ولو كان ذلك لكنت اليوم في وسط سوق (طليطلة) لا في آخر

السلسلة مجروراً كما يجر الكلب. ويذكر سجين ثالث لدون كشوط أنه معاقب على جرم خطير، جرم لا يغتفر. فقد اعترف بأنه سارق، ولو أنه استطاع أن يمسك لسانه، واحسرتاه، لكان الآن رجلاً حراً.

ويستمع دون كشوط صابراً إلى قصة كل سجين. ثم يقرر أن هؤلاء الناس وإن كانوا مجرمين في رأي القانون، فهم كذلك قوم نزلت بهم محنة، وإن ما أصابهم ليرجع إلى حقيقة عرضية، هي أنهم قد قبض عليهم، فأعلن إليهم أن من واجباته بوصفه فارساً جوالاً أن يعطف على المحتاجين ويبذل لهم العون، ولكن دون كشوط قرن قوله الأحمق بالعمل الجنوني، فشن هجوماً مفاجئاً على الحراس، فأذهلتهم المفاجأة، وفروا مذعورين، واتيح للسجناء أن يتحرروا من أصفادهم.

ويزدهي هذا النصر دون كشوط فيأمر الرقيق الذين أنقذهم بأن يرفعوا الأصفاد التي حررهم منها، ويحملوها إلى (حبيبته دلشينيا الشقراء) ذكرى للمعركة التي انتصر فيها، ويرد السجناء الفارون على ذلك الرجاء العجيب بوابل من الحجارة يمطرون به دون كشوط وسانشو بانسا. ثم يختفي الأرقاء كل في ناحية. ويظل الأتان والحصان، وسانشو ودون كشوط وحدهم.

ويقف الأتان يتفكر مطرق الرأس، تهتز أذناه بين الآن والآخر، فهو يظن أن عاصفة الحجارة لم تقف بعد، بل أن صفيرها لا يزال يتجاوب حوله ويستلقي الحصان إلى جانب صاحبه الذي وقع عنه هو الآخر بفعل قذيفة حجرية، أما سانشو فقد وقف في مسكنة وخوف من رصاص الإخوان المقدسين (الشرطة الإسبانية) واستلقى دون كشوط بطوله على الأرض محسوراً إذ كان المسيئون إليه هم من قدم إليهم كل ذلك الجميل.

ويضطر دون كشوط وسانشو بانسا إلى الاختفاء آخر الأمر في الجبال ليتقوا غضب الإخوان المقدسين.

وهنا يقترح الفارس المقطب الجبين أن يؤدي الكفارة كما كان يؤديها فرسان الزمن الحالي. فيسأله سانشو– وعم تكفر؟ فيجيبه دون كشوط "لا أكفر عن شيء محدد

بالذات" إن أي إنسان يستطيع الحماقة لسبب معقول والمهارة أن تكون أحمق لغير ما سبب على الإطلاق. ففرسان الزمن الحالي كانوا يعذبون أنفسهم لأن عشيقاتهم غير مخلصات. أما دون كشوط فيحب تعذيب نفسه لأنه يستمرئ مذاق الألم. وهكذا يخلع ملابسه ويأخذ في ضرب رأسه في الصخور ويهيب بسانشو أن يراقب جيداً تفكيره الأليم وأن يبلغ نبأه لدولشينيا الشقراء.

وما يفرغ من هذه الكفارة حتى ينخرط في سلسلة أخرى من المغامرات المجنونة وتبلغ هذه السلسلة ذروتها في مبارزة مع زق خمر حسبه دون كشوط مارداً مسحوراً. وكذلك يسير من جنون إلى جنون، حتى يقابله أخيراً في وسط مغامراته المضحكة قسيس قريته، الذي كان يبحث عن ذلك المجنون الحبيب. فيحمله إلى قريته في قفص. فإذا أحضر هو وتابعه إلى القرية هرعت زوجة سانشو بانسا إلى زوجها وعلى شفتيها سؤال متلهف "هل حمارك بخير؟" فيجيبها سانشو بانسا. "هو خير مني" فتدمدم في حماسية "حمداً لله". وهكذا ينتهي الجزء الأول.

قدم سير فانت للعالم ذلك الكتاب المرح (الجزء الأول من دون كشوط عام ١٦٠٥) ولكن حياته الخاصة كانت توغل في المرارة وإذا كان الفقر لما يزل يطارده، فعليه الآن كما كان عليه من قبل أن يعيش بين حثالة البشر. فأقام مع ابنته وأخته في شقة في منزل سيء السمعة، حتى لقد أومئ إلى أنه قد شجع ابنته على احتراف (أقدم مهنة في العالم) وأنه كان يعيش مما تتكسبه. ثم أصابه في السابع والعشرين من شهر يونية ١٦٠٥ خطب هو أعمق خطوبه، فقد وجد في غرفة سير فانت وأهله نبين رفيع المقام مقتولاً، فقبض على سير فانت بتهمة القتل. ولكن ثبتت براءته لحسن الحظ.

وحينما كان العالم في الأعوام العشرة التالية غارقاً في ضحكه من دون كشوط كان سيرفانت لا يكتب إلا نادراً. فقد كتب عدداً من القصائد المتوسطة في قيمتها، وحفنة من المسرحيات لم يكتب لها رؤية المسرح قط، ومجموعة لا بأس بها من القصص القصيرة. هذا كل نتاجه الأدبي في حقبة كاملة، مضافاً إليه الجزء الثاني من قصته العظيمة.

-٥-

والجزء الثاني من دون كشوط أطرف من الجزء الأول نفسه من بعض الوجوه. فهو مزاج من اللغو المخرف والحكمة اليقظى فدون كشوط يتكلم أحياناً كالمجنون ويتكلم في أحيان أخرى كما يتكلم الحكيم. وبفضل عبقرية سيرفانت تمخضت هذه الأشتات عن كائن حي متسق.

على أن بطل الجزء الثاني ليس (دون كشوط) بل (سانشو بانسا) لقد صار عقل هذا الرجل أشد خرقاً من جنون سيده. إنه لا يزال مولعاً بمعانقة طعامه وتقبيل زجاجته. ولكنه لم يعد الأحمق الخلي البال الذي رأيناه في الجزء الأول. أنه الآن أبله طموح، حريص على أن يثري، وأن يعد زيجة فاخرة لابنته. فمن الخطر على شابة حسناء أن تظل وحيدة. فالزواج السيء أسلم للفتاة من الاختلاط غير المشروع.

لذلك فهو لا ينهي من مطالبة (دون كشوط) بالجزيرة التي وعده بها جزاء له على خدماته. أنه واثق بقدرته على أن يكون حاكماً كفؤاً، لأنه كما يقول عن نفسه (أعرف قليلاً عن كل شيء) وقليلاً قيماً عن أي شيء.

ويبدو في الواقع أن سانشيوا بانسا قد التحق بالمدرسة بين بداية الكتاب ونهايته فهو في الجزء الأول من الكتاب جاهل بقدر ما هو مخلص. ولكنه في الجزء الثاني يغدو وطابا ينضح بالأمثال فتنهال من فمه بالمئات في كل مناسبة. وهي زاخرة بالإيقاع اللفظي فقيرة جداً في المعنى.

وكذلك ينطلق التابع وسيده في مهمتهما الحماسية الهاذرة. وأن دون كشوط لعلى يقين من أن ساحراً يحول بينه وبين مغامراته، وينجح سانشو بانسا في إقناعه كذلك بأن السيدة دلشينيا نفسها قد سحرت. فبعد أن كانت آنسة جميلة، تحولت إلى جارية ريفية دميمة، فقرر دون كشوط أن يفك سحر محبوبته. وسمع من أحد الماجنين الذي يحاولون الهزء به أن المسئول عن كارثة دلشينيا هو سانشو بانسا، ولن تتحرر دلشينيا إذن من أسر السحر حتى يعاقب سانشو بانسا نفسه بثلاث آلاف وثلثمائة جلدة على عجزه

الشجاع. ويشكو سانشو قائلاً "لا أرى علاقة بين الضربات على عجزي وسعادة ليدي دلشينيا". فإذا عرض عليه سيده مبلغاً طيباً من المال لقاء هذا الجلد، غير رأيه ووافق قائلاً "حسناً جداً، سأفعل ما تطلب إلي وارفع السحر عن السيدة". وهكذا يصحب دون كشوط إلى الغابة، ويخلع ملابسه ويخفي نفسه وراء غيضة من الشجيرات ويطلق مع كل جلدة آهة رهيبة. ويقف دون كشوط على الجانب الآخر من الغابة لا يستطيع أن يشهد الجلد وتقشعر أوصاله رحمة بتابعه الأمين الذي ينزل بنفسه ذلك العذاب– فإذا فرغ سانشو من الجلد أمطرنا وابلاً من الأمثال ثم انطلقا إلى المغامرة التالية.

هذه المغامرة تذهب بهما إلى قلعة أحد الأمراء وكان الأمير قد سمع بمهازلهما فأغراهما بسلسلة من المهازل أشد هزءاً، ولعل هذا الرجل فيما يقول سيرفانت أشد أشخاص القصة غفلة لأنه (يجد كل هذه اللذة في الهزء بغيره من الغافلين) فيحرض كشوط على محاربة القطط المسحورة، ويورطه في غرام ساخر مع إحدى وصيفات الدوقة ويعرضه للإهانات والتهديد والصفعات من كل جانب. وبينا هو يمتع دون كشوط على هذا النحو، إذ يرفع سانشو بانسا إلى منصب حاكم على جزيرة باراتاريا، وهذه الجزيرة ليست في الواقع غير قرية على الأرض لا في البحر، ولكن السذاجة قد بلغت بسانشو بانسا إلى حيث لا يميز بين الجزيرة وغير الجزيرة. وتقدم إليه في سخرية فخمة تنفخ في أوداجه عظمة الملك، وقال عليه الصحاف زاخرة بأغلى الأطعمة، متبلة بأشهى التوابل، وإلى جانبها دنان الخمر من نبيذ عطر، فتصرخ أحشاؤه في طلب الطعام. ولكن طبيب القصر يحذره من أن يمس شيئاً مما وضع على المائدة. ففي الجزيرة جواسيس قد عقدوا العزم على دس السم في طعام الحاكم وشرابه.

ما أبلغها من تعاسة ياسانشو. أنه على عجزه عن الاستمتاع بملذات منصبه الرفيع، مضطر أن ينهض بمسئوليات هذا المنصب. فهم يجلسونه على منصة القضاء ليقضي في المنازعات بين رعاياه. وعلى حين بغتة يصير رغم كل جهالته آية في العدل، ويظل عشرة أيام يحكم الجزيرة بقلب عامر وجوف خاو. ثم يقرر أن يتنحى عن مجده الملكي. يفعل ذلك راضي النفس خاصة وأنه قد سمع أن الجزيرة مهددة بالغزو فيقول إن صعلوكاً حياً

لخير من ملك ميت. ولا يطلب لقاء خدماته في حكم الجزيرة غير حفنة من الشوفان طعاماً لأتانه، ونصف قطعة من الجبن طعاماً له هو:

ويعود إلى دون كشوط فيعرض خدماته في مغامرات سيده المقبلة، ولكن مغامرات المجنون الجديدة موشكة على النهاية. فقد حاول أصدقاؤه بكل ما استطاعوا من وسيلة أن يبرئوه من جنونه. واهتدوا أخيراً إلى خطة عملية، فقد أغروه بمبارزة صمويل كاراسكو، وهو من أصدقائه القدماء، تنكر في شخصية أخرى، واستخفى في زي فارس جوال وقيل لدون كشوط أن الفارس المغلوب عقابه أن يخضع لإرادة الغالب. فلما انتصر كاراسكو بسهولة على دون كشوط، أمره بالعودة إلى منزله، وألا يعرض نفسه بعدها لأخطار الفروسية أبداً. ولكن الشارد دون كشوط لا يرعوي عن غيه. فهو بعد إذ هجر المغامرة، قرر أن يتخذ له مهنة تعد لها جنوناً. هي مهنة الراعي العاشق. ولكن مرضاً عضالاً يصيبه فينجيه من جنون نهائي. فإذا ما اقترب دون كشوط من يومه الأخير عاد إليه عقله. (إني أنعم الآن بعقل حر نافذ لا تحجبه سحابة الجهل التي أنشأتها القراءة المستمرة والانكباب على كتب الفروسية. لقد كنت في حياتي غافلاً جهد الغفلة. ولكني سأحاول أن أكون في مماتي. أدنى إلى العقل شيئاً).

-٦-

لقد بدأ سيرفانت الجزء الثاني من دون كشوط في كسل وتردد. ولعله ما كان ليكمله لولا أن نافسه مزور محتال، ذلك المحتال الذي كان يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو (افلاندا) وقد أصدر هذا المحتال تتمة مزورة لدون كشوط، فاستشاط سيرفانت غضباً من هذه الجرأة، وسارع بإنجاز التتمة الصحيحة وقدمها للعالم سنة ١٦١٥.

وحسناً فعل. لأن العام التالي قد طوى حياته. فيالهما من فيلسوفين مجنونين حبيبين إلى النفس، دون كشوط وسيرفانت، قد كتبت لكليهما نعمة العيش في غفلة، والموت في حكمة.

أهم مؤلفات سير فانت

Galatea	**Novelas Exemplares**
Don Duixote	**Persiles y Sigismunda**

وكثير من التمثيليات والقصائد.

دانيال ديفو

١٦٦١- ١٧٢١

هذا الرجل كما قال أحد معاصريه- كانت أمه الزئبق، وكان أبوه الشيطان. والواقع أن مؤلف (روبنسن كروزو) كان من أشد رجال عصره قلقاً. ولم تكن الملائكة تبارك هذا القلق دائماً.

كان طوال حياته يحاول خدمة سيدين "الله والذهب" وبهذا الولاء الموزع لم يستطع أن يخدم أي السيدين في إخلاص كاف. فهو قد أعد للعمل في الكنيسة لكنه اشتغل بالتجارة. فكان يبيع الغزل والجوارب والنبيذ والمحار والآجر والبلاط والمنازل والأفكار.

انغمس في السياسة ووهنت قواه في السجن. وأوقف في مكان التشهير. وكان يتردد على منازل أهل النفوذ. وكان يدلف إليها من الباب الخلفي عادة.. وكان يعاشر الثوار والمنبوذين. وكان يتحدى الأمراء بوصفه أحد المنشقين على الكنيسة ويخدمهم بوصفه جاسوساً. وقد أصاب الثراء عدة مرات ومات مختبئاً. هارباً من دائنيه. وألف أكثر من ثلثمائة كتاب.. ولا يقرأ منها الآن غير ثلاثة فقط. روبنسن كروزو. ومول فلاندرس وصحيفة عام الطاعون (**A journal of the Plague Year**).

كان يدخل في تركيبه كل نشاط إنساني تقريباً، طيباً كان أو شريراً. وكان كالأرض الحية تعمرها الريح والصخور والأنهار والظلال والأزهار. وتعلوها شمس العبقرية التي تحيل المنظر المألوف الشتيت الألوان إلى جمال رائع.

لكن لننظر عن كثب إلى هذه الشخصية الشتيتة الألوان المسماة دانيال ديفو.

كان في صباه يدعى (دانيال فو) ابن بائع الشمع (جيمس فو) ولم يوقع (د. فو) إلا بعد أن تجاوز الأربعين. ثم وقع ديفو، ثم دانيال ديفو. وأخيراً شاء أن يلائم بين مركزه واسمه. فابتاع شعاراً للأسرة. واخترع سلسلة من النسب تؤدي به إلى أصل نبيل.

لكن أباه لم يكن في شك من أنه براء من أية نسبة إلى النبلاء. فربى أولاده وفق التقاليد الصحيحة للطبقة الوسطى الإنجليزية. وكان منشقاً على كنيسة إنجلترا. فأوحى إلى أسرته بروح البرم– ودرب دانيال منذ نعومة أظفاره على أن يكون أفاقاً لا يهدأ، وناقداً للحياة دقيق الملاحظة.

لم يكد دانيال يشب عن طفولته حتى حلت بلندن كارثتان مروعتان. هما الطاعون الكبير **١٦٦٥** والحريق الكبير **١٦٦٦** وخرجت أسرة فو من هاتين الكارثتين بدون أن تصاب بسوء. ولكنها أصيبت بالذعر.

(أن الحياة فرار دائم من الخطر) ومحاولة مستمرة لتحصين النفس من الخطر.. خطر الموت، وخطر الفقر، فالطاعون والنار قد جلبا ذلك الجوع الذي قتل آلاف الأسر. فيجب على آل فو أن يحرصوا على ألا تصيبهم مثل هذه المأساة "دافع العوز يا بني عن نفسك، وحاربه طول حياتك".

لقد حاربه جيمس فو نفسه ونجح في كفاحه نجاحاً لا بأس به. فأبدل ببيع الشمع بيع اللحم فلئن تخدم اللحم لأجدى عليك من أن تجلب النور. وتسمح له حاله الآن بأن يفكر في تعليم أبنائه تعليماً حسناً. فيبعث بدانيال إلى (أكاديمية) خاصة قائلاً أريدك أن تكون قسيساً وإلا فكن تاجراً. ولكني أريدك على أي حال أن تكون سيداً ناجحاً.

فقرر دانيال أن يحترف التجارة عملاً بنصيحة أبيه. فإن طريق النجاح غاية في الوعورة على قسيس بالكنيسة المنشقة. وهكذا نجده في سن العشرين يزور حوانيت لندن وسيطاً في بيع الجوارب. وكان شاباً نشيطاً مليئاً بالأفكار خاوياً من المال، وكان على هامش نشاطه يتجر بالمشروبات والطباق والأقمشة، والمحار، والغلايين، والسعوط. فكل شيء كان يدير طاحون مطامحه المالية.

كان شاباً ذا مواهب قوية، وأفكار إيجابية. لكنه كان قلما يعمل وفق أفكاره. فإنه لينصح بعدم المبادرة بالزواج، ويتزوج وهو بعد في الرابعة والعشرين، ولكن هذه الخطوة كانت إلى المهارة أقرب منها إلى الاندفاع. فقد منحته زوجه بائنة قدرها **٣٧٠٠** جنيه.

وأنه لينصح أصدقاءه بالابتعاد عن السياسة وينغمس هو في تيارها فيشترك في ثورة (ننموث) التي نشبت ضد العرش وكاد يدفع حياته ثمناً لحماقته.

وشفى من ثورته زمناً لكنه لم يشف من عدم مبالاته. فقد أسرف في توظيف أمواله في سفن التجارة وابتاع منزلاً بالمدينة ومنزلاً بالريف وجازف في كل مشروع جريء مر بخاطره. وإن الإسراف في التجارة لا خطر من الإقلال منها. فهو يجد نفسه في أوائل الحلقة الرابعة من عمره وقد أفلس واستدان مبلغ ١٧٠٠٠ جنيه.

ثم تأتي فترة من القضايا، والقضايا المقابلة، واتهامات بالحنث باليمين والابتزاز والتزوير. وبذل مجهوداً يائساً لأن يعوض بقلمة ما حاق به من خسائر، فأخذ يتجر ببضاعة جديدة، ببضاعة الفكر. فكتب عدداً من القصائد والنشرات ووجد أنها دعامة ضعيفة لرجل تتكاثر أسرته. لذا فهو يعود إلى التجارة ويدير نصيباً حكومياً ويشتغل محاسباً في إدارة الدخل ويصبح مستشاراً قديراً لنظام العملة البريطاني. لكنه وجد أن رقيه في وظائف الحكومة يسير في بطء لا يساير طموحه الذي لا يهدأ. فكان تواقاً إلى أن يشتغل لحسابه الخاص. فجمع من جديد بضع مئات من الجنيهات، فإنه أملس اللسان ناعمه كما هو سيال القلم حاضر العبارة. وافتتح مصنعاً للآجر والبلاط ووجد أن نجاحه قد فاق أحلامه، فاشترى عربة ومنزلاً جديداً.. وما مضت أعوام قليلة حتى كان قد أدى معظم ديونه.

وخير ما في الأمر أنه وجد وقتاً للكتابة فهو في سالف عهده قد حمل نفسه على الاشتغال بالأدب كما تحمل النفس على حرفة مؤلمة. أما الآن فهو يعود إليه بوصفه ملهاة ممتعة. فكتب عشرات من النشرات في كل الموضوعات مهما تنوعت، فتناول إنشاء الطرق وتحرير المرأة والنعي على قوانين إنجلترا الظالمة فكلها قوانين أشبه بعش العنكبوت الذي يمسك بصغار الذباب بينما تقتحمه كبار الحشرات، كما كتب قصيدة تهكمية عنوانها "الإنجليزي الأصيل المولد **The True Born Englishman**" وهو يندد فيها بقسوة البريطانيين على المهاجرين الأجانب والهولنديين منهم خاصة. وكان من أثر هذه القصيدة أن كسب ديفو قدراً من الشهرة. وليس هذا فحسب بل وكسب كذلك مودة

الملك. فقد كان وليم الثالث نفسه هولندياً فجازاه "أعظم الأمراء وأحسنهم" كما يقول ديفو "بما جاوز طاقته على الاستحقاق" فقد أصبح ابن تاجر الشمع في عامه الأول بعد الأربعين مستشاراً للملك. وكان يفو فخوراً، وحق له أن يفخر، بما أحرزه. ولكنه لم يكن يدري شيئاً عن تلك المزالق التي تنتظره في قابل أيامه.

– ٣–

كانت متاعب ديفو ترجع إلى حد ما إلى تناقض عجيب في خلقه. فهو ابن تاجر منشق، فهو خليط متناقض من الطموح المادي والتماسك الخلقي، وكان طموحه يسيطر أحياناً على خلقه. ولكن خلقه كان في أحيان أخرى يسيطر على طموحه. وهو ألا يكن دائماً فوق مستوى شبهة النفاق في معامله شركائه في التجارة فهو لم ينزل قط إلى مستوى النفاق بعقيدته المتطهرة. فهذه العقيدة المتطهرة العنيدة طالما أغرته بالسعي إلى الكوارث وسط مجالي الرخاء. فهو في ميدان السياسية كثيراً ما باع قلمه. لكنه في ميدان الدين لم يبع ضميره قط. بل إنه على نقيض ذلك قد حافظ على حماسته في دفاعه الباسل عن قضية المنشقين البغيضة في وجه برلمان معارض. وقد بلغت إحدى نشراته في الدفاع عن المنشقين من الإيلام للبرلمان الرجعي بحيث صدر أمر بالقبض عليه فاختبأ ديفو ومنحت جائزة قدرها خمسون جنيهاً لمن يعثر عليه "هو رجل متوسط الحجم في نحو الأربعين أسمر اللون وشعره داكن لكنه يرتدي شعراً مستعاراً، ذو أنف روماني وذقن مدببة وعينان رماديتان وتؤلولة كبيرة قرب فمه".

وعثر عليه وفي التاسع من يوليه عام ١٧٠٣ حكم عليه بأن يقف ثلاث مرات في مكان التشهير وأن يؤدي غرامة قدرها ٣٠٠ مارك وأن يرسف في السجن ما طاب للملكة آن أن يرسف. فالملك الذي كان يرعى ديفو قد مات إذ سقط عن صهوة جواده.

ولكن هذا التشهير العلني الذي قصد به إذلال ديفو قد استحال إلى نصر. فالدهماء بدلاً من أن يقذفوه بالبيض الفاسد والسمك النتن كما جرت العادة كانوا يحيونه بالهتاف

والتصفيق. لأنه رجل جرؤ على أن يقول قالته، فكانت رحلته من مكان التشهير إلى السجن أشبه بموكب الفاتحين الغزاة، ولكن باب السجن لم يكد يوصد عليه حتى نسيه المعجبون. وظل عدة شهور سجين زنزانته ما طاب للملكة آن. وكانت تبغض المنشقين.

وكان مصنع الآجر الذي يملكه يدب إليه الخراب وكانت أسرته تشرف على الموت جوعاً ولولا دهاء الوزير الجديد (روبرت هارلي) لجاز أن يظل في السجن طول حياته، وكان هذا السياسي الكبير يكره مبادئ ديفو الدينية على أنه كان على حظ من الدهاء مكنه من استغلال مبادئ ديفو السياسية، أو أن شئت الدقة فقل تحرر ديفو من المبادئ السياسية. فقد لاحظ أن قلم هذا الكاتب السلس يستطيع اللعب البهلواني على حبل السياسة فهو يمدح الأحرار آنا ثم يمدح المحافظين آناً. وكان هارلي نفسه من المحافظين لكنه يتوق إلى كسب مودة المعتدلين من الأحرار فساوم ديفو.. ووهبه حريته في مقابل خدماته الأدبية.

وقبل ديفو ما عرض عليه وأصبح لسان الحكومة. فأنشأ جريدة أسبوعية (**he Review**) بمساعدة مالية من راعيه، وأكد ديفو أنها مجلة متحررة من التعصب والحزبية ولكن القراء كانوا أعلم ببواطن الأمور، فالألفاظ في الريفيو كانت لديفو ولكن الصوت كان لهارلي.

ومن الإنصاف أن نقول إنه لم يجد مشقة كبيرة في تقليد صوت هارلي. فهارلي كان من أحرار حزب المحافظين. بينما كان ديفو من أحرار حزب الأحرار. والحرية مهما تتخذ من أسماء ومعسكرات فلها نفس اللون في كل مكان. إن ديفو يشعر– ولعله على حق– أنه يخدم قضية بلاده إذ يحاول جمع المعتدلين في الحزبين على التفاهم.

وكان معنى هذا أن يبذل ديفو جهداً شاقاً ويلقي كثيراً من العنت وقليلاً من الأجر. فلقد كان يكتب كل كلمة في كل عدد من أعداد المجلة لأن هارلي لا يأتمن إنساناً غيره على عمل بهذا القدر من الدقة، ولكن ديفو رغم دماثته ودقته قد واظب على كسب عداوة المتطرفين في كلا المعسكرين إذا كانت حياته الصحفية حرباً دائمة على القدح

والتنديد والاتهام والتهديد.. وحرباً على الفقر، فإن هارلي ليدفع وعوداً خلابة لا أجراً محدداً.

وطالما أذل ديفو وحمله على استجداء الأجر الذي استحق الأداء من زمن طويل "إن على الآن واحسرتاه أن أطعم أسرة من سبعة أطفال" وكان هم هارلي أن يحتفظ دائماً بولاء عبده وكان سبيله إلى ذلك ألا يدع العبد يطمئن إلى المستقبل.

وتحقيقاً لهذه الغاية ظل هارلي يزيد كل يوم توريطاً لديفو في حبائل منظمات الحكومة السرية، فأحاله باختصار إلى جاسوس، أو وكيل سري كما كان يسميه تجملاً، وكانت مهمة ديفو بوصفه وكيلاً للحكومة أن يتنقل في البلاد متخذاً له اسماً مستعاراً وأن يتحدث إلى الناس ويتحسس أعمالهم ويتعرف إلى رأيهم في ملكتهم ووزيرها.

وفي صيف ١٧٠٤ بدأ ديفو رحلته التجسسية فوجد هذه الرحلة حبيبة إلى نفسه كما اعترف بذلك. فهو طلعة بطبعه يحب صحبة الناس وملاحظة عاداتهم ودراسة شخصياتهم وتحليل أفكارهم. فجعل من نفسه مشيراً صديقاً للناس، لا جاسوساً فضولياً عليهم، وليس هذا السبيل أقل تحقيقاً لما رمت إليه الحكومة. ذلك أن ديفو قد نجح في أن يستميل نقاد العرش بدلاً من أن يحاول دمغهم بالجريمة.

وكانت خدماته قيمة بشكل أخص في دعم الوحدة بين إنجلترا وإسكتلندا لقد حياه الناس بصيب من الحجارة حين وصل إسكتلندا أول مرة وهاجم منزله في تلك الليلة جمهور ثائر من أعداء الإنجليز هاتفاً (يسقط الجواسيس! لا وحدة مع إنجلترا) وهرب ديفو من باب خلفي فنجا بأعجوبة، ولكنه استطاع تدريجاً أن يكسب آذان قادة إسكتلندا وقلوبهم، واستطاع آخر الأمر أن يكتب إلى هارلي (إني الآن مرتاح إلى رؤية ثمرة كل ما بذلت من الكد والكفاح في مواجهة الدهماء.. وهذه الثمرة هي الاتحاد.. وإني أكتب إليك ذلك بينما مدافع القلعة تقصف احتفالاً بالاتحاد.. ولعلي أستطيع أن أقول لك دعني الآن أرحل من هنا فقد رأت عيناي نهاية الشقاق).

ولكن هارلي يرغب عن السماح له بالرحيل. فديفو رقيق قيم جداً بحيث لا يصح

تحريره بهذه السرعة (فأبقى يده على المحراث وأطعمه آمالاً جوفاء) فبعث إلى ديفو بصك بمبلغ مائة جنيه وهو مبلغ وفى بإطعام أسرته ولم يصلح دعامة لأي مشروع مادي، واستمر ديفو يخدم سيده ويرسم خطة المستقبل أعمر بالرجاء يجلب حياة أسعد، ليس لشخصه وكفى بل للعالم أجمع. استمر في عمله وكيل مخابرات لهارلي ولكنه استعان على العيش ببيع فرش الموائد في إسكتلندا وكتابة عدة نشرات لإصلاح المجتمع. فهو يدعو سنة ١٧٠٩ إلى إنشاء عصبة أمم ومحكمة عالمية وكان الملك لويس الرابع عشر قد أصيب لتوه بهزيمة نكراء على أيدي الجيش البريطاني فكتب ديفو يقول (إن في استطاعة إنجلترا وحلفائها أن تمنع إلى الأبد أي حرب جديدة في أوربا ويمكنها أن تقيم من نفسها حكماً في كل المنازعات والخلافات التي يمكن أن تنشأ في أوربا سواء بين مملكة ومملكة أو بين ملك ورعيته. فهي تستطيع أن تجعل من مؤتمر الحلفاء محكمة استئناف يلجأ إليها كل من أوذي أو اضطهد.. فتحمي الدول الصغيرة من إرهاب جارتها القوية فلا يفتات قوى على ضعيف بعد اليوم ولا يبتلع القادر العاجز ولو شاء هذا الاتحاد (الذي يتكون من أمم تكره العدوان) لاستطاع منع نشوب الحرب حتى ينتهي العالم.. غير أن أنصار العزلة في القرن الثامن عشر لم يعيروا ديفو أذناً واعية، فكان شأنهم معه كشأن أنصار ودرو ولسون.

-٤-

وتمضي عدة سنين لا نعرف فيها مكان ديفو. لقد دارت دائرة الحظ السياسي على هارلي فنزل من علياء سلطانه إلى غيابة السجن.. وأخذ معه عدداً من أنصاره منهم ديفو. وكانت هذه الفترة الأخيرة في السجن شفاء لديفو من غرام السياسة "وإذا قال الواعظ أن الأمر كله لا يعدو الزهو والحقد فإني أرى قوله يصدق على هؤلاء الساسة. فكل شيء لديهم تظاهر ونفاق كريه، سواء في ذلك كل حزب وكل عصر وكل عهد. فهم إن كانوا خارج الحكم كافحوا لتوليه، فإن ولوه كافحوا لاستبقائه في أيديهم ولم نكد نسمع بحزب أو بشخص إلا وقد قارف– بقدر يزيد أو ينقص– جريمة تغليب مصلحته على مبدئه".

لقد تورط ديفو شخصياً في السياسة، فلم يفد مصالحه ولا مبادئه. وها هو ذا مريض الجسم متقزز العقل، قد فصم صلته أخيراً بهذه العبودية السياسية، واختفى في الضباب.

ثم يعاود الظهور وقد شارف الستين فيطرق عظماء لندن رثاء له ورحمة ما أشنعه من سقوط. لقد صار مستشار الأمراء راوية قصص للطاهيات وهان أمر مؤلف الأبحاث السياسية، فصار يروي مغامرات بحار تحطمت سفينته.. ولم تدرك غير قلة ضئيلة من معاصريه أن دانيال ديفو حين هان فالف (روبنسن كروزو) قد سما إلى المجد الخالد.

-٥-

لقد اهتدى ديفو إلى نفسه آخر الأمر فهو لم يخلق تاجراً ولا كاتب نشرات ولا سياسياً بل خلق قصاصاً وكانت حياته كلها بحثاً عن هذه الحقيقة.. ولم يكن انتحاله تلك الشخصيات المتناقضة، شخصية الصانع والتاجر والمنشق والمحافظ والثائر والرقيق والجاسوس، لم تكن هذه غير محاولة لا شعورية لأن يفهم بواطن ألوان النشاط المتنوعة في العرض الإنساني (فإنك إن شئت وصف خطيئة أخيك فعليك أن تتقمص أهابه) لقد انتحل شخصيات الناس من شتى الألوان وهو الآن يفسر الإنسان. فكانت الحقبة الأخيرة من حياته نشاطاً في الخلق مدهشاً وكأن وهن جسمه قد زاد من نشاط عقله فصار خياله بشكل القصة بعد القصة فألف ملك القراصنة، ومغامرات دنكان كامبل، وذكريات فارس، وكابتن سنجلتن، والكولونيل جاك، ومول فلاندرز، وصحيفة عام الوباء، وتاريخ الشيطان فكيف استطاع رجل في هذه السن المتقدمة أن ينتج كتباً جديدة بهذه الكثرة؟ كيف يجد مع ذلك فسحة من الوقت لمغامراته التجارية؟ على أن ديفو وان شفي من داء السياسية فإنه لم يشف قط من عدم المبالاة، فظل حتى نهاية حياته يواصل العدو وراء ذلك الوعاء الذهبي في نهاية قوس قزح. ومهما بلغ ربحه من قصصه فقد خسره في الاستثمار المهمل. وورط معه في هذه الاستثمارات غير الحكيمة طائفة من أقرب صحابه وأقربائه وكانت منهم ابنته (هانا) وشاء آخر الأمر أن يعوض خسائره في التجارة فألف (المرشد الكامل للنجاح في الأعمال) ويهدف هذا المرشد -كما قال ديفو - إلى تعليم تجارنا والشباب البادئين منهم خاصة فقد كان ديفو بارعاً في أزجاء النصح... ولم يكن بارعاً في اتباعه فنحن نراه في عامه الخامس والستين وقد تورط في قضية اتهم فيها بالاحتيال وكان الاتهام ظالماً على الأرجح.

وبعد أربع سنين لا نعثر له على أثر. فقد اختبأ من دائنيه وليس من دليل على مكانه غير خطاب وصل إلى صهره (هنري بيكر) في ١٢ أغسطس سنة ١٧٣٠ ممهور بتوقيع د. ف. التعس. أما تاريخه فهو (نحو ميلين من جرنتش كنت) يتكلم الخطاب عن محنة رجل مسن مثقل بوطأة من الأسى لا تحتمل، مهمل من أسرته، كسير القلب إذ عامله ابنه معاملة خلت من الإنسانية (والأغلب أن ابنه قد رفض إعطاءه المال اللازم لمضاربة طائشة جديدة) "وقد ألح عليه مرض ثقيل جداً فهو طائر اللب إذ يحرم العزاء في ضمة أخيرة من ابنته وزوجها فقد بات لا يحتمل مجرد الحضور لرؤيتهما والعودة في الحال، وأما ذهابهما لرؤيته فأمر مستحيل لأن مخبأه يجب أن يظل سراً لا يعلمه أحد حتى أعز الناس عليه ثم يختتم الكتاب في نغم مستسلم (إني لشديد القرب من خاتمة مطافي أسير مسرعاً إلى حيث يستريح أهل العناء ويقصر أهل الشر عن أذاهم، فمهما يكن الطريق وعراً واليوم عاصفاً، ومهما تكن الوسيلة التي شاء الله أن يميتني بها فإني أريد أن أختم حياتي وفي قلبي هذا الدعاء "نحمدك اللهم".

وهكذا... بعد أن أسلم بحار السفينة المحطمة روحه إلى الله.. أبحر وحده مجرداً من الصحب.. ميمماً شطر الجزيرة المجهولة في الظلام.

أهم مؤلفات ديفو

Essay on Projects
The True-Born Englishman
Yymn to the Pillory
The Apparition of Mrs. Veal
Robinson Crusoe
Serious Reflection
The Dumb Philosopher
Duncan Campbell
Memoirs of a Cavalier
Captain Singleton
Moll Flanders
The Journal of the Plaque Year
the History of Colonel Jack

جوناثان سويفت

١٦٦٧- ١٧٤٥

قصة جوناثان سويفت هي مأساة عملاق وثقة الأقزام بالأغلال، ولكنها أيضاً مسلاة ساخر عرف كيف يضحك من أغلاله، كان له عقل بالغ القوة في جسم بالغ الضعف.. وهو مزاج يجعل من صاحبه إما واعظاً مملاً أو ماجناً لاذعاً حصيفاً. وقد جمع سويفت بين الشخصيتين في آن واحد.

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر. وتجلى وهن جسمه في نفس السن تقريباً فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مسئم يعاوده.

كانت حياته كلها في الواقع خليطاً من المتناقضات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده– فمع أنه ولد لأبوين إنجليزيين فقد ولد في إيرلندا وقضى هناك معظم حياته. وبدا في أخلاقه ذلك الأثر المزدوج، أثر أسلافه وأثر بيئته.. فقد شب إنجليزي العقل أيرلندي القلب. فقد أباه وسنه ستة شهور فإذا كان شهره الثاني عشر اختطفته حاضنته. فهي لا تكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثاً في إنجلترا حتى تبحر في سفينة دون أن تخطر سيدتها، وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها. ولم يعد جوناثان إلى أمة إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث وكان الطفل قد قوي فيه حب كبير للإنجيل وكلف شيطاني باللهو والمزاح.

وفي السادسة التحق بمدرسة كلكني والتحق في الرابعة عشرة بكلية ترنيتي بدبلن وهنا أظهر شغفاً بالمطالعة وانتقاضاً على النظام، ولم ينل البكالوريوس إلا بشق النفس. ولكن حيل بينه وبين درجة الأستاذية "لوقاحته مع مساعد العميد" فعاد إلى بلدته يجلله العار.

ولكنه وفق رغم وقاحته في الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل، وهو من أوساط الأدباء. وكان مستشاراً مقرباً إلى ملك إنجلترا وكان فيما يتناقل من لغط حاقد

مريب الأب الطبيعي لجوناثان نفسه. وأتاح له المنصب عشرين جنيهاً في السنة ومكاناً على المائدة الثانية مع الخدم. فغنى السكرتير الألمعي جيباً واضمحل شأناً، فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعي. فإذا فرغ لنفسه– وقليلاً ما كان يحدث ذلك– نسخ خواطره الشخصية بالشعر غالباً.

وفي أوقات فراغه هذه القليلة (أثناء تدربه) وجد الشاب متعة أخرى في تعليم فتاة صغيرة تدعى ستيلاهستر جونسون. وكانت طفلة شائقة في الثامنة، تقيم بمنزل سير وليم. وكان الغموض والإبهام يكتنفان مكانها من المنزل، والأصل الذي تحدرت منه. فهي قد رسمت ابنة لرئيسة خدم سير وليام وإدوارد جونسون أحد محصلي السيد وأحبها سير وليم فكانت كعضو في الأسرة. وسرت شائعة – وقد يكون لها في هذه المرة مبرر– أن ستيلا أيضاً ابنة طبيعية لسير وليم. ومهما يكن من أمر هذه الشائعة فإن سير وليم لم يقف عند تخصيص بعض ماله لها بعد وفاته بل جاوز ذلك إلى تربيتها تربية السيدات في رعاية جوناثان سويفت. وكان سويفت ينعم بتعليم ستيلا. أما هي فكانت تعبد بكل جوارحها ذلك المدرس الطويل الكادح، ذا اللسان اللاذع والبسمة الوادعة.

ولبثت هذه العلاقة الممتعة بين التلميذة ومدرسها تسع سنين يعتورها المد والجزر. ثم تغير عمل جوناثان سويفت. فقد رسم قسيساً في قلعة دبلن. وسر القسيس الشباب بهذا الشرف الروحي، ولكنه ضاق بالمركز المادي فهو حين قرر العمل في الكنيسة كان يتوق إلى بلوغ قمة الكنيسة الإنجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الإرلندي. ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهي بلوغ منصب هام في كنيسة إنجلترا كانت الشيء الوحيد الذي ينكره عليه رؤساؤه أشد الإنكار. فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعية. فهو لا يصلح زعيماً من زعماء العقيدة المتعارف عليها، فقد يلقي بأية قنبلة في أية لحظة على عقيدة إخوانه في الكنيسة. وكان الجميع وقتئذ يعرفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية في أوربا وإن لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل).

وهذا العنوان كما ذكر في المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة. فهم إذا قابلوا

حوتاً ألقوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة. وإنه ليتبع نفس التقاليد فيلقي بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة. ثم يمضي في الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح، ويوضح رأيه بصورة رمزية لأب اخلف ثلاثة معاطف متساوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس (الكنيسة الكاثوليكية)، ومارتن (كنيسة إنجلترا)، وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب: هذه المعاطف ستحفظ عليكم جدتك وصحتكم ما حييتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها. كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعاً في منزل واحد كما يعيش الأخوة. فإنكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشل.

وأخذ الأخوة الثلاثة معاطفهم– كما يقول سويفت– وسرعان ما نسوا وصية أبيهم، وأخذ كل منهم يعدل في شكل معطفه مرات، حسب تغير النظر إلى شكل الأزياء.

وأخيراً نرى بطرس وقد زين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف، وصار الناظر إليه لا يتبين فيه المعطف الذي أعطاه إياه أبوه. ثم يفترض بطرس بعد ذلك أنه– دون شريك– صاحب المعطف الحقيقي الوحيد، ويعلن فوق ذلك أنه وحده يملك بيت أبيه، وسرعان ما يقذف بأخويه إلى العراء.

يقول سويفت وعندئذ أعاد الإخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الإنجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما إلى بساطته الأصلية المعقولة.

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح في المحاولة نجاحاً لا بأس به فقد انتزع من المعطف كل وشي لا ضرورة له، ولم يحرص إلا على استبقاء تلك الحلي التي تغني في تقوية الثوب أو إخفاء عيبه. وأما جاك فاندفع متحمساً في تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقه، فإذا أتى الناس ينظرون إليها ويضحكون منها.. كفى فإن البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث.

ولم تنشر قصة البرميل إلا بعد أن مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف. وهذه القصة وإن يكن المقصود بها أن تقدم تشبيهاً يظهر منه المؤلف فضل كنيسة إنجلترا على غيرها فإنها قد فشلت مع ذلك في إرضاء مطارنة كنيسة إنجلترا وكبار

أساقفتها. لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى. لكنهم استشاطوا غضباً من إشاراته إلى عيوب كنيسته، وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجني عليه مهارته، وأنه بحاجة إلى أن يداري وإلى أن يراقب.

-٢-

ويلقي سويفت في شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلاً: "يا إلهي يا لها من عبقرية تطامنت لي حين ألفت ذلك الكتاب". فهذه هي مأساته التي جلبت عليه النحس. إن عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه. فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير، وعمدت إلى إبقائه أسيراً في منصب مغمور بعد منصب مغمور، من كنيسة دبلن إلى ابرشيه ريفية في لاراكور، ومن كنيسة لاراكور يعاد إلى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن. ولكنه لا يمنح وظيفة مطران في إنجلترا أو حتى إيرلندا ولم يجرؤوا على أن يتجاوزوا به وظيفة أسقف. لقد نال الدكتوراه في اللاهوت وكسب صداقة أعظم الإنجليز نفوذاً، وتعشى مع رئيس الوزراء، ولعب الورق مع وزير المالية. كل هذا ولا جدوى، وكلما طلب أن يعين في أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب. لقد أوغل قلبه في الضني والضرم. وأرسل ملتمسة ذات مرة إلى الملكة مباشرة.. وكانت نفس النتيجة السلبية. وظل سويفت الأسقف أشهر نكرة في عصره.

ولكنه يحتفظ في ذلك كله بمظهر البشر وتمتلئ أيامه بالنكات والضحك، فيما خلال الدوار الذي كان يختلف إليه دائماً. وكان يحب الناس فرادى وأن أبغضهم جماعات، ذلك الرجل الطويل القوي الأسمر ذو العينين الزرقاوين النفاذتين والحاجبين الغزيرين الأسمرين والصوت الجهوري الواضح. أي قصص تلك التي كان يرويها وأي لغة تلك التي يتحدث بها خاصة وهو في صحبة الرجال. وما أبهاه وما أشهمه مع النساء رغم ما يشاع من عيوبه الجسمية.

رجل يعلو محياه البشر، ويضطرم صدره غضباً كأنه الأتون. فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه.. لكن كتب عليه أن يمثل في حضرتهم دور التابع. لقد قدم لندن في وفد جاء

يدافع عن شعب إيرلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من ساسة إنجلترا هما بولنجروك وهارلي.

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه. فالمرء في لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة، ولكنه ظل نديمهما الأثير، وإن كان يهرج بلا مقابل ويكتب لهارلي نشرات سياسية كما قد فعل دفو من قبل، ولكنه يفترق عن دفو في أنه يرفض أن ينال جزاء عما كتب.. وصافحه هارلي ذات مرة فتمكن من أن يدس في يده خمسين جنيهاً. فألقى الكاتب الثائر بالورقة في وجه هارلي وغادر الحجرة مغضباً ورفض أن يرى هارلي مرة أخرى، حتى زاره هارلي في منزله ليعتذر له بنفسه.

إن سويفت لا يبغي بعمله مالاً، بل يبغي وظيفة كبيرة. وهذا ما عجز دائماً عن بلوغه، سواء من هارلي أو من أي سواه. غير أن إقامته بلندن وإن فشلت سياسياً فقد كانت نصراً فكرياً. فغدا سويفت الفارس المعلم في مشارب لندن التي تجتمع فيها ألمع عقول لندن يومياً للتبارز باللسان. وكان (الأسقف العجوز) أمهر المتبارزين جميعاً، وإن لم يكن أكيسهم دائماً. كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة. وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد إلى الإيجاع حقاً. قال أحد كتاب سيرته: لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل، وقلة حظه من المرونة والكياسة.

كان ذهنه فذا في الأذهان، لا يتلطف في تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذي يخفي قبح الحياة.. وكان ساخراً قاسياً ينزل برواء الخيال إلى سخف الواقع. ويتبدى عقله الساخر في تصرفاته الودية وغير الودية على السواء وكان يفعل دائماً ما يدهش ويحير.. يفعل الشيء الذي لا ينتظر. لأنه هو المنطقي السليم.

من هذا ما يرويه الشاعر إسكندر بوب في قوله ذات مساء: ذهبت مع جاي (مؤلف أوبرا المتسول) لزيارة جوناثان سويفت– إنك لتدري قوة مودتنا– فلما التقينا قال سويفت "طاب يومكم. ما معنى هذه الزيارة؟ كيف أن لكما أن تتركا اللوردات العظام كلهم وأنتما بهم شديداً الكلف وتأتيان هنا لتزورا قسيساً مسكيناً؟

– لأننا نفضل رؤيتك على رؤية أي واحد منهم.

– ربما صدقكم في ذلك من لا يعرفكما معرفتي. أما وقد جئتما فأحسب أن من واجبي تقديم العشاء لكما.

– كلا لقد تعشينا يا دكتور.

– تعشيتما؟ هذا مستحيل. أن الساعة لم تبلغ الثامنة بعد.

– لقد تعشينا فعلاً.

– هذا عجيب جداً!! لكن لولا ذلك لكان على أن آتي لكما بشيء. فالأفكر ماذا كنت محضره؟. اثنين من سرطان البحر؟ كفاية.. ثمنهما شلنان– وفطائر بشلن– لكنكما ستشربان معي كوباً من النبيذ. وإن كنتما قد تعشيتما قبل موعدكما المعتاد بوقت طويل رحمة بجيبي.

– كلا. إننا لنؤثر الحديث معك على الشراب.

– لكن لو تعشيتما معي، كما كان ينبغي عقلاً لشربتما معي زجاجة من النبيذ ثمنها شلنان. اثنان واثنان أربعة، وواحد خمسة. كل منكما يخصه شلنان ونصف شلن. تفضل يا بوب هذا ما يخصك، وهذا ما يخصك يا سيدي، لأني لن أصيب من المال شيئاً على حسابكما.

ويختم بوب كلامه بقوله "ولقد أرغمنا على قبول النقود. رغم كل ما استطعنا قوله في الاعتراض عليه".

كذلك كان شذوذ العميد سويفت، ذلك المتهكم الوديع الرشيق العابس. ذلك الأديب الذي يصفق لعبقريته، والواعظ الذي يزدري لضراحته، والعلم الذي يستشهد بأقواله في كل مكان ولا يفهمه أحد. عاد من إنجلترا محملاً بالتكريم دون أن يمنح منصباً. إنه لجبار عملاق، مقيد بالأغلال في أرض الأقزام.

لكنه لم يغادر أقزامه الإنجليز دون نكته. فهو يثقب وطاب ادعاءاتهم في شخص

جون بارتريدج.

وكان هذا الرجل إسكافياً. حاول أن يجعل من نفسه شيئاً. فهو ينشر كل عام تنبؤاته الفلكية وشاء سويفت أن يفضح سخف هذه التنبؤات فنشر بتوقيع إسحاق بكرستاف تقويماً ينافس ذلك التقويم، ويشتمل على تنبؤاته الشخصية. وجاء في هذا التقويم الجديد: إنه أول تنبؤاتي خاص ببارتريدج الفلكي. فقد استخرت طالعه فعلمت أنه لا محالة ملاق حتفه في التاسع والعشرين من مارس القادم حوالي الحادية عشرة مساء من إصابته بحمى عنيفة.

ومضى التاسع والعشرون من مارس، واحتج برتردج بأنه لم يزل على قيد الحياة، ولكن يثبت بكرستاف على موقفه، فينشر وصفاً دقيقاً مفصلاً لموت مستر برتردج الفلكي في التاسع والعشرين من مارس، فيكرر برتردج قوله بأنه ليس ميتاً. وحينئذ يعلن مستر بكرستاف في لهجة الجد أن جون برتردج لم يقف أمره عند كونه جثة هامدة. بل لقد جاوز هذا إلى الكذب.

وهكذا وقع في الحيلة المحتال. وظل بارتردج حتى آخر حياته "ميتاً وكذاباً".

-٣-

كان سويفت رجلاً غريباً ومن أغرب ما فيه علاقته بستلا **Sleta** وفانسا **Vanesa**. وستيلا كما رأينا هي الصبية الصغيرة التي كان يعلمها وهو يعمل أميناً لسير وليم تمبل. فلما نمت صارت علاقتها به أقل من الحب، وأجل من الصداقة. أما فانسا فقد قابلها في إحدى زياراته للندن وربطته بها مودة. ورغم أنها أليق في سنها بأن تكون من بناته، فقد أحبته حباً عنيفاً. وبدأ حينئذ ثالوث من أعجب ما شهد تاريخ الهوى.

وكان سويفت مخلصاً لهما جميعاً، وإن لم يستسلم لواحدة منهما. وهو يواظب على مراسلاته الحميمة مع ستيلا وهو في إنجلترا. وحين هو بإيرلندا يواظب على مراسلاته الحميمة مع فانسا. فإذا استقر به المقام أخيراً في دبلن حيث اشتغل نائب أسقف سنت باتريك وجد نفسه مثقلاً بحمل ممتع وإن يكن محيراً. وذلك لوجود كلا صاحبتيه بالقرب

منه. فستيلا تقيم في منزل غير بعيد من كنيسة سنت باتريك، وكانت إذا غاب سويفت جاءت في كثير من الأحيان للإقامة في منزله. وأما فانسا فقد استأجرت منزلاً في ضاحية لدبلن، بدعوى أنها وقد ورثت المزرعة فعلاً فقد صار عليها الآن أن تعني بها عناية شخصية. ولم تلتق الغريمتان ستيلا وفانسا مطلقاً، ولكن كلا منهما تعرف أمر الأخرى وتزعج سويفت بغيرتها منها. وكانت فانيسا أشدهما تهوراً. كتبت إلى سويفت خطاب اعتراف جاء به (لقد ولدت عنيفة العواطف. وقد تجمعت عواطفي كلها في واحدة، هي تلك العاطفة التي أحملها لك والتي لا سبيل إلى وصفها. حنانيك! شيئاً من الرقة وإلا فقدت صوابي) وأخيراً انحطمت المرأة تحت عبء عواطفها وكتبت وصيتها في أول مايو ١٧٢٣ وقد عمدت فيها إلى إغفال اسم سويفت وماتت في أول يونية دون دعاء الله أو القسيس وفي يديها قصاصة من قصة البرميل.

وكانت ستيلا لا تقل عنها حساسية لكنها تسمو عليها عقلاً بكثير. وقد عاشت خمس سنوات بعد غريمتها. وكانت على العموم عنصراً مهدئاً في حياة القسيس المجنون فهي امرأة قوية الخلق متيقظة العقل وهي أميل إلى مسايرة الفكرة الخاطئة منها إلى معارضتها. وكان العذر الذي تتذرع به عادة– ونحن نستشهد الآن بكلمات جوزيف أديسون (المسايرة طريق تمنع الضجة وتوفر الوقت) ومع بغضها لأن تملك نصف قلب محبوبها فحسب فقد كانت تقنع نفسها بعبارة لاذعة تتفوه بها من حين لحين عن (عزيزي المرائي) وكانت تدرك على العموم أن سويفت رجل غير عادي يجب أن يعامل بلباقة غير عادية.

وهكذا عاشت حياتها اللبقة خادماً له لا صاحبة. وليس من دليل– كما يقول بعض معاصريه– على أنهما تزوجا يوماً من الأيام. فلما ماتت آخر الأمر تركت فراغاً خالداً في قلب العميد العجوز المحزون ومنذ الآن سيغدو سلوكه الخارجي كتفكيره الداخلي ينبئ عن رجل محزون ممرور. كتب لأحد أصدقائه يقول "إني لأمقت العالم فقد أصبحت لا أصلح البتة".

-٤-

أصبح العميد سويفت لا يؤدي من الطقوس في أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الإنجيل الذي يلعن فيه أيوب يوم ميلاده. إنه ليزيد كل يوم زراية بالإنسان وخدمة لبني جنسه، فهو يتحمس لتخفيف أعباء الإيرلنديين وهو يصليهم بلسانه حرباً ويعانقهم بذراعيه حباً. وغدت آلام إيرلندا شغله الشاغل في شيخوخته وصار مطمحه الذي غلبه على كل مطمح هو أن يخفف هذه الآلام. حدث مرة أن اقترحت الحكومة الإنجليزية قانوناً جائراً بالإرلنديين فتحدى الظلم بسلسلة من الخطابات الشديدة المفحمة فاضطرت الحكومة إلى سحب الاقتراح. وهذه هي الخطابات التي أمهرها سويفت بتوقيع م.ب درابير صاحب حانوت لبيع البضائع الإرلندية والتي كسبت لسويفت شكران الأرلنديين وعرفانهم على مر الزمن.

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائماً فهو لا يحب تملق الجماهير لقد ساعدهم- كما قال- لا حباً لهم بل كراهة منه للعبودية. إنه يعرف تلون الدهماء وتقلبهم فهم مستعدون لأن يهللوا لجرأته في النضال عنهم. لكن أتراهم يحركون أصبعاً لإنقاذه من مغبة جرأته؟ وهو يروي قصة لتوضيح هذه الفكرة. كان أسباني يهودي يسير إلى الخازوق ومن ورائه جمهور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية أن يحرموا المتعة إذا هو أنكر التهمة، فهم يربتونه على ظهره صائحين مشجعين "موسى أقم على ثباتك".

وظل سويفت على ثباته رغم الصبية الطائشين والفضوليين الوحشيين في العالم، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشري في حنثه بإيمانه وانفعالاته وسخافاته واحتياله وحربه، كان يذهله عدم إنسانية الإنسان نحو الإنسان. إنه فاقد كل إيمان بالعقل البشري. وقد أعلن إفلاس إيمانه بالإنسان في نشرة يقف منطقها المفحم في صف فريد حتى بين كتابات سويفت نفسه. عنوان هذه النشرة "اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا كلا على آبائهم وعلى الوطن، وللإفادة منهم في المجتمع" يتساءل فيها ما فائدة كل المقترحات التي تقدم تخفيفاً لوطأة الفقر الأليم والفاقة الملحة عن فلاحي إيرلندا؟.

لماذا يضيع وقت حتى الآن في محاولة تعليم اللوردات الغائبين عن أرضهم أية مرتبة من مراتب الوحمة بمستأجري أرضهم على الأقل؟ لا عليك من تلك الآراء الباطلة الخيالية السلبية. فإن لديه– أي صاحب الاقتراح المتواضع– خطة عملية جديدة كل الجدة آمل ألا تتعرض لأدنى اعتراض وهذه هي الخطة في إيجاز.

"لقد أكد لي أمريكي من أهل الذكر أعرفه في لندن أن الطفل الصغير الصحيح البدن الحسن الرضاع يكون إذا بلغ عامه الأول طعاماً غاية في اللذة والتغذية والفائدة الصحية.. سواء أكان مطبوخاً أو مشوياً أو مقدداً أو مسلوقاً. ولست أشك أدنى شك في أنه يصلح كذلك محمراً أو مطهياً في بصل.

فليرب فلاحو إيرلندا أطفالاً إذن ليكونوا طعاماً للملاك الإنجليز. فالطفل يكفي طبقين إذا كانت مأدبة للأصدقاء. أما إن كانت الأسرة تتعشى وحدها فإن الربع الأمامي والخلفي يكفيان أعداد طبق معقول. وإذا تبل بقليل من الفلفل أو الملح فهو يصلح جداً لأن يسلق في اليوم الرابع خاصة في الشتاء.

ولست أنكر أن هذا الطعام سيكون غالياً شيئاً. لذا فهو مناسب جداً لملاك الأراضي. لأنهم بعد أن ابتلعوا معظم الآباء صاروا –فيما يظهر– أصحاب الحق الأكبر في الأبناء. ولقد حسبت تكاليف إرضاع ابن المتسول فوجدتها تبلغ نحو شلنين في العام. ولن يتبرم أحد من السادة –فيما أظن– بدفع عشرة شلنات في شراء جثمان طفل سمين. بذلك يصير المالك محبوباً من المستأجرين، وتصيب الأم ثمانية شلنات ربحاً صافياً وتكون صالحة للعمل حتى تضع مولوداً جديداً. ثم يدور سوط تهكمه دورته النهائية.. فيقول: يستطيع غلاة المقتصدين أن يسلخوا الجثة.. فإن جلدها إذا كسى كساء صناعياً صنعت منه قفازات رائعة للسيدات وأحذية ينتعلها السادة المهذبون في الصيف".

قرأ السادة ملاك الأراضي هذه النشرة وأعربوا عن اشمئزازهم من بربرية الكاتب ومضوا في طريقهم "الحضري".. طريق أماته المستأجرين الأيرلنديين جوعاً على مهل. أما البربري فقد مضى في ثورة حقه وتبرم حق ساخراً من كل إنسان.. باذلاً صدقاته لموكب

من المتسولين كان يقصد بابه يوماً أنه يكره المتسولين والدنيا بهم مليئة كما قال "فإنك لتجدهم بين الأغنياء كما تجدهم بين الفقراء فالغني يستجدي مملكة والفقير يستجدي كسرة خبز، وكانت كراهة سويفت لضخام المتسولين أضعاف كراهيته لصغارهم. فهم كلما كبروا– كما يقول في رحلات جلفر– زاد إيلامهم للعين والأنف أما هو فلا غناء له في الاستجداء لأنه لا يجد في المال نفعاً.

ويقول إنه في هذا يحتذى حذو الله "وبوسعنا أن نعلم كم يحتقر الله المال إذا استعرضنا من اختصهم بالمال، كذلك مضى القسيس المجنون في طريقه إلى الشيخوخة متفكهاً معنفاً، وقد خيل للناس جميعاً أنه يقف على رأسه، ذلك بأنه الوحيد الذي يقف على قدميه في عالم مقلوب رأس على عقب.

–٥–

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة، وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية، رحلات جليفر، وبعث بمخطوط القصة في ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ إلى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطاباً بتوقيع ريتشار سيمبسون زعم فيه أنه ابن خال لمويل جلفر وقال لقد ائتمنني مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط في وصف رحلاته.. وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز. وقد تحسب إذا قرأت بعض أجزائها أن هناك شيئاً من التهكم في موضوع أو موضوعين، ولكن الرأي متفق على أنها لا تجرح أحداً. ثم يمضي مستر سمبسون في خطابه فيعرض مائتي جنية ثمناً للمخطوط فإذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقي المبلغ إلى الناشر.

ونشر الكتاب في خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى في أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذي شنه جلفر على غباء الجنس البشري الهمجي، فقد حسب كل امرئ أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب، إنما المعنى جاره. فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغها من قبل. لقد فشل في تحقيق ما هدف إليه "أردت أن أغيظ الناس وأستشيرهم لا

أن أرفه عنهم وأسليهم". وقصة رحلات جلفر هي مغامرات رجل عاقل في مخبول ملئ بالباطل والزهو. ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد أتاح لهم أن يحكموه. إذن لقل الجشع، وزادت الدماثة. وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس. وقلت القسوة وزادت الرحمة. وقل البهرج وزاد المجد. وقلت الوقاحة وزادت الحكمة. كتب سويفت إلى إسكندر بوب يقول– طالما حاولت أن أنشئ صداقة بين عقلاء الناس جميعاً وهم قل إن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة في كل جيل ولو أمكن اتحادهم لساقوا العالم أمامهم سوقاً. ولقد لقي سويفت أحد هؤلاء العقلاء، فولتير– ذلك الشاب الفرنسي الثائر المنفي إلى إنجلترا لصراحة لسانه والذي قال (أن صناعتي هي أن أقول ما أعتقد) فجلس فولتير عند قدم القسيس المجنون وتشرب فلسفته وكتب (مكروميجاس) تقليداً لرحلات جلفر وعاد إلى فرنسا يحلم باستئصال الأحقاد والمظالم من حكام العالم– ومضى القسيس المجنون يبحث بلا كلال عن عالم عاقل. وأن جسمه ليطحنه الألم وقلبه ليصيبه الحزن المتكرر لفقد أعز أصدقائه "إن هبة العمر الطويل تشترى بثمن بالغ الفداحة، ولكي يقوي نفسه على احتمال عبء شيخوخة متوحدة كتب دعاء وجد بعد موته بين أوراقه التي لم تنشر "اللهم إنك تهب نعمتك وتصب نقمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شيء... فوجه اللهم أفكارنا إلى ما نصبو إليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذي يفوق الوصف والذي نوشك أن نمني به". كان دائم التفكر في هناء الإنسان.. ذلك الساخر الذي واجه بني الإنسان بالعواء والشحناء.

محي الآن تفكيره، وخمدت آلامه، وسكن عواؤه، وصار كل ذلك إلى نسيان رحيم لقد خوي عقله من كل شيء وكان يقرأ "قصه البرميل" ذات يوم فقيل له أنه مؤلف هذا الكتاب، فقال (كلا أن مؤلف هذا الكتاب عبقري) وكثيراً ما كان يرى وجهه الهزيل في المرآة فيقول في أسى من لا يعنيه الأمر (رجل عجوز مسكين) وفي أيام ميلاده حين تدق النواقيس وتوقد المشاعل تكريماً له كان يسأل "من ذلك الرجل الذي يحبه الناس بكل ذلك الإخلاص!".

١٩ أكتوبر عام ١٧٤٥– سماء صافية فوقه وعقل غائم في رأسه. ولكن الغمام تبدد

لحظة من الزمن وسمع سويفت يتمتم "رباه عنايتك الساهرة بي في رحلتي الأخيرة هذه".

فإذا بدأ رحلته خرجت مدينة عن بكرة أبيها تدعو له بالتوفيق. لقد تعلموا عبادة ذلك الرجل العظيم الكراهة، العظيم الحب. أما كراهته فللظلم، وأما حبه فللناس.

أهم مؤلفات سويفت

The Battle of the Books	Children of the Poor
The Tale of a Tub	Directions to Servants
Gulliver's Travels	Polite Conversation

وكثير من قصائد التهكم

لورانس سترن

١٧١٣ - ١٧٦٨

كان جد لورنس كبير أساقفة (يورك) وكان يقف في مكان واحد كأنه تمثال من الجرانيت وكان أبوه جندياً قلقاً لا يستقر في مكان كأنه الريح.

"كان يوم مولدي فألاً سيئاً لأبي المسكين، فقد ألقى به مع كثير غيره من الضباط الشجعان في أمواج الدنيا العريضة، وهو خاوي الوفاض إلا من زوجة وطفلين. لقد كان "ألعوبة" يتقاذفها الآلهة المتعادون في وزارة الحرب. وكانت تتحكم في مصيره أيضاً زوجة مخصبة، ولدت له رهطاً من الأطفال الضعاف المصابين بفقر الدم.

وتنفيذاً للأوامر الصادرة إلى الفرقة، كانت تتبع زوجها من إيرلنده إلى إنجلترا، ومن إنجلترا إلى إيرلنده، ومن حامية في البر إلى ميناء في البحر، ثم تعود من حيث جاءت. وفي خلال ذلك تلد دون انقطاع وتدفن أطفالاً دون انقطاع حتى أخذ الأصدقاء يتحدثون عن فقد (السيدة سترن) طفلاً في هذا المكان، وآخر في ذاك، وكأن الأطفال كانوا قطعاً بائسة من قطع المتاع، قد كتب عنوانها "من السماء إلى القبر مباشرة".

والحق أن الموت كان بالمرصاد لأكثر من نوع واحد من العمل في خدمة قوات الملك. ففي جبل طارق أصيب أبو لورنس سترن، وكان محارباً شديد المراس، بطعنة في صدره، وكان ذلك في مبارزة من أجل أوزة. وقد وقع الحادث في غرفة صغيرة، وأغمد كابتن فيلبس نصله بعنف في جسم سترن بحيث لصقه بالحائط لصقاً. وإذا الرجل المجروح في بادرة حاضرة يرجو (كابتن فيلبس) في أدب أن يتفضل قبل سحب نصله بأن ينفض ما عساه قد لامس سن النصل من ملاط "لا يستحب إدخاله إلى دمى" وشفي (كابتن سترن) من جراحه. وانسحب لينقه في جمايكا.

وهناك مات بالحمى. وقد ذهب مرضه بعقله أولاً. ثم جعل منه طفلاً، وأخيراً لم يمض

شهر أو شهران، حتى كان يسير سيراً متصلاً ولا يشكو من شيء حتى جلس يوماً في كرسي ذي مسندين ولفظ أنفاسه الأخيرة.

وهذا المزاج من البدوات والكوارث، وهو قدر كتب على الجندي الضئيل طوال حياته، استمر في حياة الابن لورنس. فهو كأبيه قد تقاذفته ريح المصادفات وبدوات رفاقه من بني الإنسان. لقد كتب لورنس عن أبيه قال (إنك تستطيع غشه عشر مرات في اليوم، إذا لم تكفك تسع).

-٢-

وترك أبوه الأسرة وليس في حوزتها درهم ولا دانق. ولكن الله قيض أحد أبناء العمومة لإنقاذ الأسرة. فأنفق ماله لتزويد الصبي "النحيل العالم" بعلم الآداب القديمة (من يدري؟ لعلك تكون يوماً كبير الأساقفة كجدك) فهل علم ابن العم أن الكتاب الأثير لدى لورنس من كتب القدامى هو (فن الحب) لأوفيد؟ وأن مسلاة لورنس إنما هي التماجن مع الفتيات؟ وبعد دراسة القدر المطلوب من هوراس وأفلاطون وبليني وشيشرون وحياة القديسين رسم قسيساً في (ستون أون ذي فورست) إحدى قرى يوركشير ونال دخل كنائس جديدة.

ثم أخذ يعبث بالسياسة مع عم له كان من ذوي النفوذ في الكنيسة. وأشرف على عدة أبرشيات أخرى. ثم بحث حوله عن زوجة يزداد بها ارتفاع منصبه. فتودد إلى (اليزابت لوملي) مدة عامين.

وكانت الخطابات الغرامية التي كتبها هذا القسيس الشاب فذق بين خطابات الغرام في أسلوبها الذي يحكي أسلوب القدماء، وروحها المفعمة بتحنان العشاق.

وكان يختم قبلاته بمقتبسات من الفردوس المفقود لملتن، وإشارات إلى أوبرا المتسول، ويؤكد تنهداته بحواشي من (مقال عن الإنسان) لبوب "واعترفت إليزابث أنها أحبتني. ولكنها لم تحسب نفسها من الغنى ولم تحسبني من الفقر بحيث لا تصلح للزواج.. وأصيبت بذات الرئة وكنت أجلس إلى جوارها ذات مساء وقد كاد قلبي يتحطم لرؤيتها في هذه

الحالة الأليمة من المرض، فقالت لي (يا عزيزي "لوري" لن أستطيع أن أكون لك، لأني أؤمن بحق أنه لم يبق أمامي غير أيام معدودات ولكني أوصيت لك بكل ما أملك. وأطلعتني على الوصية. فغلبني هذا الكرم على أمري واختار الله لها الشفاء وتزوجنا).

وقد بدأت حياتهما الزوجية بداية طيبة. فقد كان للسيد ذوق موسيقي، كان الراعي يعزف على القيثارة (الفيولونسلو) وكانت هي تغني في مصاحبة أنغامه ولكنها كانت حياة مملة. لأن الزوجة كانت مملة. فإن الفضائل كانت تزداد تعويقًا لها حين نحاول مصاحبة زوجها في قفزاته ووثباته الخفيفة الرشيقة. بحيث عجز الزوجان عن تحقيق الشرط الأول للزواج السعيد. وهو أن يمضي الزوجان في الحياة كلها كأنهما شخص واحد. وكان سترن متوقد الذهن. يحمله خياله على أجنحة الضحك، بينما زوجته تسير في كد وعناء، مثقلة القدم غير قادرة على الفهم.

لقد قرر على نحو ما – رغم ردائه الكنسي – أنه سليل أشهر الأسر بالخيال، إن لم يكن بعراقة الأصل، أسرة بوريكس الدنمركية التي يعمل أفرادها مضحكين ببلاط الملك. فليرحم الله يورك المسكين وليحي خليفته مضحك العالم.

ذلك بأن العالم حزين ولابد أن يسري عنه. فلنلق جانبًا بالجد (فالجد محتال ضال من أخطر الأنواع.. لأنه ماكر) فصميم الجد هو التصميم وعقد النية.. وهو حمل للجسم على تغطية عيوب العقل بصورة مبهمة؟ وهكذا أضاف لورنس سترن إلى الأناجيل المقدسة الأربعة، مجموعه تتكون من أربعة أناجيل علمانية. هي أناجيل النقش والعزف والضحك وعبادة الكتب.

ورغم كل هذا كان يجد الوقت لهوايته المفضلة، وهي البحث عن السعادة فقد أضرمت النار في صدر هذا القسيس الشاب عدد كبير من السيدات. وكانت مغازلاته العذرية مثاراً للفضيحة ومثاراً للغيرة بين أفراد أبرشياته.

على أن هذه المغازلات لم تحل بينه وبين التقدم. فهو لم يزل ينال الترقيات ولم يزل الناس يعجبون ببدواته. وعين قاضياً من قضاة الريف، فكان يجري محاكمة الناس وفي عينيه

لألاء مرح من السخرية بالنفس. ولم تشهد إنجلترا منذ أيام الراهب (تك) مثل قسيس يوركشير هذا، الذي يدفن الموتى، ويعمد المواليد ويضحك ضحكاً صاخباً حتى يخزه جنباه.

والضحك مقدم على الواجب أبداً، وكان سترن يمر بالحقول مرة يوم الأحد ليلقي موعظته في (استلنجتن) حين نفر كلبه الكشاف سرباً من الحجال[3] فعاد إلى منزله مباشرة ليحضر بندقيته. وترك الراعي "قطعانه"، الذين ينتظرون مقدمة في مركز عصيب. واتخذ لنفسه خادماً فأسماه في فكاهة شهية (مذنبي الأمين).

وكان عليها بعيوبه فترفق بعيوب غيره، ووجد نفسه قد انتظم في زمالة رهط من الماجنين المثقفين يدعون أنفسهم "نادي متقمصي الشيطان" وكانوا يجتمعون في ضيعة بالريف أطلقوا عليها "قلعة المجانين" وفيها كانوا يأكلون ويشربون ويمرحون ويتحاورون في الأدب والحب.

ويكتبون مقطوعات شعرية لفينوس وابنها في المعمودية فرانسوا رابليه:

وحين يلتئم شملهم في الأمسيات.

(التي كلما ذكرتها نفعتني ذكراها).

بلغوا من المرح ما لم يجاوزه جمع.

مما سبق الطوفان أو تلاه.

وقضى سترن النصف الأول من حياته ينشد مثل تلك الأهداف، فابعا في أحد أركان إنجلترا، مغموراً قانعاً ملوماً ومحبوباً من قطيعة المرح السعيد، فإنه على عيوبه قد عظم حظه من فضيلة واحدة، العطف الدافق على كل روح حي.

لقد نما عطفه من عذابه. فلقد كان لورنس سترن رجلاً مريضاً.. وكانت نظراته تكذب ضحكه. فإنه بجسمه النحيل الهزيل، وردائه الأسود، وساقيه العنكبوتيتين وصدره المتكسر الذي لا تقومه دعامة، ووجه الذي لا يشتمل على خدين بقدر ما يشتمل على

[3] نوع من الطير.

طيات من الجلد خاوية يريد إقناع العالم –وإقناع نفسه – أنه غير ما هو في الحقيقة. فإن الرجل تكاد رئتاه المصابتان أن تنزفاه حتى الموت ولم يبق غير فتحتي أنفه الضخمتين تهتزان كلما تفتق ذهنه. لقد بنت له الطبيعة هيكلاً مؤسياً، استطاعت روح الضحك أن تبقى عليه الحياة.

– ٣–

وكان يمضي الساعات بعد أن ينحي عنه قيثارته جالساً في المكتبة يكتب. وكانت متكبة مكرسة لثالوثه الفكاهي المبارك "لوسيان ورابليه العزيز– وسرفنت الأعز" أولئك الرجال الذين تلقوا الأسى، ومنحوا السرور. وخلفهم من قريب تقف آلهته التي يدين لها بحب أقل: مونتاني وبوب وسويفت. وكان سترن في مكتبته يصفي ولاءه للمعميات الغامضة القديمة، ويغرب في صوفية الأغراب في الضحك، تلك الصوفية العجيبة.

وأعد في هذا الجو كتاباً أدهش العالم وألهمه وأخزاه. وهو كتاب (جديد مبتكر) لم يكتب مثله من قبل. فليس له من شكل ولا منطق ولا وقار. وإنما هو قد لاحظ حكمة العالم وغباءه ومأساته ومسلاته ومخاوفه وخطله واحنه، وخلط بين كل أولئك في قصة تشبه الحياة نفسها غني في الإمتاع. وفقراً في التنظيم. وبث فيها مذاقاً حريفاً من فكاهة رابليه. وأطلق على القصة المذهلة "حياة وآراء ترسترام شاندي".

وتلا الصفحات الأولى من الكتاب على بعض أصدقائه بعد العشاء، فسرعان ما ناموا. فجرح شعوره جرحاً عميقاً وسبار إلى الموقد، وأوشك أن يقذف بالمخطوط في اللهب. ولكن أحد الرفاق كانت لا تزال إحدى عينية يقظي، هي العين التي ترى المستقبل البعيد. فجذب المخطوط من سترن وأبقاه لقابل الأيام. وحتى بعد نشر الكتاب كان سترن مرتاباً في أمر استقبال الناس له. إنه مخلوق ليس له قط من رأس ولا ذنب. فالمقدمة مثلاً مكتوبة في منتصف القصة لا في أولها. والفكاهة قريبة الشبه جداً بالشيطان حين يتغزل في نفسه (إنك تسرف في الهذر مع عقلك الأريب. كأنما تعبث بعشيقتك. أنه بلسم ممتع للعشاق، ولكنه قليل الإمتاع للمتفرج الخلي).

ومع ذلك فقد كان يرجو أن يشبه الناس قصته بتلك القصة التي نشرت في نفس العام، قصة كانديد لفولتير، وهي أفكه كتاب على مدى الزمان. ودعا آلهة كونيجوند أن تضيف أسرة شاندي إلى معرض الصور القصصية الكبرى.

وأخذ الآن يتلقى التعقيبات من أصدقائه بلندن الذين قرءوا النسخ المبدئية. من (ترسترام شاندي) "أن خير النقاد دون استثناء يرون أن كتابك لا يستطاع أن تطلع عليه أية امرأة فاضله". فأجاب سترن ساخراً (أرجو استثناء الأرامل لأنهن لا يتقززن قط بهذه السهوله).

فإذا ذهب إلى لندن بعد ذلك، وجد للقصة نجاحاً مظفراً. ووجد أنه قد صار من الأعلام بين يوم وليلة.

— ٤ —

إن معنى كلمة شاندي بلهجة يوركشير (مجنون متقلب مرح) وتلك خاصية يتسم بها الكتاب حتى في طباعته. فالصفحات مليئة بفواصل ونجوم وأشياء تحكي المعازف، وقيثارات تهدهد الأنغام وصفحات خاطئة الترقيم (وكان هذا من خطأ الوراق) وصفحة خالية من الكتابة خلواً تاماً.. وسلسلة عجيبة من الأسطر المتعرجة كأنها سجل الفلكيين. وخطوط فاصلة طولها بوصة فما دون.. فلما أخذ أهل لندن في قراءة الكتاب شرعوا يحوقلون ويعجبون ويفرشون رءوسهم. ثم مضوا في القراءة حتى استغرقوا فيها.. يا لها من آراء عجيبة! يا لها من شخصيات حبيبة! ويا لها من أوديسة ذات مغامرات خارقة!

ولا تبدأ هذه المغامرات بمولد (ترسترام) فالواقع أنه لا يولد حتى الجزء الثالث. ولكنها تبدأ ببدوات وأقدار وواجبات وامتيازات جرثومة الجنين التي سيخلق منها الإنسان فيما بعد. ثم تستحثنا أشتات هذه القصة إلى التعرف بوالتر شاندي، الأب الشاذ الطبع لهذا الجنين الشاذ الطبع، ووالتر شاندي رجل عظم حظه من النظريات، وقل حظه من التجربة. وهو يحاول أبداً أن يعمل ما هو معقد لا ما هو يسير. وترتب على ذلك أنه كان عادة لا يفعل شيئاً على الإطلاق. فإذا كان عليه أن يدلك أذنه اليمنى حاول قطعاً أن يستخدم في

ذلك يده اليسرى عن طريق قفاه، وبذا تلتوي يده في ألم، وتظل أذنه بلا تدليك. وهو مسلح بحشد مذهل من النصوص الصوفية، والعقائد السحرية. أنه خطيب موهوب مأساته الكبرى عدم وجود السامعين. أنه أشبه بساحر كادح أمام جمع من المكفوفين.

بل لقد كانت زوجته نفسها عمياء عن رؤية مواهبه.. ولا تأبه لما يقول. فهي لا توجه إليه أي سؤال وبذا لا تمنحه قط تلك الفرصة التي يشتهيها في استماتة بالغة، فرصة المناقشة. يقول ترسترام (وبرحت العالم آخر الأمر دون أن تعلم هل الأرض تدور أم أنها ثابتة. وقد أخبرها أبي في لجاجة أكثر من ألف مرة حقيقة الأمر. ولكنها كانت تنسى دائماً).

نلتقي الآن بشخص آخر في بيت شاندي هو "توبي" أخو والتر، وكان العم توبي جندياً اعتزل الخدمة. وهو يقضي أيامه الأخيرة مع أسرة شاندي. وكان مليئاً بالطيبة خلوا من الفكر – فإذا تحدث أخوه في المسائل الفلسفية، ركن العم (توبي) إلى تدخين غليونه وصيد الذباب.

وهو لا يصيد الذباب إلا ليطلق سراحه، قال ذات يوم وقت العشاء لذبابة كبيرة كانت تئز حول أنفه، وتقسو في مضايقته طول وقت العشاء.. "اذهبي لن أصيبك بأذى" قال هذا وهو ينهض عن مقعده ويخترق الغرفة والذبابة في يده.. "لن أمس شعرة من رأسك بسوء، فانطلقي" ويفتح النافذة ويفتح يده بينما هو يتكلم ليدعها تفر "اذهبي أيتها الشيطانية المسكينة. لماذا أوذيك؟ لا شك أن العالم يتسع لك ولي".

وكان توبي شاندي حلو الروح ولكن (ولتلاحظ هنا سخرية لورنس سترن) هذا المحب المرهف لخلق الله، هو أيضاً كبير الإعجاب بتدمير الإنسان وهو يقول أمام أخيه شاندي في دفاع فصيح غير ذي موضوع عن إعجابه بالحرب. (لقد كنت وأنا تلميذ صغير، لا يسعني أن أسمع قرع الطبول إلا دق قلبي معها. فهل أنا مسئول عن ذلك؟ هل أنا الذي أوجدت هذا الميل؟) وحين كنا نقرأ عن حصار طرواده الذي استمر عشر سنين وثمانية أشهر – والذي ما كان ليلبث غير أسبوع لو هوجمت المدينة بالمدافع كما هوجمنا في نامور – ألم أضرب بالعصا ثلاث ضربات، اثنتين على يدي اليمنى وواحدة على اليسرى لأني

وصفت هيلين بأنها. هل ذرف أحدكم أكثر مما ذرفت من دمع جزعاً لما أصاب هكتور، وحين أتى الملك بريان إلى المعسكر يلتمس أن يتسلم جثمانه وعاد بدونه باكياً إلى طرواده، أفتدري ما حدث يا أخاه إني لم أستطع تناول العشاء.

إنه يمقت رؤية القتلى ولكنه يحب رؤية القتل، أو بالأحرى هو يحب رؤية المهارة التي تتجلى في عملية القتل ولقد أمضى سنوات يدرس الفن العسكري دراسة مركزة. وأعاد مع خادمه الجندي ترم تمثيل حملات دوق مارلبرو في إيطاليا والفلاندز وكان في كل يوم يحلل هذه الحملات على الورق، ثم يعيد تمثيلها من جديد على المنفسح الأخضر المجاور لتل شاندي. فيستخدم غلايينه لتمثيل المدفع ويبعث فيها دخاناً كثيفاً كأنه صورة هوجاء لأعمال المدفعية. طلقة بطلقة وأمراً بأمر. وإنه ليضاعف من انتصارات الدوق. وكلما احتل مارلبرو موقعاً، احتل عمي توبي موقعاً أيضاً.. ما كان للعالم أن يتمخض عن منظر أروع من.. ملاحظة الروح التي كان بها العم توبي ومن ورائه ترم، يندفع مهاجماً من داخل المدينة المحاصرة.. وفي يد أحدهما نشرة وفي يد الآخر فأس– ليقوما بالمناورات الأخيرة. وما كان أعمقه من سرور يترقرق في عينيه حين يقف على رأس الجندي: يقرأ له الفقرة عشر مرات بينما هو يعمل مخافة أن يحفر حفرة تزيد أو تقل مقدار بوصة. وأما بعد أن تحفر الحفرة ويساعد الجندي عمي في الهجوم ويتبعه والأعلام في يديه ليرفعها فوق أسوار الحصون.. فما أعجب ما يتولى عمي (توبي) من نشوة النصر.

تلك هي الأسرة التي ولد فيها (ترسترام) فطعة من الضلال وتقلب الأهواء في عالم ضلت أهواؤه. وتمضي أجزاء خمسة في التجوال الجسدي والعقلي والروحي، تجوال فكه مجنون، يقتادنا من غير مكان إلى غير نهاية ثم يعود بنا إلى غير مكان. ويقدم لنا في خلال الرحلة أبعد ما نتوقعه من حماقات وانفعالات ومسرات. فالكاتب يقتادنا في جنون على قدر ما يقتاده القلم وأننا لنلبث حين نتبع تلك الحفلة التنكرية الجنونية من الأشخاص المقنعين وهم يدورون في دوامتها بلا عقل ولا نظام. وكل يجذب جاره من قدمه أو رأسه أو سترته وسط صخب يضطرب أي مضطرب.

فإذا انتهى كل شيء لقفنا أنفاسنا وقلنا في عجب "يا لها من مغامرة مجنونة! لكن يا له

من جنون مرح طروب!".

-٥-

وكان في نية (لورنس سترن) أن يتابع الجنون في عدد من الأجزاء المتعاقبة لقصة (ترسترام شاندي) فقد رأى فيما بعد أن ينزل بطله إلى الأرض بعد أن تركه معلقاً في الفضاء وفي تلك الأثناء زار لندن ووجد نفسه الفارس العلم في دنيا الأدب.. فالناس جميعاً يقدمون الولاء لذلك الشاعر والواعظ الطويل الهزيل من يوركشير، الذي امتزجت فيه القداسة والبذاءة أتم الامتزاج. فدعاه "جاريك" و"لورد شستر فيلد" إلى مائدتيهما. وكانت حجراته تزخر بجمع من أرفع الناس مكانة منذ الصباح حتى الليل، وكانت كل دعاباته تنتقل إلى المشارب، وتنتقل عن طريق الصحف إلى العالم أجمع، وأصبحت الشاندية فلسفة الهذر الجديدة، صارت ديدن كل الرجال ومعظم النساء في هذا العصر الإباحي وقدمت كوامخ شاندي في المطاعم وسميت خيل السباق في إيرلنده ترسترام شاندي، كما أطلق اسم هذا الكتاب على الملابس وأدوات الزينة بل وألعاب الورق.

وذاعت شهرة الشاندية في الجانب الآخر من القناة، وكان الفرنسيون لعجزهم عن متابعة اللغة البعيدة عن المألوف، والفواصل العجيبة في الكتاب. كثيراً ما يقولون (ما أحمق هذا الفارس شاندي).

وبعد أن نال أقصى ما تستطيعه لندن من ملق، وبعد أن استعد لنشر الطبعة التالية من ترسترام، عزم على الإبحار لينعم بالدفء الحبيب في جنوب فرنسا، لأنه كان يستطيع أن يسمع من خلال دمه الضعيف أصواتاً أخرى تدعوه وتعد له لقاء غير مشرق. قال الأطباء الذين فحصوه (يا له من رجل لطيف.. ومن أسف أنه لن يتم الشتاء وهو عل قيد الحياة).

وسرعان ما سرى النبأ كأنه إحدى دعابات سترن (أنه ليملأ الفراش نزفاً. ويستلقي فاقد النطق أياماً بعد أن يظهر على الملأ في اجتماع عام ذلك هو تاريخي!).

ويستأجر سفينة في دوفر. والطريق وعر، فيستلقي في مقصورته. أن الرياح تكاد

تأخذ بخناقه "لكن بالله لأعطين الموت فرصة مرحة لمطاردتي. سأقتاده إلى رقصة لم يحلم بها لأني سأجري كالحصان دون أن أنظر لحظة إلى الوراء، سأجري إلى ضفاف الجارون. فإذا سمعته بقعقع في أعقابي سارعت إلى جبل فرسوف.. ومن هناك إلى يافا.. ومن يافا إلى نهاية العالم. فإذا تبعني إلى هناك دعوت الله أن يكسر عنقه".

ولكن الموت بالمرصاد ولن يخدع عن فريسته. وتزداد حالة لورنس سترن سوءاً بالتدريج، ويدخل باريس، كأنه "كيس من السلع الميتة مرسلة إلى بلوتو وشركاه، وقد قضيت معظم الطريق مستلقياً في قاع العربية على وسادة ضخمة، هداني بعد نظري إلى شرائها قبل بدء الرحلة".

ثم تحدث معجزة مباغتة فينهض عن وسادته ويقتحم عباب المجتمع ليداعب الحياة دعابة ختامية، ولا تمضي أسابيع سنة على وصوله إلى باريس، حتى يكون قد رقص مع نصف الهاانها.

لقد حير الموت نفسه بعض الوقت. فقد شك في عنوان فريسته فانصرف عن الباب وهو يقول في اعتذار عن اقتحامه: "لا شك أن هناك خطأ في هذا الأمر".

ويذهب الفرنسيون "ولكنه مذهل ذلك الفارس شاندي"، ويدعوه دوق أورليان أن يجلس في جمعة من الرجال ذوي الأطوار الشاذة. وتختص إحدى المضيفات نفسها به في أيام الخميس، فتدعو كل جائع وكل ظامي. أن يتناول وجبة إعجابًا بعقله المتفتق، ولا ينجو أحد من ألمعيته الشاندية. فإن أعجب الأفكار تجري في رأسه أبداً.

ويلقي قليلاً من المواعظ في باريس من قلبه لا من رأسه ولكنه كان طول الوقت يكاد يغلبه الضحك على أمره. ويوشك أن يقذف بشعره المستعار في وجه السامعين، كتب مرة يقول (إني أضحك حتى أبكي وأبكي حتى أضحك).

ويحدث له هنا ما حدث له في لندن إذ غلبه جمال النساء على أمره. كتب فرنسي قوي الملاحظة يقول: هذا القسيس يعشق النساء جميعاً، وبذا احتفظ بنقائه. فإنه ليرتجف إذا مسته أطراف أنامل سيدة، ويود لو ألبسها الحذاء، ولو نام في الغرفة المجاورة لغرفتها في

فندق (كلها أعمال بريئة إذا فهمتها على هذا الوجه).

وهو بالغ الخرق في تصرفاته، بالغ الشوق إلى معرفة تصرفات الناس ومساخرهم فيسافر إلى جنوب فرنسا على متن بغل بجانب تابعه الخاص الذي كساء سترة قرمزية، ويطعم أتانه كعكه بعد أن يمضغ نباتاً شوكياً، لكي يرقب التغير في تعبيرات وجه البغل. وهو يلقي العملة الصغيرة ويومئ إيماءة العظمة إلى المتسولين إذ يتعلقون بحذائه الذي يبلغ ركبته، ويلوي عن الطريق أميالاً لمجرد أن يدخل في نقاش ممتع مع رهبان كان قد لقيهم في طريقه، ويدخل متجر قفازات ويمسك بمعصم البائعة فإذا عد رسغها عشرين نبضة دخل رجل فتقول هي (إنه زوجي لا أكثر) ولذا يستمر ممسكاً بمعصمها حتى يتم أربعين نبضة. وإنه ليدعو حارس أحد المسارح أن يقذف بجندي ألماني ضخم الجثة خارج مقعده لأنه رفض أن يحرك رأسه حتى يستطيع قزم يجلس خلفه أن يرى المسرح. (ألسنا جميعاً أقزاماً نحاول رؤية المسرح لنفقه معنى المسرحية؟).. ألسنا أشبه.. بدمعة فخر تذرف خلسة بين كل دمعتين من دموع الهوان؟.

ثم يعود إلى سماع وقع أقدام. فإن ذلك المحتال الواسع الخطى الذي يروع الخاطئ يقترب في سرعة. فيرجو سترن لو تم اللقاء في نزل منعزل بعيداً عن قلق زوجه وابنته وصحابه. وكان يرجو أنه حين يدخل ساحة الحساب بناء على الإعلان الذي لابد أن يصل إلى الجميع، لا يبدو دفاعه بالغ القحة أمام المدعي العام الأكبر فهل كانت حياته تكاد تخلو من التدين؟ نعم ولكنها تكاد تخلو أيضاً من النفاق. وكان يضرع أبداً إلى الأقدار (امنحيني النعمة والحكمة والدين إن شئت ولكن فوق كل شيء دعيني أكن إنساناً) أنه لم يدع قط أنه أي شيء آخر "فدعيني أكن مجرد إنسان".

إن ممثل الاتهام حين طار إلى ساحة العدل السماوية وفي يده التهمة قد أحمر وجهه خجلاً حين سلمها. وإن الملاك المسجل حين كتبها ذرفت عينه عبرة سقطت على الكلمة فمحتها إلى الأبد.

أهم مؤلفات ستون

A Political Romance. **Sermons by Yorick.**

Tristram Shandy. **The Sentimental Journey.**

سير والترسكوت

١٧٧١ - ١٨٣٢

في خريف عام ١٧٧٧ كانت السيدة (كوكبرن) وهي ابنه عم الوالدة والتر سكوت تقضي المساء مع أسرة سكوت فكتبت في الصباح الكتاب التالي إلى أسقف الأبرشية.

"...كنت أتعشى في الليلة الماضية مع أسرة سكوت.. ولهذه الأسرة طفل على أعجب حظ من العبقرية. وكان يتلو على أمه حين دخلت، فحملته على مواصلة القراءة وكانت القصيدة تصف سفينة تتحطم فكانت انفعالاته تشتد كلما اشتدت العاصفة. فهو يرفع عينيه ويديه قائلاً "ها هو الشراع قد اختفى انتهى. سيموتون جميعاً" وبعد انفعاله يعود إلي قائلاً "أنها شيء محزن جداً فيحسن بي أن أتلو عليك شيئاً أمتع" وكنت أفضل أن نأخذ في الحديث فسألته رأيه في ملتن وفي كتب أخرى كان يقرؤها فأبدى لي رأيه رائعاً فمن الملاحظات التي أبداها قوله (من العجب العجاب أن يعرف آدم.. كل شيء مع أنه جاء العالم لتوه).

ولما أخذ إلى مخدعه في تلك الليلة أخبر خالته أنه أحب هذه السيدة فسألته (أي سيدة) فقال (مسز كوكبرن)، طبعاً، ولعلها طلعة في الفنون مثلي. فسألته خالته: وما الطلعة؟ قال: ألا تعرفين.. إنها الشخص الذي يريد أن يعرف كل شيء.

– ٢ –

كان للفنان الصغير عقل ضخم وجسم قوي ورجل عرجاء، فلقد أصيب في شهره الثامن عشر بصدمة من شلل الأطفال فأصيبت إحدى ساقيه بالكساح مدى الحياة. وأما باقي أعضائه فظلت كما قال (سليمة مكتملة النشاط، شديدة المراس، فتعلم بها المشي والركوب بل والجري مع خير رفاقه) وكان كريم الأب والأم، وكان كرم المحتد يدعوه إلى الاعتزاز بالنفس لا إلى الكبر والخيلاء فهو طوال حياته رفيق طيب بين رفاق طيبين. يقول

أحد العمال بعد أعوام طويلة: "إن سير والتر ليتحدث إلي كما يتحدث إلى أقاربه الأدنين".

وكان منذ طفولته قلقاً كأنه الإعصار، فهو أبداً. يفعل شيئاً أو يقول شيئاً. وكانت ذاكرته أشبه بورقة النشاف فهي تمتص كل ما يسمع أو يقرأ. وكان يعدو حول المنزل يردد الشعر أو بعبارة أخرى يهتف بالشعر ويصيح. وكان يستحيل على أي إنسان غيره أن يسمع له صوت في حضرة والتر. ويقول عنه أسقف الأبرشية: أن المرء إذا تكلم في حضرة هذا الطفل فإنما يتكلم في فوهة مدفع.

إنه شيطان صغير مستقل الإرادة، نهم إلى العلم، التحق بالمدرسة في الثامنة من عمره، وقد كان يحفظ شكسبير وهوميروس عن ظهر قلب، لكنه لم يكن يعرف من الحساب شيئاً، فسلكه مدرسه بين الأغبياء في مؤخرة التلاميذ.

وكان التلاميذ أول الأمر يعيرونه بعرج قدمه "لا فائدة من أن تلاعب أعرج" ولكنه دعاهم إلى النزال المرة بعد المرة وكثيراً ما كان يصبر وأنفه تسيل منه الدماء. وأخيراً كسب احترامهم.

وكسب أيضاً إعجابهم لأنهم عرفوا قدرته على رواية القصص "أي قصص يا جيمي!" عن النجاد والوهاد والمناوشات الدامية بين أهل النجاد وأهل الوهاد في المنطقة الحرام عند الحدود.

لكنه وجد وقتاً لدراسة الحساب بين قراءاته وحربه ورواية القصص. وما مضى عامان حتى بلغ الفرقة الأولى. وما مضى عامان آخران حتى صار على أهبة الالتحاق بالكلية.

لكن مرضاً خطيراً يعترض سبيله في المدرسة ويكاد يقضي على حياته. فقد انفجر له وريد في الأمعاء فقضى أسابيع في الألم، وشهوراً في النقاهة ثم صار على أهبة استئناف التعليم. فدخل الكلية ليعد نفسه لمهنة أبيه.. القانون.

وكان والتر سكوت يفضل حياة الجندية على حياة المحاماة. لكن حياة الحرب مستحيلة على صبي أعرج، لذا حصل على درجته من الكلية وقنع بنسخ الوثائق القانونية

بمكتب أبيه.

لكن عقله ما برح يطوف بالعالم وتتجاوب فيه الموسيقى العسكرية. وتطوع فعلاً بعض الوقت في فرقة من متطوعي الفرسان وشارك في تمريناتها اليومية. ولكن عاهته الجثمانية أدت إلى إخراجه منها. فعاد إلى مكتبه وإلى مغارات عقله.

أخذ يكتب الشعر "غيرة من ابن جلدتي الأسكتلندي روبرت برنز" وحاول أبوه جهده ليثنيه عن هذا الطريق "أن هذه الشطحات غير المجدية التي يشنها خيالك لن تؤدي بك إلى شيء" ولكن أصر سكوت على سلوكه، وكان عليه وهو يتدرب بمكتب أبيه أن يسافر إلى النجاد ليحصل إيجارات العملاء أبيه، وفي هذه الرحلات لقى ولتر كثيراً من الشخصيات الشائقة، وسمع كثيراً من القصص الممتعة. وكان قد أوتي البراعة في رواية القصص والروعة في الإنصات. ويقول أحد هؤلاء القوم في النجاد "كنا لا نسمع عشر كلمات إلا أخذنا في الضحك أو الصخب أو الغناء".

من حملات التحصيل إلى النجاد هذه نبت شعر سكوت.. ونبتت فيما بعد قصص ويفرلي.

-٣-

وقد وقع في غرام فتاة رفضت أن تتزوجه، وتزوج من فتاة رفضت أن تحبه لكنها أعجبت به لتماسك خلقه، ومرح قلبه وروعة عقله. فكان بينهما زواج ينطوي على مودة دائمة، لكنها غير عارمة. فقد أحاطته بذلك الجو المعتدل الدفء الذي يلزم بالضبط لنماء عبقريته وترعرعها.

وكان هو نفسه يقول عن عبقريته "إنها مجرد كفاية في التحبير".

وقد حبر على عجل بعض القصائد الأسكتلندية وعدة مترجمات عن الألمانية. لقد بلغ حينذاك عامه الثامن والعشرين ولكن لم يكن لديه أي أمل في النجاح الأدبي. لقد وافق أباه تمام الموافقة على أن شطحات الخيال لا تؤتي أكلها، فصار يكتب ليتسلى في وقت فراغه من أعمال القانون.

لقد قرر أن يشتغل بالقانون فعين مأموراً لمقاطعة "سلكر كشير" وهي وظيفة تدر عليه دخلاً طيباً ولا تستغرق من وقته إلا قليلاً وتتيح مزيداً من الحرية لمزاولة عمله المنتظم بالمحاكم، وفسحة من الوقت لمزاولة هوايته الأدبية.

وقد ظل أعواماً عدة يجمع أهازيج الحدود الأسكتلندية. وهو الآن يعقب على هذه المجموعة ويعدها للنشر، وهو لا يفعل ذلك طلباً لمجد شخصي بل معونة لأحد أصدقائه القدامى بالمدرسة، هو الطابع "جيمس بلانتين"، وكان هذا الرجل في أمس الحاجة إلى عمل لمطبعته بقيها التردي في مهاوي الإفلاس، فقدم سكوت (أهازيج الحدود) إلى بعض الناشرين اشترط عليه شرطاً واحداً هو أن يطبعها بمطبعة بلانتين.

وهكذا احترف الأدب ليعين صديقاً من أصدقائه.

ولم تنجح المجموعة نجاحاً مالياً كبيراً. وكان عنوانها "أهازيج الحدود الأسكتلندية" ولم يكن سكوت يتوقع لها النجاح فهو يقول "إن اتجاهاتي الأدبية أدخل في باب المتعة منها في باب المنفعة". كذلك لم يكن النجاح المالي لقصيدته الأولى، ذات الأصالة والابتكار وعنوانها "أنشودة الشاعر الأخير". ولكن نجحت هذه القصيدة. فدهش لذلك أعظم الدهشة. أن نجمه ليدل دلالة حاسمة على أن حياته ستكون للأدب لا للقانون، ولكنه لا يدرك كفاءته الحقة حتى الآن وإن بلغ عامه الرابع والثلاثين فهو يقول "أما عن ولعي بالأدب فإني أضحى من أجله بفرص ذهبية في مهنتي تفيض علي الثراء والجاه".

كان يصبو قبل كل شيء إلى أن يكون في ذيل أعلام القانون الأسكتلنديين فخاب أمله أعظم الخيبة إذ صار أول أعلام الأدب الأسكتلنديين، وكان الأسكتلنديون حينذاك يعاملونه على أساس تقويمه لقدر نفسه فهو كما قال "يجد منزلاً يأويه في كل مزرعة" لا بوصفه شاعر الشمال العظيم، بل بوصفه "مأمور سلكر كشير الوديع" ولو أنك طلبت إلى معاصريه تحليل مشاعرهم نحوه لأجابوك إن الذي يحبونه فيه هو والتر سكوت الإنسان.. لا المأمور.

كان غاية في الظرف والبساطة، صادرًا عن سجية، زاخر الرأس بالنوادر والملح، بريئاً

من التعالم والادعاء، قد وهب قلبه كله لأصدقائه، وإن عيوبه كفضائله لتنطق بإنسانية واضحة ممتعة. كتب إلى أحد قرائه يقول "ستجدني نصف محام مهوش العقل، وستجدني نصف صائد فإن كوكبة من الخيل لاتزال تركض في رأسي مذ كنت في الخامسة من عمري، وستجدني نصف متعلم ونصف مجنون، وستجدني نصفاً في كل شيء، ولكنك ستجدني جميعاً. وبكل جوارحي، عارف فضلك ومحبك الأمين، خادمك بكليته.. بجوارحه جميعاً" هذه العبارة هي مفتاح النغم في شخصية والترسكوت.

-٤-

ولئن كان والترسكوت أخاً سخاء، فقد كان أخاً حكمة أيضاً، فإنه ليحرص على كفالة الراحة لأسرته– التي تتكون الآن من أربعة أطفال– فيوظف مدخراته في دار للطباعة هي دار صديقة (بلانتين) وهكذا شارك في مغامرة لعلها كانت تنجح لولا أمران:

قصور بلانتين عن فهم الموقف التجاري، وقصور سكوت عن فهم بلانتين.. فظل المشروع أعواماً طويلة يسير هونها، وظل سكوت يزيد باستمرار مقدار ما يلقي في المشروع من دخله أنه لمندفع أبداً إلى مأساة قاصمة، ولكن مضي وقت طويل قبل أن يعي سكوت هذه المأساة. وكان في هذه الأثناء معيناً بالمحاماة التي تجلب إليه دخلاً يسيراً، متلهياً بالشعر الذي يدر عليه دخلاً وفيراً.

فقد نظم "مارميون" و "سيدة البحيرة". وعدة قصائد صغيرة، وكان يتلقى التمجيد الأدبي في تهامل والضربات الأدبية بابتسام.

سمع مرة بتحقير لقصيدته "سيدة البحيرة"، فانفجر ضاحكاً طيب النفس. وكانت صاحبة هذا التحقير ابنته (صوفيا) وهي صبية في الثالثة عشرة من عمرها، وكان جيمس بلانتين قد قابلها في مكتبة سكوت بعد قليل من نشر "سيدة البحيرة" فسألها عن مدى حبها للقصيدة.

فأجابت في بساطة تامة كما ذكر لأبيها "أوه... إني لم أقرأها، وأن إبي ليقول: إن أشد ما يؤذي الصغار قراءة قصائد الشعر".

غير أن شعر سكوت إن لم يكن من رائع الشعر فهو بعيد عن فاسده، وإن الفيصل في هذا هو الذوق. فأنت لا تدري طعم الفطيرة ما لم تطعمها، ولا يلزم العلم فيمن طعمها لكي يتذوق جمالها. وهذا سكوت يجري تجربة عن فلاح أمي صديق، لكنه رياضي ذكي متحمس فيتلو عليه المشهد الأول من (سيدة البحيرة) وهو مشهد (صيد الظبي) فيضع الفلاح يده على جبينه كما قال سكوت ويصغى في انتباه عظيم طوال تلاوة صيد الظبي...

حتى يصل إلى أن الكلاب ألقت بنفسها في البحيرة وراء صاحبها. فيقف وقد تملكه العجب بغتة ويضرب المنضدة بيده، ويعلن في صوت ناقد قد أدخره لمثل تلك المناسبة، ويعلن في صوت ناقد قد أدخره لمثل تلك المناسبة، ويعلن "أن الكلاب قد أصيبت بعطب تام إذ سمح لها بخوض الماء بعد مطاردة قاسية إلى هذا الحد".

إن للقصيدة مذاق الحياة يستوي في تلذذه الفلاح الأمي والقارئ المتعلم. وإننا لنشعر حتى يومنا هذا أن سيدة البحيرة برغم إيقاعها الرتيب وملالتها بين الحين والحين قصيدة شهية حية.

نجحت (سيدة البحيرة) نجاحاً فاق كل مأمول ودرت الثراء ليس على مؤلفها وحده بل وعلى كل خمار وكل حوذي وكل سائس خيل وكل تابع يقيم على مقربة من بحيرة كاترين. ذلك بأن الوفود من كل أجزاء بريطانيا بل ومن القارة (أخذت تحج إلى مشهد القصيدة الذي أذاع صيته ساحر الشمال، وازدحم كل منزل وحانة بوفود الزائرين المتقاطرة فقد غدت بحيرة كاترين مثابة للزوار وصارت القصيدة كتاباً مقدساً واسماً يهتف به عند الوغي. كانت مجموعة من الجند تحارب تحت أمرة (ولنجتن) في شبه الجزيرة. فكان قائدهم يتلو عليهم في صوت مرتفع وصف المعركة في المقطوعة السادسة وكان الجند مستلقين على الأرض ينصتون إلى الشعر الملهم بينما نيران مدفعية الأعداء تقصف فوق رءوسهم وكان انتباههم صامتاً مستغرقاً إلا حين يسمع منهم هتاف فرح كلما أصابت الشاطئ القريب إلى ظهورهم قذائف الفرنسيين.

وظل عدد المبيع من نسخ القصيدة يتزايد من طبعة إلى طبعة، وتمكن سكوت بفضل حقوق التأليف من أن يحقق حلم حياته كلها فأنشأ له في الريف مزرعة. فلما استقر في مزرعته على ضفاف نهر تويد فتح أبواب منزله وأبواب قلبه لكل من في الريف من الدوق إلى الفلاح الأجير. فإذا حذره صحابه من الإسراف في موداته.. أكد لهم أن كل زواره يؤدون حسابهم بطريقة أو بأخرى. فكل زائر مهما يكن مغموراً، كان يحمل في برديه أنفس ما يهدي.. يحمل صديقاً جديداً! فقد كان يكتفي بعملة الصداقة ثمناً لبضاعة الكرم والبذل.

لقد شاب رأسه كما كتب لأحد خاصته "لكني لا أستطيع الشعور بأن مخي أو قلبي قد أصيبا بالبرد من أثر ثلج المشيب" والواقع أن تقدم السن لم يصب بالبرد مخه وقلبه بل لقد أتاح لهما الدفء فطار محلقاً في آفاق من الخيال جديدة، فبعد أن ظل حتى منتصف العمر بقرض الشعر حتى غدا شاعراً من الطبقة الثانية نراه ينتقل إلى النثر فيغدو شاعراً من الطبقة الأولى.

وكان في أعوامه الأولى قد حاول مرة أو مرتين أن يكتب قصة نثرية وما لبث أن كف عن المضي في محاولة شيء فوق قدرته. فلقد عرض في سنة ١٨٠٥ سبع فصول من "وفرلي" على ناقد صديق يدعى "وليم أرسكين" فقال له صاحبه ينصحه في غير مجاملة (أضرب بهذه الفصول عرض الأفق فهذه الفصول تنطق بعجزك عن كتابة القصص) فلم يضرب سكوت بفصوله عرض الأفق.. ولكنه نحاها جانباً ثم وقع نظره عليها مصادفة في عام ١٨١٣ وهو يبحث عن أدوات الصيد في درج مكتبه، وأعاد قراءة فاتحة القصة وقرر أن يتمها "لمجرد المتعة".

وهكذا وجد (ولتر) أنه قد امتلك منجماً من الذهب دون أن يعلم. ولكنه لم يكن قط على ثقة من قيمة القصة فنياً، حتى بعد أن عرف قيمتها عملياً، فنشرها جميعاً غفلاً من الإمضاء، وقد فسر ذلك في أواخر حياته بأنه كان يظن كرامة المأمور لا تتيح له أن يصير كاتب قصص وكان يكتب قصصه مستخفياً كأنما هو يوغل في رذيلة سرية مخزية. فإذا أتم القصص أرسلها تمرق كالسهم لتصيد له الثروة.

وأصابت سهامه النفسية فرائس تعدلها نفاسة من الذهب والمجد، لكنه لم يكن مجداً شخصياً.

وكان يحدث من حين لحين أن يحدس ناقد فاحص أنه مؤلف القصص. فما فرغت "ماريا أدجورث" من قراءة "وفرلي" حتى أرسلت كتاباً لمؤلفها "أما سكوت أو الشيطان" ولكن سكوت لا يؤيد صلته بالكتاب ولا ينكرها. لقد جلس ذات مساء إلى العشاء مع الوصي على عرش إنجلترا فطلب الوصي كأساً طافحة يشربها في نخب ويفرلي، ونظر إلى سكوت نظرة ذات مغزى فملأ سكوت كوبه حتى طفحت وقال (يبدو على سموك الظن بأن لي حقاً في شرف هذا النخب ولست أستطيع ادعاء هذا الشرف ولكني سأحرص على إبلاغ "سيمون بيور" الحقيقي تلك التحية السامية التي وجهت إليه الآن).

وظلت تواليفه تصب المال في خزائنه انصباب الماء في الشلال، وظل سكوت يصبها بدوره في هوة ليست بذات قرار، مؤسسة بلانتين للطباعة. ولم يك يدري طول هذه المدة أن المؤسسة تسير من سيء إلى أسوأ فتوسع في شراء الأرض وتورط في شبكة من الرهونات وسلى جموع زائريه وأقام العشاء وحفلات الرقص لأهل الريف على خضرة مزرعته وضرب في التلال والوديات برغم عرجه وركب للصيد ليؤلف القصص.

فكيف بالله اتسع وقته لكل هذا؟ وابتهج بما نال من تكريم بما في ذلك لقب بارون. وزوج أبناءه وكتب قصصاً أخرى وأصاب مالاً جديداً وأوغل في أعماق مشروع بلانتين المفجع ثم جاءت الصدمة فقد أفلس بلانتين وضاعت ثروة سكوت كلها. وكانت الصدمة مفاجئة كما كانت مفجعة لكنها أحالت سكوت من رفيق طيب إلى رجل عظيم. فهو منذ اليوم بطل لقصة أغنى بالإلهام من كل ما كتب. فقد بلغت ديونه نتيجة لإفلاس (بلانتين) ١١٧٠٠٠ جنيه فنصحه أصدقاؤه أن يعلن إفلاسه.

ولطالما قدم هو النصيحة نفسها لعملائه إذ هو محامٍ، ولكنه الآن يرقص في عناد وإصرار أن يلتمس هذا الطريق القانوني للفرار. وقال: لن يخسر أحد بسببي بنساً واحداً. فإذا حاول أفراد أسرته أن يشاطروه البأساء، أبعدهم عن الحجرة قائلاً: إني أمقت احمرار الأعين والأنوف، وأخذ يشتغل في صبر رواقي فهو يكتب ويكتب ليؤدي كل ما عليه من

دين.

لقد أحال نفسه آلة حية.

كان شابان (لوكهارت ومنزيس) يتعيشان في منزل منزيس ذات مساء، وعلى حين فجأة رأى لوكهارت صديقه يحملق من النافذة قلقاً.

فسأل لوكهارت: ما خطبك؟ أتشعر بتعب؟

فأجاب منزيس: كلا سأكون بخير لتوي، لو أنك فقط سمحت لي بالجلوس حيث تجلس.. إني أرى من هنا يداً مدثرة ولا زلت أرقبها منذ جلسنا. فهي تشوق عيني.. فهي لا تقف عن الحركة أبداً، وهي تحبر صحيفة بعد صحيفة. ثم ترمي بها على كومة من المخطوطات ولا تزال اليد تتحرك دون كلل. ولسوف تظل في حركتها حتى يؤتى بالشموع، ويعلم الله كم ستستمر بعد هذا. وهذا يحدث كل ليلة أنها على الأرجح يد ناسخ غبي خشن.

كلا إنه ليس بالنساخ الخشن بل هو ولتر سكوت يؤدي ما عليه من دين.

ويخر مريضاً من الإجهاد، ولكنه يقابل مرضه بروح رواقية. فإن مهمة الرجل الشجاع أن يألم ويعمل. فلما عجز عن الجلوس صار يملي المخطوطات من فوق مضجعه، وكانت تمر لحظات يزم فيها أسنانه ألماً، ولكن لا تمضي النوبة، حتى يعود إلى الإملاء.

وماتت زوجته فنحاها عنه، ما أشق الوحدة. وعاد إلى عمله فكتب القصص والقصائد والتراجم. وها هو ذا يسدد ربع ديونه، ثم نصفها ثم ثلاثة أرباعها، ثم يتحطم عقله من الإجهاد كما تحطم جسمه، فقد وقع في وهمه أنه سدد ديونه جميعاً، فما أجمله من وهم.

ولقد كتب في ساعاته التي يعود فيها إليه عقله وصفاً لرجل مريض هو أحد أشخاص قصصه فجاء في الواقع وصفاً لنفسه "المقعد الوثير مليء بالوسائد، الأطراف المددة مدثرة بالفانلة، الجلباب الواسع، وقبعة الليل.. كل أولئك تنطق بالمرض لكن العين المظلمة التي كانت يوماً تتأجج بالنار الحية، والشفاه اللاغية التي كان تمددها وتقلصها يسبغ روحاً أي

روح على محياه الحي، واللسان المتلعثم الذي كان يوماً يفيض بالفصاحة فيضاً، والذي طالما حمل من حدثهم من الحكماء على تعديل آرائهم، كل هذه الأعراض الحزينة أظهرت أن صاحبي في حالة الكآبة والحزن التي تعتري من بقيت لهم حياة الحيوان بعد أن فقدوا ذكاء الإنسان".

غير أن عقل سكوت ينهض في الفترات التي تتخلل آلامه. فيتم قصة أخرى (روبرت الباريسي) ثم يتأهب للراحة. فالمحراث قد قارب نهاية الأخدود.

فبعث به أصدقاؤه إلى رحلة بحرية فوق طرادة، قدمتها البحرية مشكورة، وجاء فيمن جاءوا لتوديعه لوردات وعقائل من علية القوم، ورجل من عامة الشعب، كان إعجاب سكوت به فوق إعجابه بالجميع ذلك الرجل هو: وليم ورد سورث.

وقد بدأ على ظهر السفينة روايتين جديدتين. فهو في غسق النسيان كانت تواتيه بروق خواطف.

ثمة شيء لابد أن أفعله قبل الموت، ثم سمع بموت جيتة ذات يوم، فرجا الربان أن يوقف الرحلة، فإن جيتة على الأقل قد مات في وطنه..

فهيا بنا إلى أبوتسفورد.

بلغها في ١١ يوليه سنة ١٨٣٢ وكان لا يكاد يستطيع المشي. لكنه رجا أن يوضع في كرسي أمام مكتبه، قائلاً: أعطوني الآن قلمي، واتركوني لحظة وحدي غير أن ابنته حين وضعت القلم في يده لم تستطع أنامله الانطباق عليه.

فنقلوه إلى السرير ولبث به شهرين ثم أغلق عينيه في هدوء تام (لم يستطع مثال قط أن يصور شخصاً مستريحاً أجل من هذا وأعظم).

ولا عجب في أن يبدو السلام عليه والطمأنينة، فقد أدى دينه كاملاً لدائنه في السماء.

أهم مؤلفات سكوت

The Lay of the Last Minstrel (a poem)
Marmion (a poem)
The Lady of the Lake (a poem)
Waverly
Peveril of the Peak
The Fortunes of Nigel
Guy Mannering
The Heart of Midlothian
The Bride of Lammermoor
Life of Napoleon (9 volumes)
Count Robert of Paris
The Abbot
Kenil Worth
The Pirate
Ivanhoer
The Monastery
Redgauntlet
Quenten Durward
St. Ronan's Well

أونوري دي بلزاك

١٧٩٩- ١٨٥٠

كان في طفولته يعزف على القيثارة ساعات متصلة، وكان يحدث بها أصواتاً غاية في الإيلام، ولم يك يفهم علة لعدم شعور الناس بجمال موسيقاه. وكان في المدرسة بدلاً من الإقبال على الدرس يكتب مقالاً عن "الإرادة البشرية" ولم يدر لماذا مزقه المدرس في ثورة.

وكانت عيناه المتسائلتان تبدوان قويتي النظرة، حتى لقد حسب الناس أن الأحلام قد جرت عليه ذيل الغباء. ولكن أمه كانت من وقت لآخر تشده للعبارات العميقة التي تنطق بها شفتاه "أنوري.. محال أنك تفهم ما قلته اللحظة" كذلك قالت في عجب لابنها الذي لم يكن يتجاوز السابعة من عمره. وكان أونوري هو اسمه لأنه ولد يوم القديس أونوري فيا له من تحد لطفل أن ينسب إلى قديس، بل وقديس من قديسي الشرف.

وكان أبوه كاتب تموين للجيش، وكان يجمع في نفسه كثيراً من "مونتاني ورابليه والعم توبى" وكان متفائلاً حالماً، أورث إبنه مزرعة من الأحلام ولا شيء سواها. ويئس منه مدرسوه في المدرسة الثانوية، ونفضوا أيديهم منه، وتركوه لآفاق أحلامه "أن هذا الصبي السمين يسير في حالة سبات عقلي" كذلك كتبوا في تقريرهم عنه. وخرج أونوري من المدرسة إلى الشوارع وأكثر من ارتياد المكتبات طلباً للأخيلة والحقائق ومرق كالخيال إلى السربون وأصغى دون أن يلحظه أحد إلى محاضرات الإعلام. لم يدر فكتور كوزان ولا جيزو إلى أي مدى وإلى أي بقاع سترحل كلماتهم في التاريخ والسياسة والفلسفة.

فدعته أمه وكانت امرأة فائقة الفطنة إلى أن يعود إلى هذا العالم، وذكرت له أن من واجبه دراسة القانون. فالأب بلزاك، وقد بلغ الآن عامه الرابع والسبعين، قد أدرج اسمه بين المحالين إلى المعاش. وكانت الأسرة تجتاز ظروفاً ضنكاً، وقد أوقفه داعي الواجب عن السير ذات يوم أثناء نزهته اليومية في مقابر لاشيز، وهي بقعة كان يحبها ويغذي فيها وحيه وإلهامه، ويصدر إليه فيها الوحي والإلهام كأعمق ما يصدران وفيها كان يزن أقوى آرائه

ويبدأ في خططه ذات الطموح الفذ.

فرجع إلى بيته يعلن لأسرته أن "لست أبغي دراسة القانون بل أريد أن أكون أديباً" "أذهب إلى سفر!، وفكرت أمه وكانت لها عبقريتها الخاصة في خطة لإفاقة ابنها من أحدث أحلامه، فأخبرته أن ليس بوسعه أن يعمل في المنزل لأن ضيق المسكن لا يتيح ذلك، واستأجرت له علبة تحت سطح منزل واثثتها بأقل للضرورات وهي إنما تقدم هذه الهدية المزعجة ترجو أن تشفيه بها من جنون طموحه. فيبارك أونوري هذه الهدية. فإذا جلس بين القذارة والهوام شعر أنه يقتعد عرش أجداده الروحيين.. ملوك القلم الجياع.. نعم ولكن ما أمتع أن يسلم لهواه العنان فينطلق في عظم أحلامه.

أتى لزيارته صديق فوصف الزيارة هكذا (دخلت عليه ضيفة تحت سطح منزل أثاثها كرسي لا قاعدة له، ومائدة كسيحة، وسرير بائس، وستاران قذران قد أسدلا إسدالاً نصفياً، كانت على المائدة محبرة وكراسة كبيرة ملأى بكتابة عجلى وأبريق شراب الليمون، وكوب وكسرة خبز، وكانت حرارة ذلك الجحر البائس خانقة، وكان المرء فيه يتنفس هوءاً موبوءاً) وكان بلزاك يجلس على سريره وعلى رأسه قبعة من القطن، "مرحباً بك يا صديقي في ذلك المسكن الذي لم أبرحه غير مرة واحدة طوال الشهرين الأخيرين فأنا طول هذه الفترة لم أنهض من سريري الذي لا أبرحه وأنا أعد الأثر الأدبي الرائع، وكانت على النضد تمثيلية قد تمت لتوها هي (الأثر الأدبي الرائع) الذي من أجله كان المؤلف يحس النعيم وسط كل هذه القاذورات.

وأخذ بلزاك يوماً هذا الأثر ليقر له أسرته فلم يسمع استجابة استحسان وجاء به ثقة من ثقات المسرح في الأكاديمة الفرنسية وقال له:

"هل تتفضل يا سيدي بقراءة ذلك المؤلف وترشدني ماذا أفعل في المستقبل فقرأ السيد المخطوط وأجاب.

أفعل أي شيء في المستقبل غير الكتابة الأدبية. فلم يزد أونوري عن هز كتفيه وهو يقول: يخيل إلي أني لا أحسن المأساة.

ولكنه أقام على الكتابة في عليته. فهو قد عجز عن أحزان العالم فقرر أن يمنعه. لقد فشل في تأليف مآس ملهمة فليجد في الكتابة ليصيب رزقاً فحسب. فكتب قصصاً مثيرة للمجلات الخفيفة. إن رأسه لمحتشد بالخطط.. لكن قلبه وجيبه خاويان.

كتب إلى أخته يقول "إني جوعان يا لور هل تتحقق الرغبتان الكبيرتان اللتان أصبو إلى تحقيقهما وهما أن أكون شهيراً وأن أكون محبوباً؟".

فانطلق يعمل في اندفاع متوهج ويصوغ القصص على غرار ثابت فهو يكتب ستين صفحة كل يوم، وما هي إلا ثلاث سنوات حتى أكمل واحداً وثلاثين كتاباً من كتب المغامرات نشرها بأسماء مستعارة، ولكن اسمه ظل غير مشهور ولا حبيب.. وكان دائماً يتقاضى حقوق التأليف صكوكاً مؤجله الدفع. وكانت ديونه أيضاً وعوداً مؤجلة السداد. فهو على نحو ما عاجز تماماً عن أن يسيطر على الحاضر. ولما استمرت ديونه متفوقة على دخله أبداً، شعر أن عليه إتمام قصصه الحالمة أسرع فأسرع.

ولكن وضع أخيراً للحالم أن عليه أن يجد عملاً آخر، لأن الأحلام الممتعة إنما توافي الأحشاء المليئة المدثرة في دافئ الثياب. كان بحاجة إلى دخل آخر غير الكتابة فأراد أن يصيب مرتباً أسبوعياً. لكن كيف؟

نعم إن لديه رأساً مليئاً بالخطط، وهو يستطيع الشروع في خطط باللسان تفتن ألباب الناس. من هذه الخطط أن يجعل من نفسه ناشراً.

كان يتحدث عما يعتزمه من مغامرات بإيماءات شديدة العنف، وحماسة بالغة الشغف، حتى لقد اشترى له أحد الأثرياء داراً من دور النشر، واندثرت الدار كأنها فقاعة من فقاعات الصابون. لكن الممول الذي خسر سبعين ألفاً من الفرنكات في هذه الصفقة كان لا يزال مسحوراً بفصاحة بلزاك وذلاقته، وقدم بلزاك إلى أخيه وكان غنياً أيضاً فأحال الناشر طابعاً.

وأصاب مشروع الطباعة ما أصاب مشروع النشر من انهيار بفضل توجيه بلزاك. فقد أغرى أصدقاءه بأن يشتروا له مسبكاً للحروف. وسرعان ما قاده إلى الدمار، وأقبل عليها

أقرباؤه يقدمون له من المال ما يكفي لإنقاذه من الإفلاس وإنقاذ أسرته من العار.

وأنشأ جريدة ذهبت بدداً من أحلامه. ثم عاد إلى الكتابة يقهقه مرحاً. كلا أنه في الواقع لا يحمل ضغناً لأحد، والحق أنه سوء حظه وخيانة معاونيه– كما شعر مقتنعاً– هو ما أسقطه، فالمؤكد أنه لم يكن قط خائناً في أي شيء. لكن لماذا يهم نفسه بهذه المسائل؟ إنه ليبلغ بأحلامه أقصى السعادة. أهو مدين بمائة ألف فرنك قبل أن يبلغ الثلاثين.. فليزين حجراته بشيت أزرق فإن اللون يزدهيه. ويكتب إلى أخته، وكان عسيراً عليه أن يجد رسوم البريد "آه يا لورا لو أنك فقط تعلمين كم أتحرق شوقاً إلى (لكن صه! احفظي السر) ستارين زرقاوين موشاتين باللون الأسود (صمتاً دائماً) ومهما يبلغ منه العذاب والإرهاق فإنه لا يستطيع أن يخلص ذهنه من الستارين.

كان يتمتم في نومه "الستارتان دائماً" إنها فكرة ثابتة متأصلة، ماذا يهم أن تخلو معدته من الخبز؟ إن لديه شيئاً أهم منه بكثير. ففي روحه الجمال، وإنه في وقت العشاء ليمسك بقطعة من الطباشير ويرسم على نضده دائرة تمثل طبقاً ثم يكتب داخل هذا الطبق اسم طعامه.

وكذلك كان يصوم ويلوك ويزدرد أغرب الأطعمة التي أستطاع عقله أن يحيل رموزها إلى حقائق. وإن اللعاب ليوافي فمه ودموع السعادة لتثب إلى عينيه. لكن هناك لحظات كان اليأس فيها يمسك بتلابيب قلبه. في هذه اللحظات لم ينقذه من الانتحار غير حب امرأة وذكائها، كانت تزيد عليه كثيراً في السن. لقد أقبل عليها في لحظة من أحلك لحظاته "لا تعزيني لا فائدة من العزاء..! إني لمنتحر" وما هي إلا كلمة ترفيه وتعجب حتى قال "يا لله إنك لعلى حق! إن عبقريتي ستكفل لي الحياة".

وفي تلك الأثناء كانت عناية الله تهديه وترامه. وكان يسير في طريق التوفيق فهو على الرغم من كل ما يعتور حياته من اضطراب وتشويش سيصل إلى مأربه. وإن الكمية السخيفة من قصصه لتصوغ عقله على نحو خاص. فهو في ألمه وديونه التي تخزه وخز أطراف السنان، يحصل على علم عميق بالعلم ورحمة كبرى بالألم والعذاب، فقد تمخض

طموحه الدفاق وكفاحه المستعر، عن إلهام الفنان، حلم قصير قصر الحياة والموت، عميق كالهاوية، عظيم كاصطخاب البحر.. دعاه إلى العمل، والأفران كلها موقدة ونشوة التفكير تخفي ما يستقبل من متاعب.

ذلك هو وحي الفنان الذي هو أداة متواضعة في يد إرادة تبدو أوفر الأشياء نصيباً من الحرية، وإن كانت في الواقع لا نصيب لها من الحرية على الإطلاق".

-٢-

هذه روايات وقصص أصدرتها المطبعة باسمه الحقيقي الآن: قصص عن الطبقة الوسطى الناهضة من أصحاب المتاجر والصيرفيين والنشالين، وعن الحضارة التي تعبد المال وتسير بالبخار. وضحك بلزاك ملء شدقيه مرحاً من تلك الضجة التي أحدثها "لدى أنباء طيبة أخبرك بها يا أختي الصغيرة. لقد زاد ما يدفعه المحررون لي عن مقالاتي ويخبرني (وردت) أن "طبيب الريف" قد نفدت نسخة في ثمانية أيام.. ها ها! بذلك أستطيع أن أبرز لسد الديون المستحقة في نوفمبر وديسمبر تلك الديون التي تزعجك وثمة ملايين كثيرة ستدرها على (أوجيني جراندي) وجعل يحلم بنفسه جالساً في المعهد، وفي مجلس الأعيان، وفي الوزارة و"لم لا يوجه المؤلفون والحالمون دفة الحكومة؟ وهل أحق بحكم الناس ممن جابوا آفاق الفكر؟ بودي أن أرى ذلك الشخص الذي يدهش إذا عينت وزيراً".

ثم يطل في دفتر صكوكه، فيخبو الضوء الوردي من أحلامه. وكأنه كلما كتب زادت ديونه، وهذا تحد هائل لقوانين المنطق. فجعل يذرع الحجرات التي أثثها حين بدت أول بارقة تشير بالتوفيق. وعمرها بكتب رائعة ومقاعد أثرية منقوشة. وأجمل آثار الفن وآنية من خزف السكسونيا، وأنسجة صينية موشاة بالصور. ويعود منهكاً إلى عمله، يكد وسط المباهج من أجل الكونتيسة ب.

ويكتب عن أعظم المحتالين وأفجر الفجرة ويطلق روائح لمجتمع العفنة ثائرة وكأنما قد أطلق الرياح من حقيبة إيلوس. وكان يجلس ويعمل في عطاف أبيض كأنه راهب من رهبان

الدمنيك، ويلبس حذاء من الجلد الأملس الأحمر الموشى بالذهب، ويلف حول جسمه البدين سلسلة ذهبية من طراز البندقية، تتدلى منها أداة مذهبة لطي الأوراق، وسكين ذهبي، ومقص مذهب. وهو يشرب جرعات عديدة من القهوة التي تغلي ليظل يقظاً. وكانت الكتابة طقساً جليلاً كأنه القداس.

كانت الكتابة تبدأ في الساعة الثانية صباحاً حين يستيقظ الكاهن الأعظم من مضجعه ويتناول قلمه.

وفي ضوء شمعات أربع يتأمل البذاءة غير المقدسة التي تطفح بها مآدب باريس من ضحايا الحب والفضيحة. وفي السادسة صباحاً يستحم ويشرب عدة أقداح من القهوة، ثم يصحح تجارب الطبع.

ومنذ التاسعة صباحاً حتى الظهر يهرع الصبية عائدين من المطبعة إلى المؤلف محاولين حل طلاسم الصفحات التي كتبت على عجل والصلبان والنجوم والأسهم المتجهة صوب الألفاظ الجديدة، حتى بدت صفحات التجارب كأنها كتاب سري لمنجم في القرون الوسطى.

كد من أجل الترف، وعين إلى الجمال رانية صافية. بحيث لا ترى الأضواء والظلال في النساء ذوات الأثر في سعادته. فهو إن يكن في تواليفه أستاذاً في تاريخ القلب، فإنه غر ساذج لا يفهم أبسط النساء في حياته. أنهن ترف كثيف يخدعه لونه، ولا يسمح لعقله بالنظر من خلاله. فهو يولع ولعاً جنونياً بما ركيزة "كنت ذات مساء كل شيء لها حتى إذا كان النهار كنت لا شيء.. ففي خلال الليل ماتت المرأة.. المرأة التي أحبها".

ثم كانت سيدة أجنبية تقيم بعيداً عن المجتمع في قصر ببولندة. ولم يكن لديها شيء تفعله فكتبت إليه خطاب غرام في روح متصوفة. وقابلها سراً في سويسرا وتبادل وإياها القبلات تحت سمع زوجها وبصره، وأنفق ثماني عشرة سنة من أمله وقوته وحياته على الكونتيسة وراء الفستولا التي لا تبادله الغرام.

"العمل والعمل دائماً". ليال حامبة تليها ليال حامية. أيام تفكير في أثر أيام تفكير.

وتنقل من التنفيذ إلى الخيال ومن الخيال إلى التنفيذ. فإن شراء قصر ومعيشة البذخ لأمور تبلغ في يسرها تأليف قصة. لن أحيا حياة الأوساط بينا أفكر تفكير الآلهة: ها ها! هذا هرم صغير من المال، قوام الحياة. وما هي إلا أسابيع قليلة حتى ذاب الهرم.

فإذا بلغ الأربعين كانت ديونه قد بلغت مائة وسبعين ألفاً من الفرنكات وإنه لرقم سريع القفز بلغت أرباحه وحدها ستة آلاف من الفرنكات في العام. وإنه ليتأمل العصا الذهبية في يده، ويتنقل في عربة مكشوفة ذات دولابين، يجرها حصان يخطو في خطا عالية، وقد جثم إلى جانبه نمر صغير أليف. ويؤلف رواية في ثلاثة أيام، ويتم أخرى في ستة أسابيع لم ينم خلالها غير ثمانين ساعة، بمعدل ساعتين في اليوم. ثم تعتوره في حديقة خليلته تلك الرشيقة نوبة إرهاق تخور معها قواه.

فلما قصرت قصصه عن أن تغل المال الكافي، ولي وجهه شطر المسرح فألف مسرحية في ستة عشر يوماً كان مصيرها الرفض. ثم أودع فكرتها مسرحية أخرى فقبلت الفكرة. فما أسرع ما أرسل يستدعي جوتيير وصاح نافد الصبر حين وافاه جوتيير (ها قد جئت آخر الأمر أيها المكسال المترهل؟ كان يجب أن تكون هنا منذ ساعة. غداً سأقرأ لهاريل مسرحية عظمى من خمسة فصول).

"أتريد أن تقرئني المسرحية وتسمع رأيي؟" هكذا قال جوتيير وقد أتخذ له مقعداً وتأهب لسماع قراءة طويلة. فقال بلزاك في بساطة "أن المسرحية لم تكتب".

"يالله! إذن يجب إرجاء قراءتها أمام المخرج ستة أسابيع"، "كلا يجب أن نسرع في كتابة المسرحية والحصول على المال. فان على ديناً فادحاً يجب أداؤه. أنصت إلى ياتيو. هكذا دبرت أمري. ستكتب أنت الفصل الأول. وسيكتب أورلياك الفصل الثاني ويكتب لورنت الفصل الثالث ويكتب الرابع دي بالوي وأكتب أنا الخامس. ثم أقرأ أنا المسرحية كلها لهاريل غداً الساعة الثانية عشرة كما اتفقنا" قال جوتيير "إذن فأذكر موضوعها وأشرح لي أحابيلها وصور شخوصها في بضع كلمات حتى أستطيع أن أشرع في العمل".

فصاح بلزاك في إيماءة رائعة "آه إن كان علي أن أرى موضوعها لك فلن ننتهي".

ومع ذلك فإن المسرحية قد كتبت. ويصفه لنا أحد أصدقائه في أثناء تجربة (تمثيل الرواية) وصفاً حياً "كنت تكاد تنكره من الضنى والإعياء. وأصبح قلقه وتشويشه أمراً يعرفه الناس جميعاً. فكان الناس ينتظرون أمام باب المسرح ويشهدونه يندفع في الشارع وقد انتعل حذاء ضخماً يخرج لسانه من السروال ولا يستكن فيه. وكانت جميع الملابس التي يرتديها تبلغ ضعف الحجم الذي يلائمه، ويغشاه الطين من الشوارع".

وكتب قبيل تمثيل المسرحية "لقد قاسيت شقاوات كثيرة، ولكن شقوتي كلها تنتهي إذا أصبت النجاح. تصور قلقي وتوجسي يوم تمثل مسرحيتي فوتران أن تمضي خمس ساعات حتى يتقرر هل أستطيع أداء ديوني أم لا أستطيع".

ولم تنجح المسرحية. فقد صمم وغد القصة على أن يمثل دوره هازلاً متفكهاً، فهو إذا خلع قبعته بان منه شعر مستعار على شكل هرمي. وهو كساء للرأس لاحق في استعماله لغير الملك لويس فيليب، فغادر أورليانس مكانه. وبرح المسرح وكان من العسير إتمام الرواية إزاء ما حدث من الضجة وما سمع من صفير الاستهزاء وما تردد من تهديد الجمهور وتوعده، وما أسرع ما حظر الرقيب الرسمي تمثيل هذه الرواية.

ولكن بلزاك كان مطمئناً جهد الاطمئنان في أثناء حفلة الافتتاح تلك. فإنه لفي سبات عميق على أريكة عند آخر المسرح وقد اشتمل عليه حلم جديد.

-٣-

حلم جديد آخر وانهيار مالي جديد. فيهرب من دائنيه متنكراً في ملابس امرأة وقد استخفى بأفانين التزيين، وجعل يتنقل في سرعة بين حجرات الأسطح ومزارع الريف حسبما شاءت الريح، وجعل يتسلل إلى منازل أصدقائه ويتحدث في الأخلاق والأدب والحب فيما بين الخامسة مساء والخامسة صباحاً مع "جورج ساند" تلك النابغة الأخرى من نوابغ القرن. ثم يظهر له كتاب جديد وتتراكم عليه ديون جديدة.

فيدعو ناشريه بالعقبان التي تنهش لحوم برومثيوس ويكتب إليهم قائلاً: "سيحل يوم قريب تنالون فيه الثراء على يدي، ستذرع عرباتنا غابة باريس وسينفجر أعداؤكم وأعدائي

حسداً". صديقكم: أ.ب

وتلي ذلك حاشية بخط بالغ الدقة "وبهذه المناسبة يا صديقي. إنه لم يبق لدي مال؛ لذا اقترضت مبلغ ١٥٠٠ فرنك من روتشيلد وكتبت بذلك المبلغ صكاً باسمك، يستحق الأداء بعد عشرة أيام من رؤيته".

ولكنه ظل مقيماً على الأمل في أن مشروعاً تجارياً سوف ينهض به على قدميه، وسوف يسعه أن يحلم وهو على رفرف النعيم. وكان قد عرف من مطالعاته أن الرومان الأقدمين قد استخرجوا الفضة من مناجم لها في سردينيا، وكان على يقين من أن هذه المناجم لا تزال بها فضة يمكن استخراجها. وحدث بهذه الفكرة أحد التجار وعقد معه شركة وقرأ في الصحف ذات صباح أن شريكه قد تعاون مع بعض الوكالات الحكومية على استغلال مناجم سردينيا دون مشاركة بلزاك. ولكنه يقيم على حلمه المتفائل، ويوقظ صديقيه جوتيير وساندو، في ساعة متأخرة من الليل، ويخبرهما أن صوتاً وافاه وهو في غيبوبته وأن ذلك الصوت قد حدد له المكان الذي خبأ فيه **Jouissint L'ouverture** كنزاً، وظلت الفكرة لسوء الحظ– لا تعدو مجالها النظري، فإن أحداً من الكتاب الآفاقين لم يتهيأ له من المال ما يذهب به إلى هايتي.

ولكن يمضي بلزاك في خطته، فيعقد شركة مع صهره. ويبتكر نظام السطوح المائلة للسكة الحديدية، ويحلم بإنشاء ترع من نانت إلى أووليانز. وبنقل شجر البلوط من بولندا إلى فرنسا، وبزراعة فدان من أرض المدينة أناناساً. ليته فقط يحصل على بضعة آلاف من الفرنكات يبدأ بها مشروعه. ويجمع أقوال نابليون ويبيعها بأربعة آلاف فرنك لبائع قبعات، حسب أنها قد تعينه على نيل نوط الشرف، ثم قرر الحصول على احتكار لصناعة تماثيل أوربا وأنسجة أوربا الموشاة بالصور ونقوشها ليبيعها للعالم. فسوف يشتري مثلاً: (أبولو بلفدير) ويدع أمم الأرض قاطبة تتنافس على شرائه. ألا ليت له فقط منزل ريفي صغير!

وذات يوم يمتلك منزلاً. ولكنه يخشى تكاثر دائنيه إذا سمعوا بما أصاب من ثراء فهو

يقول لكل زواره (إني لا امتلك من ذلك شيئاً كما تفهمون، فهذا منزل أصدقائي وأنا أخدمهم).

"من أولئك القوم العجيبون الذين يقنطون هنا وقد اتخذوا أونوري دي بلزاك خادماً لهم" إن حجرات المنزل تكاد تخلو من الأثاث وأن جدرانه المطلية بالجبس الناعم لتحمل على أبعاد منتظمة أروع الأوصاف (لأشياء غير موجودة) قد أثبتت على عجل بخط يعرفون صاحبه حق المعرفة: "هنا رخام باري مطعم" "وهنا لوح مقاطع لفتحة الموقد من رخام كارارا" وعلى السقف "هنا نقش لأوجين دلاكروا" وعلى الأرض "هنا أعجب ما أبدعت يد إنسان من طلاء بالألوان المائية والفسيفساء".

ويحمل بلزاك في يده عصا ذهبية وعليها الشعار التالي مترجماً التركية (قاهر الصعاب جميعاً).

وتفد إليه رسالات بالغة العجب وتستحوذ على ذهنه فكرة أنه مغنطيس فيعتقد أن شأنه كشأن القطب الممغنط ويعلن أنه إذا حصل على سر معين أستطاع أن يأمر كل إنسان بطاعته وكل امرأة بحبه.

كذلك جعل يحلم بألف رواية هزلية وينفذ إلى النزعات البشرية وينسج بساطة الوهمي من الأرض إلى السماء على قوس قزحي عربي الطراز. فهو إن كان من قوم يكدحون في النهار فإنه ينظر إلى نفسه على أنه عضو في الطبقة الوحيدة النبيلة حقاً.. فهو أخ في الملك لهارون الرشيد أمير من أبدعوا نسيج القصص وأمتعوا الناس.

وأي ذخر من الجمال ذلك الذي يطالعك في نسيج قصصه. إنه لا يخشى أن يتهم بالمبالغة. حتى ليقول إن الرذيلة إن هي إلا الرغبة في معرفة كل شيء. وهو يربط مصيره بمصير فوست. فلقد برئ من كل خداع حق في أمر العالم. فهو في أقصى خيلائه سيموت كما تموت الحشرة المزخرفة قد أخذت زينتها لموسم الحب. ولم تلبث أن سحقتها قدم عابر سبيل. فتتساءل أنت فيم اللهفة هذه كلها على البهرج الباطل إذن؟ بربك ليس هو البهرج ما يعنينا وأن بلزاك ليناجي روحه وقل من ملايين الأصدقاء من سمع نجواه "ليست

بي من الفقر خشية ولولا أن العار وزراية الناس تصبان على المتسول لتسولت واستجديت الناس لأستطيع أن أحل في سلام تلك المشاكل التي يزخر بها عقلي. وأني في بعض الأوقات لأقبض بيدي على عالم الفكر وأعجنه وأشكله وأنفذ من خلال واعيه.. ولكن المرء الذي يسبق زمانه بقرنين يختم حياته على المشنقة.. من أجل ذلك احتفظ بحدائقي ومشروعاتي المالية لأنيم وأخدع تلك الروح الشريرة التي قد تنصب المشنقة لرجل ممزق الثياب.. بربك.. لأصبحن بالحق في سكوني. فليقم الملائكة مصحات للأرواح المعذبة. ولكن حتى يفعلوا سأشيد للأرواح المعذبة قصراً من الأحلام".

-٤-

وآتت خياله فكرة هائلة حينما كان شاباً حالماً قد سلخ من حياته الشاذة الأطوار ثلاثين عاماً، هي أن يؤلف سلسلة من القصص، تكون في مجموعها مسلاة إنسانية كاملة من نوع ملهاة النماذج الاجتماعية. فهرع إلى منزل أخته كما كان يفعل دائماً إذا اشتمل عليه حلم كبير. وأقبل كأنما هو كبير الزامرين في الجيش. فهو يحكي الموسيقى العسكرية إذا هدرت وضربات الطبول إذا قرعت، ثم هو يصيح (يا صغيرتي هنئيني).

وجعل يختلف إلى عمله يهمهم بالنغم. ويربت على أكتاف الأصدقاء. فهو يؤدي دور المهرج السعيد بينا فكرة مغامرته الشاعرية تكتمل نضجاً، ومهما تختلف عليه البهجة والضيق، والأبهة والإفلاس. ومهما يبلغ اضطراب أمره في المسائل العملية فهو لا يحيد عن مهمته طيلة عشرين عاماً.

لقد ألف غيره من القصاصين كتاباً أو كتابين أو عشرة، هي نتاج موقوت لفنهم حين يستوي للفن مزاجهم، لكن أي القاصين قد حلم بكتابة ستة وتسعين كتاباً كل منها خط يشارك في إتمام صورة مسلسلة متتابعة للحياة. إنها المهزلة البشرية للأرض.. رصيفة المهزلة الآلهية للسماء التي كتبها دانتي.

ولكن ما كتبه بلزاك كان أكثر من كتابة "معارضة" لملحمة دانتي. فهو فنان يحيا في بيئة يسودها العلم الحديث ولا يحكمها إيمان القرون الوسطى. فدبر أمره على أن يدرس

مملكة الإنسان كما درس بوفون مملكة الحيوان. فيكتب بحثاً شاملاً في التشريح الخلقي المقارن للجنس البشرى، ولم لا يفعل وقد صنفت الحيوانات أصنافاً. ورتبت في أجناس وأنواع، وما الجنود والعمال والأساتذة والساسة والتجار والبحارة والشعراء والمتسولون والقساوسة إلا نماذج يتميز بعضها من بعض تميز الذئاب والأسود والنسور والغربان والقروش بعضها من بعض. فالإنسان تحكمه النوازع ذاتها التي تحكم الحيوان، وعلى الأخص دافع المصلحة الشخصية. والأدب إنما يجمل الإنسان، والنفاق يزوره فالحيوان باق في الإنسان وإنما يختلفان في أن عقل الإنسان أرحب من عقل الحيوان؛ لذا كبرت حاجاته وعظمت مخاطره.

وهكذا أقام في متحف التاريخ الطبيعي البشري صوره للبشر كاملة، تنتظم آماله ورغائبه ومطامحه وكفاحه ومنافساته وغرامه وضعفه وملقه ومخاوفه، هي صورة شاملة لوحشية الإنسان كلها في حكم نابليون الأول ولويس فيليب. وكان بلزاك شديد الإعجاب بالكورسيكي الضئيل. وكثيراً ما طاب له أن يقارن نفسه بنابليون فذلك الرجل جندي يناضل بالسيف وأنا جندي يناضل بالقلم. "ولكني سأنجح حيث فشل نابليون. فلسوف أغزو العالم".

وغزت (المسلاة الإنسانية) العالم فعلاً. فهي تقدم عالماً جديداً يشتمل على طبقة جديدة.. هي الطبقة الوسطى. إنهم رجال جدد لهم مهام جديدة، وآمال جديدة ودين جديد، دين الديمقراطية الذي يؤمن بالرجل العادي، فالكادح في المنجم وقد أتخذ على وجهة قناعاً، والعامل وقد ارتدى سرواله الثقيل والتاجر وقد وقف وراء خزانته، هم أبطال الادب الجديد، والطبقة الجديدة، والحياة الجديدة. لقد كتب أسلكس وشكسبير وكورني تمثيليات تدور حول النبلاء والملوك، فيعلن بلزاك تحديه لقراء هذه القصص بقوله "أن قصصي البرجوازية لتحمل من الآسى ما لا تحمله مآسبكم التمثيلية".

وبلزاك كشكسبير يفتن في تلوين كل طائفة من طوائف الخلق البشرى، فلا يألوها إضاءة ولا تظليلاً، وهو كشكسبير في مناعته على العدوى بالأمراض العقلية والإسفاف الخلقي الذي شاء أن يتناوله. فهو يصور تحلل النبلاء وانهيارهم وظهور الطبقة الوسطى

التي تنتظم الصيرفي وطالب الكسب والعصامي، وجاءت قصصه ملحمة للشهوة المادية يسودها ظمأ غلاب إلى النجاح المادي. كتبها أمير شعراء النزعة الرأسمالية. فالمال هو المقياس الوحيد لقيمة البشر. فهو دم الحياة يجري في عروق أشخاصه، فيمد الرئتين بالهواء، ويمد العقل بالغذاء، ويمد القلب بالإيمان. إن رنين الذهب هو موسيقاهم وشعرهم وفلسفتهم ودينهم وحياتهم وهو المادة التي تصاغ منها أحلامهم. وتحت طلسمه السحري يبدعون الجمال ويقترفون الجرائم (وفي سوق الأوراق المالية تدور معارك البطولة وتجرى الخيانات الفاضحة. إن المال ليتكاثر والنقود تجذب النقود، وقطعة الفرنكات الخمسة تحسد الفرنكات العشرة وتكافح في سبيل التكاثر. إن المال هو قوة الكون التي تحكم الأرض. هو بروسبرو وكالبيان. هو الله والشيطان اللذان يتأرجح بينهما العالم).

وينتقل بلزاك مزهواً بين حجرات الزائرين وقاعات التجارة، ويهتك حجب النفاق التي تقف دون شخوصه، ويظهر على أرواحهم، ولكنه يزدرى أن يصدر عليهم حكمه إذ كيف يحكم؟ إن الإنسان ليصف الأشياء جميعاً أوصافاً مجردة– طيب شرير فاضل مرذول– وهي ألفاظ يختلف مدلولها باختلاف الناس، فأحكام الناس عمياء. "وليس من مبصر في حكمه غير الله" وما شأن أرضنا هذه الحمقاء؟ أهي جزء من كون أحمق؟ يجيب بلزاك عن هذا السؤال سلباً.

إن الكون ليسير نحو غاية منطقية. وليست هذه الغاية مجتمعاً على شاكلة مجتمعنا. فإن الهوة بيننا وبين السماء سحيقة مخيفة. وليس الإنسان مخلوقاً كاملاً وإلا لما كان الله، ومع ذلك فمن كل هذا. من شكل مجتمعنا، ذلك المجتمع الذي يعد حب الإنسان أكبر الأخطاء. والتقدم صيحة جوفاء.. وضعت يدي على الحق الصراح. إن الحياة إنما توجد في داخلنا ولا وجود لها خارجنا. وأن ارتفاعنا فوق مستوى أفراد جنسنا بقصد أن نتحكم فيهم، أن هو إلا تضخيم لعمل المدرس. ومن أمكنته قوته أن يسمو إلى حيث يرى السماء، فأخلق به ألا يدير بصره إلى قدميه".

وفي ضوء هذه الفلسفة، قسم بلزاك سكان العالم لا إلى أبطال وأوغاد، وأخيار وأشرار. بل قسمهم إلى فعالين ومفكرين وقديسين. وأدنى هذه المستويات مستوى

الفعالين، من المحاربين والتجار ومبدلي النقود. وأبطال الدفع والجذب. ويليهم رجال الفكر من العلماء والأساتذة والفلاسفة والمدرسين والمرشدين، ثم يأتي أهل الخيال من الشعراء والفنانين والموسيقيين والأنبياء ومنقذي العالم. فقد قدر للإنسان– فيما يرى بلزاك– أن ينهض من العمل إلى النظر عن طريق التفكير المجرد، فإذا بلغ المرحلة النهائية عاد اللحم المادي إلى أصله المقدس.. عالم الله الروحي.

ولم يتم بلزاك خطته العظيمة قط، فهو فنان أكثر منه صانع. ولا يستطيع أن يتم مهمته غير الصانع. فلقد كتبت كل قصص المهزلة الإنسانية في كدح أليم وأسلوب غامض، وكثيراً ما كانت نيران الهامة بغشاها السحاب من تعقد التعبير. لكنه ظل حتى آخر أيامه يجهد في إبداع آيته وترك منها صرحاً، زاد في روعته أن قوته لم تكتمل.

–٥–

فلما قارب الخمسين كتب القدر الفصل الأخير من المهزلة البشرية لحياته الخاصة. فإن الكونتيسا هانسكا التي كان يتبادل القبلات وإياها في الخفاء طيلة إثني عشر عاماً قد فقدت زوجها، وأمكن آخر الأمر أن تكون له. فكتب إليها في هذيان مستمتع "لن أكون مديناً بدرهم واحد يا عزيزتي، سأصيب من أعمالي خمسمائة ألف فرنك. دعك مما تدره (الملهاة البشرية) مما يزيد على ذلك المبلغ. وهكذا أيتها السيدة الجميلة ستتزوجين مليونيراً أو أكثر إن قدر لي أن أعيش".

وأتخذ له منزلاً. وابتاع الصحاف والطنافس والحرير، والأنواط والساعات والصور والماثلات، وأعدها كلها. ولم يبق إلا إخراجها من صناديقها عشية زواجهما. أعد هذا المنزل ليكون مأواهما في شهر العسل. وجعله تحفة رائعة تنتظر قدوم مليكته.

لكن مدام هانسكا كانت قد ملت هونوري دي بلزاك منذ أمد طويل، وهي الآن لا تأبه مطلقاً لتلك العبقرية التي كانت موضوع عبثها ساعات الفراغ. فظلت خمس سنوات أخرى تتأبى عليه، ثم ضاقت بحصاره إياها فتزوجته. فكتب بلزاك إلى أخته "لقد بلغت قمة سعادتي فإني الآن في أوج أحلامي".

ثم أفاق من سكرته فألقى سيدة أحلامه إمرأة نصفاً، متورمة الساقين والذراعين من النقرس، وكثيراً ما كانت تعجز عن المسير. لكنها لم تشعر أنها تقل شيئاً عن أمير قلبها، وسر ذلك عندها وعند طبيبها. فبلزاك يوشك أن يموت.

فإذا بلغنا شهر مايو، شهر الحياة والحب. كان فكتور هيجو يزور زميله في الأدب، فكتب تلك العبارة الوجيزة "تزوج وهو غني على أبواب القبر" إن استنزافه التام لنشاطه، وهو نشاط لم يعرف تاريخ الأدب له مشبهاً قد حطم جسمه القوي آخر الأمر. وكان بصره أول شيء ذهب ثم انحطم قلبه واستقرت في رجله الغنغرينا.

أنه في شهره الأخير، فنراه مختبئاً في منزل فخم، وقد استلقي على أريكة يغطيها الديباج الأحمر والمذهب، وقد اصطبغ بلون الأرجوان من الألم وتعفنت ساقاه. ولكن رأسه لا يزال بركاناً يقذف بالمشروعات، أنه لمولع بالأخيلة لكنه يدعها إلى أحلام تفوقها جمالاً.

وفي يومه الأخير جاءه فكتور هيجو يقدم تحياته. دخل منزل الرجل الضئيل الخرافي، وحاول أن يقرأ سر الحياة في وجه يموت، لكنه لم ير شيئاً غير الموت والتحلل. وكان بحجرة الاستقبال تمثال نصفي ضخم للكاتب، وكان هذا التمثال الرخامي النصفي أشبه شيء بشبح الرجل الذي يموت "فإذا دنوت من المضجع رأيت منظره الجانبي وكان يشبه نابليون. وكانت ممرضة عجوز عليلة على أحد جانبي السرير، وعلى جانبه الآخر خادم رفعت الغطاء. وأخذت يد بلزاك. وقالت الممرضة: سيموت حول الفجر".

مات في الليل. ولا مراء أن فرنسا كان يخيم عليها الليل، فالناس لم يكادوا يتنبهون لموته. لكنهم لم يمنحوه تمجيداً ولا تكريماً حتى في حياته، فحين تقدم لعضوية المجمع الأدبي الفرنسي، أوصد القوم المتعالون الباب في عنف دون ذلك "الجلف الفلاح".

فالمجد–كما قال بلزاك– "هو شمس تشع على الموتى".

أهم مؤلفات بلزاك

La Comédie Humaine	César Birotteau
Eugénie Grandet	Louis Lambert
Vautrin	Père Goriot
La Cousine Bette	Le Cousin Pons
La Recherche de l'absolu	Pamela Giraud
Un ménage de garcon	Les Illusions Perdues
Splendeurs et misères	Lys dans la Vallèe
	Des courtisanes

اسكندر ديماس "الأب"

١٨٠٢- ١٨٧٠

كان إسكندر في الرابعة من عمره حين مات أبوه، وخرجت أمه من حجرة الموت، فرأت الطفل يصعد الدرج وقد جر وراءه بندقية ثقيلة.

"إلى أين أيها الطفل؟"

"ذاهب إلى السماء".

"يا عجباً.. لماذا؟".

"لا بارز الله.. فقد قتل أبي".

وكان إسكندر منذ طفولته الأولى أشبه بالفرسان الثلاثة، محارباً مشهوراً يجاهد صعاباً عزيزة المنال. فقد تحدر من أصلاب قوم من المغامرين والمحاربين. ولبى جده الأرستقراطي (دافي دي لابايتري) نداء الدم فأبحر من نورمانديا إلى جزيرة سان دومينجو. وعاش فيها حياة الأباطرة، يحوطه رهط من الأرقاء السود، وقد ولدت له إحدى الأماء، لويزا ديماس، ابناً أسود، أسماه (توماس اسكندر) وقد ورث ابن دافي دي لابايتري هذا فوران أبيه وتهيجه:

"أريد لأ تطوع في الجيش".

فقال له أبوه: لا بأس. لكن يجب أن تتطوع باسم أمك. فإنه ليشقيني أن يحمل جندي أسود اسمي ذاك الشريف (دافي دي لابايتري).

وهكذا انضم توماس إسكندر إلى الجيش الفرنسي عام **١٧٩٣** باسم ديماس. وما هي إلا سبع سنين حتى رقى من رتبة النفر إلى رتبة القائد. يا له من رجل محارب ظريف عجيب شجاع دمث مفكر. ذلك الأرستقراطي الأسود ذو البشرة السوداء والشعر

الكستنائي. لقد هاجم البرانس، وأخذ ألفي أسير، ودافع وحده فصيلة نمساوية عن إحدى القناطر، وكان دائماً يحارب في مقدمة رجاله.. ولقد أغمى عليه مرة بعد معركة فأشرف على الموت، فسأله مساعده حين فتح عينيه:

"هل جرحت أيها القائد؟".

"كلا.. ولكني قتلت كثيرين جداً".

كان يحارب تحت أمره نابليون بوصفه جمهورياً متوقداً. وظل جمهورياً متوقداً حين نصب نابليون نفسه دكتاتوراً.. فطرد من الجيش مجللاً بالإهانة والتحقير. في هذه الأثناء كان قد تزوج وأنجب طفلاً قوياً كأنه الرجل، وزنه تسعة أرطال وطوله ثماني عشرة بوصة. وقد ولد الطفل أبيض اللون والحمد لله. كما قالت أمه: له بشرة متوردة وشعر فاتح اللون، وعينان زرقاوان، ولم يبق من آثار أصلة الأسود غير غلظة الشفتين فسموا هذا الطفل إسكندر.

وقد شب الطفل منذ طفولته الأولى قوياً في جسمه وعقله وروحه الثائرة.. إن الرجل الشرير (نابليون) قد لطخ أبي بالعار، فسأكرس حياتي كلها لمحاربة الأشرار.

-٢-

وحاولت أمه أن تجعل منه عالماً، لكنه يبغض التعلم، ثم تحاول أن تعلمه العزف على القيثارة، لكنه يبغض الموسيقى. وأخيراً تحاول أن تحبب إليه العمل بالكنيسة ولكنه يفر من بيته ويقيم بالغابات أياماً عدة. فاستسلمت أمه لليأس (إنه لا يقدر إلا على شيء واحد.. هو الكتابة بخط حسن، لكن أي معتوه لا يقدر على ذلك؟).

ولكن إسكندر كان أبعد ما يكون عن العته، فله عينان يقظتان، وعقل متفتح، وقلب يسع العالم كله حباً. وهو على كراهته قراءة الكتب كان يتعلم في سرعة مطالعة الحوادث الجارية في صور بديعة شتى، وكانت أعظم الأحداث تجرى في هذه الأيام الثائرة، ففي يونية عام ١٨١٥ رأى إسكندر عربة تقتحم الشارع الرئيسي في "فيير كترية" ولمح من وراء الستار هيكلاً لرجل.. حازم.. مستقيم ذي عزم وإرادة، هو نابليون يسير عجلاً إلى

واترلو.. وماهي إلا أيام قليلة، حتى رأى نفس العربة تقتحم نفس الشارع في الاتجاه المضاد فرأى وراء الستار، خيال الهيكل نفسه كسيراً غائصاً في وسائده، محطماً "هو نابليون قد فر من واترلو".

وبعد هزيمة نابليون حاولت أم إسكندر أن تستعيد ثروتها ومكانها، فعرضت على ابنها أن يختار بين أن يدعى بذلك الاسم الأرستقراطي "بكل سرور".

ويضحك الممثل ويقول وقد وضع يده على جبين اسكندر: هأنذا أكرسك للشعر باسم شكسبير، وكورني وشيلر.

قال الممثل هذه الكلمات في روح أقرب إلى المزاح منها إلى الجد.

لكن المسألة عند ديماس ليست مسألة مزاح أنه شاعر يباركه شكسبير وكورني وشيلر، سأحقق هذه النبوءة! سأحققها لتالما ولباقي الدنيا كلها.. فهيا.

وذهب إلى منزله وجلس يحيل قصة سكوتس (إيفانهو) إلى تمثيلية.

-٣-

لم يستطع أن يجد منتجاً لقصة (إيفانهو) ولا لتمثيليته التالية ولا للتي تلتها. لكنه ظل يأمل ويلهو بالنساء ويولد له أبناء غير شرعيين ويكتب التمثيليات والقصص ويحاول في إلحاح دائب ليفرض عبقريته على عالم عنيد. وكلما رفض منتج أو ناشر أن يقابله كان يكتفي بالابتسام للسكرتيرة قائلاً شكراً يا آنستي لست ممن تخور عزائمهم بسهولة سأمر ثانية.

وأخيراً سنحت له الفرصة بفضل إصراره وتفاؤله. فإن إحدى تمثيلياته وعنوانها (كرستيانا ملكة السويد) قد قبلت للتمثيل في المسرح الفرنسي واختير الممثلون، وبدأت التجارب وتقرر النجاح للمؤلف الشاب. لكنه ألقى بالفرصة جانباً وقد فعل ذلك بدافع من كرم النفس. فإن مؤلفاً مسرحياً آخر.. رجل عجوز قضى طول حياته يحاول الوصول إلى المسرح على غير طائل قد أتم الآن فقط مثلما فعل ديماس تمثيلية عن ملكة السويد.

فقال ديماس "فلنسمح للزميل العجوز بأن يجول جولته على المسرح قبل أن يودع الأرض" وسحب روايته في إيثار وشهامة.

ثم شرع يكتب تمثيلية جديدة عنوانها (هنري الثالث) وظفر لها بمنتج وجعل ينتظر على أحر من الجمر حفلة الافتتاح. وكانت ليلة ١١ فبراير عام ١٨٢٨ فأخذ ديماس في ارتداء ملبسه استعداداً للمسرح.

لقد أعد كل ملابسه مقدماً (السرعة.. السرعة حذار من التأخر فلبس حذاءه وسرواله وقميصه.. وفجأة وجد أنه قد نسي شراء زيق. فاستل مقصاً وقطع به زيقاً من الورق المقوى لف به عنقه. ثم هرع الفارس (المورق) إلى المسرح ونظر من خلال ثقب في الستار "أن القاعة مزدحمة حتى الأبواب".

كانت الحفلة نصراً باهراً. واستحالت ضجة الاستحسان عنا. إسدال الستار إلى هذيان محموم حين ظهر المؤلف، ورأسه مرفوع عالياً، حتى أن ناصيته غير الممشوطة كادت تشتعل من أنوار المسرح. ذلك هو الرقيق ذو الزيق الورقي قد أصبح الملك الجديد للمسرح الباريسي.

وأقبل ديماس على مملكته كأنما قد ولد للملك. فهو يوزع الابتسامات ويتقبل التكريم، ويستاف النجاح الحلو كما يستاف نسيم الفجر. ويكتب تمثيليات جديدة ويحظى بانتصارات جديدة ويغزو معشوقات جديدة.

ثم يقوم بمغامرة جديدة. فقد صار الكاتب محارباً. ذلك بأن شارل العاشر قد أصدر مرسوماً بخنق حرية الصحف فثار المثقفون الباريسيون على المرسوم، وانضم ديماس إلى الثورة.

وفي هذه الثورة كان نصيب ديماس من الصياح أكثر من نصيبه من الكفاح. وكان دوره في الحرب أشبه بدور الذبابة على عجلة المركبة. ولكنة يحظى بأن يغرق وجهه في العرق البارد. ويحظى بالنصيب الأوفى من التصفيق. قال له لافييت صائحاً وهو يعانقه (مستر ديماس لقد ألفت أعظم رواياتك).

فشكر ديماس لافييت على تحيته. وعرض عليه أن ينظم الفلاحين الفرنسين. وقبل لافييت ما عرضه ديماس، فازدان ديماس في ملابس صارخة الألوان (فهو كالأفريقيين يزدهيه البهرج) وحذاء لامع وسروال في اللون الأزرق الملكي وسترة قرمزية ذات أكتاف فضية وخوذة لها ريش أحمر متموج وشريط مثلث الألوان. ثم شرع يعمل مع مساعده وكان هذا المساعد مزوراً قد أنقذه من المشنقة. وخطب جماهير الفلاحين وأمتعهم وفشل فشلاً أليماً في محاولة تنظيمهم.

لقد فشلت الثورة تماماً ولم ينجح الثوار إلا في إسقاط ملك سيء وتتويج ملك أسوأ.

فغادر ديماس فشله السياسي إلى نجاحه الأدبي، فألف مسرحية.. أنطوني وهرعت باريس كلها تتماجن وتستمتع بقوتها التمثيلية والإباحية "يا إلهي ما أوقحه من مؤلف! وما امتعه من شاب!" وقد مزقت السيدات أطراف سترته في حماسة الليلة الأولى.

ويظل الزنجي الوقح الممتع بصدريته الزاهية، وأسنانه اللوامع، يدور على متن دوامة القدر. فيولد له طفل وتهجره عشيقة ويصاب بالهيضة ويؤلف مسرحية أخرى ناجحة.. ثم يشارك في ثورة فجة أخرى ويفر إلى سويسرا خشية أن يقبض عليه لأنه "جمهوري خطر" ثم يطمح إلى العمل في الكنيسة على حين بغتة ولم لا؟.. لقد خلقت المسرح الجديد فلا خلق في الدين مذهباً جديداً.

لكنه ترك الفكرة فجأة، كما قد أخذها فجأة. فهو ثائر لا ينسجم طبعه مع هدوء الكنيسة. وأن متع الأرض لأشهى من أن تستبدل بها وعود السماء. "وأني لأوثر أن أظل وثنياً وأدفع الثمن في الآخرة" وظل إلى آخر أيامه وثنياً يسلي الرجال، ويغوي زوجاتهم، وينتج مسرحياته، ويرفل في حلل المجد، ويواجه ما يلقي من نجاح وفشل بتهامل طيب كريم. يلقي المديح بهزة كتف، والإهانات بابتسامة.

ولكن إن صدر القدح عن حقد بالغ فهو أحياناً يمزج بابتسامته الحلوة شيئاً من الملح. كان شاب من الأشراف يباهى بأصله، ثم التفت إلى ديماس وهو يقول (حدثني الآن عن أصلك).

فأجابه ديماس (ولد أبي في الهند الغربية. وكان جدي زنجياً. وكان جدي الأعلى قرداً.. يبدو أن أسرتي قد ابتدأت من حيث انتهت أسرتكم). وقال له يوماً بلزاك منافسه المر في صالون أدبي محاولاً أن يخضد شوكة الروائي الشاب (حينما تستنزف مواهبي سأكتب التمثيليات) ففاجأه ديماس بقوله: (إذن فأكتب التمثيليات حالاً).

-٤-

في السادس من فبراير عام ١٨٣٢ ظهرت فتاة موهوبة من المونتبارناس تدعى (إيدافرير) في إحدى مسرحيات ديماس (تريزا) وبعد التصفيق الذي أعقب إسدال الستار الأخير ألقت الممثلة بنفسها بين ذراعيه (مسيو ديماس لقد خلقت شهرتي. كيف لي أن أرد جميلك يوماً ما؟) فقال لها (ليس أسهل من ذلك) وأرسل عليها ابتسامته التي لا تقاوم. وظلت سنوات عدة ترد عليه جميلة. ثم تزوجا، الأمر الذي دهش له الجميع فأسلم ديماس نفسه لحياة منزلية.. ورضي الوميض بالأغلال. لكن الأغلال كانت تتدلى على ظهره، ولا تلجم قوته المتهورة. فطالما كان يترك صاحبته ليغامر خارج المنزل.. وكان يسمح لزوجته في سماحة أن تبحث هي عن مغامراتها الشخصية في المنزل إذ كان شعاره (عش.. ودع غيرك يعش).

وأنه لدائم البحث عن مثيرات جديدة، وغرام جديد، وتهليل جديد. فإن أمجاده المسرحية قد بدأت تخبو. ونيران الثورة قد خمدت في العالم كله. فلابد لطاقته القلقة من سبيل جديدة. لكن أين؟ وكيف؟.

"آه.. لقد وجدت السبيل الجديدة في القصص التاريخي". لسوف يعيد الماضي الذي مات إلى حياة صاخبة. لقد مات والتر سكوت ملك الخيال فليحى الملك الجديد إسكندر ديماس، وشرع يعمل كالمحموم في روايته التاريخية الأولى الفرسان الثلاثة، وكان يعينه في البحث التاريخي **Augustc Maquet** وهو عالم له بصر بالحبكة القصصية أما ديماس فكان لا يعني بالحقائق الميتة ولكنه شديد العناية بحقائق التاريخ الحية فهو يقول (لا بأس من انتهاك حرمة التاريخ بشرط أن تنجب منه طفلاً).

وجعل يعمل في قصته لا يدركه التعب.. من السابعة صباحاً حتى السابعة مساءً. مرتدياً قميصاً بلا أكمام مفتوح العنق، وإلى جانبه وجبه غذاء لم يمسها في الأغلب. وإذا تصادف أن مر به زائر في ساعات العمل، لوح له بيده اليسرى محيياً بينما اليد الأخرى ماضية في الكتابة. كان يعمل دائماً في احتشاد هائل. لكنه احتشاد اللاعب، فهو يعيش مع أشخاصه ويحدثهم ويمازحهم. وقد جاء رجل من الإنجليز لزيارته فسمع ضحكة تنفجر من مكتبه فقال للخادم:

سأنتظر حتى يكون سيدرك بمفرده.

فأجاب الخادم إن سيدي بمفرده.. وإنما يضحك من فكاهة حلوة سمعها من شخص في روايته. كان يعيش مع أشخاصه نهاراً ومع إخوانه ليلاً، فإذا سأله الناس كيف استطاع أن يشعر بالمرح والنشاط بعد كده اليومي، أجاب بأن محصوله اليومي لم يكن كداً على الإطلاق (إني لا أؤلف رواياتي، بل أنها تؤلف نفسها في داخلي) لكن كيف ذلك؟ (لست أدري.. سل شجرة البرقوق كيف حملت إليك ثمارها) لقد أوتي موهبة الخلق، وموهبة الصداقة الغامضة والأشد ندرة. فهو يحتفظ دائماً ببيته مفتوحاً وقلبه مفتوحاً.

وكانت ساعة الغداء بمنزل ديماس تمتد من منتصف الساعة الثانية عشرة إلى منتصف الساعة الخامسة. وكان يقبل ضيوف جدد دائماً. وكان على الخدم أن يهرعوا إلى القصاب يشترون شرائح لحم جديدة. وإذا استطاع ديماس أن يستريح من عمله فهو يختلط بضيوفه بحرية. فكان يأتي من غير دعوة كثير منهم على الرحب والسعة، قال له صديق (أتتفضل بتعريفي بالسيد الذي هناك؟) فأجابه (كلا لا أستطيع فإني لا أعرفه) كأن كرمه أشبه بهوة ليست بذات قرار. وهو أبداً يلقي فيها بكل ما يكسب. فهو دائماً مدين. حتى لقد أصبح المحضر أشد ضيوفه مواظبة على زيارته وحدث مرة أن طلب إليه صديق المعاونة على دفن رجل مسكين مات لتوه، فأخرج ديماس من جيبه خمسة عشر فرنكاً وسأل: (ومن ذلك الرجل المسكين الذي مات؟)

محضر

فقال ديماس صائحاً إذن سوف تدفن محضراً.. إليك خمسة عشر فرنكاً أخرى.. ادفن اثنين منهم.

-٥-

وبينما جيوب ديماس يغيض منها المال ظلت شهرته تسمو من قمة إلى قمة. فهو ينتقل من تحويل التاريخ إلى قصص إلى تحويل القصص إلى تاريخ، فإن قصة (مونت كريستو) والتي شارك في كتابتها **Láaqust** هي من صنع الخيال الصرف لكن أشخاصه كذلك بهم من الحيوية ما جعل الهداة في مرسيليا حتى يومنا هذا يشيرون للزائر إلى بيوت **Mercedes Mosel** وصوامع **Edmond Dantes** ورئيس الدير **Floria** في قلعة **(IF)**.

لقد خلق ديماس من السحب والأبخرة مساكن قوية، ورجالاً أحياء. ولم يكن ديماس يهدف إلى الخلق، بل كان يهدف إلى الإمتاع. فمهمة المؤلف فيما قال إن يكتب في روح مستمتعة حتى يحيا أشخاصه مسرورين. ما قيمة أي فن ما لم يبعث الناس على المرح؟ لم يدع الشعر والعلم وإنما كان يهدف إلى البراعة في القصة. فإذا قال له أحد ظرفاء النقد أنك تكتب عن أحداث لا علم لك بها البتة– رد عليه ديماس بقوله: لو أني أدرس الأحداث فأنى لي الوقت اللازم لكتابتها؟. فكان (ماكيه) ومساعدوه الآخرون (وكان أعداؤه يتهمونه بإدارة مصنع المقصص يعمل بانتظام) يمدونه بالحقائق الجافة. وكان يأخذ هو هذه الحقائق ويعمل فيها نار الخيال وروح الحياة.

وهكذا جلس في مصنعه حتى أقبل ليل حياته الأدبية وكان أشبه بالراوية العربي، الذي يطيل سهر قبيلته تحت سماء البادية المزدانة بالنجوم. فإذا قاربت نهاية السهرة كانت كأس نجاحه قد مزجت بمرارة الحسد، ولكن هذه المرارة نفسها لم تخل من زهو. فهو إنما يحسد ابنه.. ذلك بأن اسكندر ديماس (الابن) قد كتب قصة غادة الكاميليا التي فاقت في شهرتها كل ما كتب أبوه فجعل كل من الأب والابن يحاول التفوق على صاحبه بأن يقدح في صاحبه ويحب صاحبه ويوشك أن يعبده، فيقول إسكندر ديماس الأب "لقد

أنجبت ولداً.. فاستحال إلي ثعبان" فيرد عليه ديماس الابن عابثاً "وأنا أنميت أباً فاستحال إلي طفل".

ظل حتى آخر حياته مستهتراً ضاحكاً مغامراً. ورغم تقدم سنه، وثقل جسمه لكثرة ما أصاب من مائدة النجاح. فقد ظل عقله هائجاً قلقاً على عهده فحيثما تنشب ثورة يقذف بنفسه وسط دوامتها، فقد استعد عام ١٨٤٨ لأن يقود الحرس الوطني إلى باريس، ولكن الحرس الوطني يرفض أن يتبعه وانضم عام ١٨٥٩ إلى حركة غار يبلدي ولم يكتف بالمشاركة بثروته التي بلغت ٥٠.٠٠٠ فرنك، بل عرض أن يهب حياته نفسهاً دفاعاً عن الحرية الإيطالية، وقبل بعد أربع سنوات أن يتولى قيادة الثورة اليونانية ضد الأتراك، ولكن يتبين له أن منظم الثورة (الأمير **Skandenberg)** رجل محتال. وكان نشاطه القلق دائم السعي إلى التعبير عن نفسه تعبيراً عملياً فلم يجد إلى الراحة سبيلاً.

ويعود إلى باريس وهو في عامة الثالث والستين، بعد أن زار إيطاليا للمساهمة في الثورة، فيقابله ابنه في المحطة في الساعة العاشرة ليلاً (لابد أنك متعب جداً بعد ما بذلت من جهد يا أبي، فدعني آخذك إلى المنزل!) فصاح ديماس الأب كلا، أريد لأرى جوتيير قبل أن آوى إلى فراشي، وأخذ ابنه غصباً إلى منزل صاحبه القديم. وكان المنزل موصداً حين بلغاه فأثار ديماس ضجة أيقظت جوتيير من نومه. ما الخبر؟

ديماس الأب وديماس الابن.

لكننا جميعاً في الفراش.

ماذا؟ في الفراش في تلك الساعة المبكرة، أقبلوا أيها الكسالى تيقظوا جميعاً وكانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً حين عاد الأب والابن من منزل جوتيير، ثم قال ديماس الأب (الآن يا إسكندر أريدك أن تأتي بمصباح) (لماذا؟) (لدي عمل أريد إنجازه) ثم ترك الابن أباه أمام مكتبه وذهب لينام. فإذا صحا بعد الفجر بزمن طويل وجد على المكتب ثلاثة مقالات تامة معدة لثلاث مجلات ووجد ديماس الأب يحلق ذقنه ويغني أمام المرآة. (كيف أنت يا أباه؟) (غض منتعش يا بني، كأني أقحوانة ندية) ثم يتبدى في عينيه بريق

وهو يقول "أترانا نحن الشباب يدركنا التعب في سهولة كما يدرككم معشر الشيوخ".

-٦-

وأخيراً يلقي شاب الثامنة والستين بقلمه جانباً ليستريح لا تعباً من مغامراته القديمة بل شغفاً بأن يجرب شيئاً جديداً، وكان قد فرغ لتوه من غرامه الأخير مع الممثلة الأمريكية (أدامنكن) وكان هذا الغرام عاصفة قصيرة سريعة انتهب بمأساة حين قتلت الممثلة في سقوطها عن ظهر حصانها. فذهب ديماس إلى منزل ابنه (بني لقد أتيت إليك لأموت) ولم ينبس بعدها ببنت شفة. فإذا هز صحابه رءوسهم وهم محزونين وهم يقولون إن ديماس قد أضمحل وانهار رد عليهم ابنه بقوله (أن عقلاً كعقل أبي لا يمكن أن يضمحل أو ينهار. ولئن رفض أن يحدثنا في لغة اليوم فذلك لأنه أخذ يتفهم لغة الخلود).

أهم مؤلفات ديماس

Les Trois Mousquetaires	La Reine Margot
Vingt ans après	L aDame de Monsoreau
Le Vicomte de Bragelone	Collier de la Reine
Monto Cristo	Impressions de voyage

فيكتورماري هيجو

١٨٠٢ - ١٨٨٥

كان فيكتور ماري هيجو عام ١٨٦٥ منفياً على جزيرة (جرنسي) فقد نفاه نابليون الأصغر من باريس لإسرافه في حب الإنسانية، فإذا كان التاسع والعشرون من إبريل من تلك السنة جاءه خطاب.. إذ كان الرجل ذائع الشهرة جداً بعنوان فيكتور هيجو، بالمحيط. وبعث في نفس اليوم مع وزير أمريكا في بلجيكا بخطاب موجه إلى "مواطني من أبناء العالم" وقد أعرب في هذا الخطاب عن حزنه على مقتل لنكولن (لقد ارتج العالم كله لذلك الهول الذي أصاب وشنطن) ثم يختتم المنفى خطابه بتوقيعه (مواطن مخلص في جمهورية البشر).

وإن من الناس من يعتبر فكتور هيجو وأبراهام لنكولن بمكان العقل والقلب من القرن التاسع عشر.

-٢-

ومن عجب أن الطفل الذي شاء له القدر أن يكون أكثر الجمهوريين الأوروبيين تحمساً قد نشأ على تقديس الملكية. فقد كان أبو فيكتور هيجو قائداً في جيش نابليون وحين بلغ فيكتور عامه الحادي عشر رأى نابليون خلال شوارع باريس راكباً. ما راعتني إذ ظهر الإمبراطور واشتملت على تلك الرهبة المقدسة ضجة الجمهور الصاخب الذي يسير وراءه يردد الأناشيد الجماعية، وإنما راعتني رؤية الإمبراطور يتحرك صامتاً شجاعاً كأنه آلة من البرونز. وظل فيكتور هيجو حتى بعد اكتمال نصجه يرى في أباطرة فرنسا أنهم قد شاركوا البرونز صلابته وشاركوا الله جلالته.

وقد جاءه حب الإمبراطور من طريق أمه أكثر مما جاءه من طريق أبيه. إذ كانت السيدة هيجو تنتعل دائماً حذاء أخضر.. لأن الأخضر يرمز إلى ملوك فرنسا. وكان

الأخضر أيضاً لون عيني مدام هيجو. وكانت هذه السيدة غيوراً على زوجها دائماً، وكان زوجها غيوراً عليها دائماً.. وكان لهذا وذاك سبب فحياتهما الزوجية كانت سلسلة تتعاقب فيها المصالحات والانفصالات.. وجود نساء غريبات في بيت الجنرال هيجو ورجال غرباء في منزل مدام هيجو. أما فيكتور فكان يعبد أباه وأمه جميعاً.. رغم أن حياة أبويه المضطربة قد جرت على طفولته تجوالاً لا يستقر من باريس إلى بوردو، ومن بوردو إلى سجوفيا، ومن سجوفيا إلى مدريد، ثم عود من مدريد إلى باريس.

وكان من أثر هذا التجول أن جاءت تربية فكتور الصغير تربية مهوشة.. فقد أصاب معلومات من هنا ومن هناك يعوض تشعبها ما يشوبها من سطحية.

قال صديق لأمه (هذا الطفل يعرف القليل عن كل شيء) فأجابت أمه (نعم يعرف القليل القيم عن كل شيء).

وهكذا جعل يتنقل من مدرسة إلى مدرسة. يستاف عجلاً رحيق هذه الزهرة ورحيق تلك.. حتى وصل في عامه الثالث عشر إلى كشف عظيم هو شعر فرجيل فترجم الأنشودة الأولى لفرجيل وكوفئ على ذلك بضرب صبه عليه مدرس له فقد فرغ ديكوت لتوه من ترجمة نفس الأنشودة التي ترجمها هيجو فكيف يجرؤ هذا المبتدئ الصغير على منافسته. فجفف فيكتور عينيه.. ومضي لشأنه. فنظم أغنية في مسابقة مدرسية.. لم يكن ديكوت من المحكمين فيها فنال الجائزة الأولى وكتب ملحمة وتمثيلية وقصة فشرف بتلقيبه الطفل الأسمى.

وبرهن الطفل الأسمى على أنه قد نضج قبل أوانه، لا في الأدب وحده، بل في الحب أيضاً، فهو في سن السابعة عشرة يخطف فتاة في السادسة عشرة هي: (اديل فوشير) "أتذكرين يا أديل؟ لقد كنا في السادس والعشرين من إبريل ١٨١٩، حين جلست عند قدميك ذات مساء. فطلبت مني أن أفضي إليك بسري الأعظم، فاعترفت مرتعشاً بأني أحبك، فلما سمعت جوابك يا اديل العزيزة وجدت في نفسي أسداً جسوراً".

وتزوجا بعد عامين فما أبهاهما من زوجين. هذه الفتاة ذات العينين السوداوين

الجريئتين والبسمة الشقية، وهذا الفتى بفم الشاعر وجبين الجندي. وما أمتعها من حفلة زفاف! كانت مناسبة فاضت بالعسل، واللبن، والزهر، والفاكهة، والضحك والحب!.

غير أن الحفلة قد ترددت فيها نغمة ناشر واحدة، فقد اقتحم الحفل رجل يحمل فأساً. وسار صوب العريس لا يلوى على شيء، واستطاعوا أن يحولوا بينه وبين ما يريد. يا له من مجنون، أنه أوجين أخو فكتور الأكبر أصابه من الغيرة مس... فقد كان هو أيضاً يبغي الزواج من (أديل).

وكان المشهد العاصف ليلة الزفاف مقدمة حياة عاصفة لفكتور، فصارت الريح تهب عليه تارة بالسرور وتارة بالأسى في عدل واستواء، فهو يكتب ديوان شعر ناجح وتمثيلية ناجحة، ويحظى بإعجاب الجمهور وثناء النقاد، ويمنح شريط الليجيون دونير، ويولد له طفل لا يلبث أن يموت وتموت أمه.

وتنكشف له خيانة من صديق كان أعز عليه من أصدقائه جميعاً. ذلك هو الناقد سانت بيف الذي انقلب عليه.. إذ حاول مع زوجته أمراً لم تقره عليه.. كانت هذه الفكرة المرة تملأ شغاف قلبه حين حضر افتتاح مسرحيته (ارناني) وكان عرضها حدثاً عظيماً. فقد كتب لتمثيلية "هيجو" هذه التي تحررت من التقاليد، أن تكون فاتحة الجهاد بين الابتداعيين والإتباعيين بين نار الجديد ورماد القديم. فقد تحدى هيجو خصمه إلى منازلته إذ يقول "في هذه المسرحية تحطيم أي تحطيم لكل النظريات وفنون العروض والمذاهب إني أمسح عن وجه الجمال ذلك الطلاء العتيق الذي كان يحجبه، فلن تكون قواعد ولا نماذج بعد الآن".

ومثلت المسرحية في ضجة يختلط فيها الاستهزاء والاستحسان. فإذا أسدل ستار الختام، تغلب هتاف الاستحسان. وتطلع النظارة كلهم في حماسة فائقة إلى ملك القصص المتوج الجديد. ولكن هيجو لا يشعر بعاصفة الإعجاب فعيناه معقودتان بالشرفة التي يجلس فيها سانت بيف ناظراً إلى (أديل) لا يتحول عنها.

-٣-

وألحف هيجو على سانت بيف في الرجاء، فوعد سانت بيف ألا يرى (أديل) بعدها قط، إلا أنه لا يفي بوعده. بل يصر على مقابلتها والكتابة إليها.. مخالسة كما حسب، ولكن الأمر لم يفت على هيجو، وحاول هيجو أن يندمج في عمله لينسى أساه. فكتب قصة (نوتردام دي باريس) وقد بدأها في ٤ سبتمبر عام ١٨٣٠ واشتغل فيها متحمساً كالمحموم خلال الخريف وأوائل الشتاء، وأتمها في الخامس عشر من يناير. إنها قصة معبد مقدس، هو بناء حجري له روح حية ويقول المؤرخ الفرنسي مشيلت "لقد أقام هيجو إلى جانب الكاتدرائية القديمة، كنيسة نوتردام، كاتدرائية للشعر تعد لها رسوخ قدم وشموخ أبراج".

ثم يختلف عليه تصفيق الإعجاب وعذاب القلب والعمل. ثم يقع في غرام جديد.. مع (الطير الناري) جوليت الممثلة الحسناء التي عبث بجسمها كثير من الرجال، ولكنها تكرس قلبها الآن لرجل واحد. وتظل خمسين عاماً هائمة ولهى بفيكتور هيجو.

وظل فيكتور هيجو هائماً ولهان بجوليت لا عن زهادة في حب (اديل). فإن هذا الحب قد بقي ولم يزل.. ولكنه صار أشبه بحب الطفل لأمه منه بحب الزوج زوجته. ولعل (اديل) قنعت بهذا اللون الهادئ من الحب. فقد كان شعورها نحو هيجو.. ونحو سانت بيف، شعوراً أفلاطونياً دائماً لا تملك فيه ولا حيازة. فالحب عندها شمس مائلة فهي تستمتع بدفئها المتحرر قانعة بالبقاء بعيداً عن وهجها العمودي.

وأما غرام هيجو وجوليت، وكانت لا تخلو هي أيضاً من لمحة الشعر، فكان أشبه بلهب قاهر غلاب، فهما لم يعرفا قط ذلك الشعور بالشبع والملالة من الحب. وظل طوال نصف قرن، بعد ليلتهما الأولى يستجيب لخمر قبلاتها (إني أقبل جسمك وروحك، أنت الجمال وأنت النور، وإني لأعبدك).

وكانت جوليت معبودة هيجو تلك، طفلة لا اسم لها من أطفال الشعب. كانت لقيطة وهي عند هيجو ترمز إلى كل لقطاء العالم. وكان من أثر حبها إياه أنه تحول تدريجاً من بوربوني إلى برجوازي، ومن ملكي إلى اشتراكي. ويعلن أنه منذ الآن سيصدر في حياته

عن إخلاص مشفق للمنبوذين، فلسوف يستخدم كل ما أوتي من قوة–كما قال– في الدفاع عن المستضعفين. وظل هذا مبدأه الذي يترسمه حتى آخر أيامه. فهو ينضم إلى صفوف الشعب في ثورتي ١٨٣٠، ١٨٤٨ وهو بهذا لا يخاطر بسمعته وحدها بل وبحياته نفسها. فهو في ثورة ١٨٤٨ يحارب فوق المتاريس (لقد قتلني الإجهاد فقد قضيت ثلاثة أيام ولياليها يقظان في وسط المعمعة وليس ثمة فراش، ولا طعام ولا شراب غير النزر اليسير، وليس من طريق للراحة غير الجلوس على الرصيف لحظة بين الحين والحين).

وبينما هو خارج منزله قائم عند المتاريس، إذ هاجم منزله من يدافع عنهم من الناس، وجعلوا يتنقلون من حجرة إلى حجرة، يحطمون ويمزقون ويكسرون، حتى بلغوا حجرة مكتب فيكتور هيجو، فرأوا شيئاً على مكتب عالٍ قرب الشباك، إذ كان هيجو يكتب دائماً وهو واقف، رأى المهيجون عدداً من الأوراق مبعثرة.. وكان زعيم المهيجين مدرساً سابقاً يدعى (جوبير) فألقى نظره على الأوراق، إنها بداية قصة. ثم نظر إلى صحيفة العنوان.. ليس اسمها سيئاً، فسأل أحد رفاقه ما اسم القصة؟ (البؤساء).

–٥–

بدأ هيجو كتابة (البؤساء) في باريس، وأتمها في (جرنسي) وهي الجزيرة التي نفي إليها لمناهضته طغيان نابليون الثالث. وظلت عاصفة أقداره تلاحقه، فجعلت الحياة والموت يتبادلانه ضماً ولكماً، فهو يختار للأكاديمية، وتغرق ابنته (ليوبولدين) عند مصب نهر السين، ويعترف به شاعر فرنسا، وتموت له ابنة أخرى قبل الآوان، ويحج إلى مزار جزيرة القديس، ثم يصيبه غرام تعس يتبعه جنون ابنته الثالثة. هكذا جرت الأحداث التي حفت بتأليف (البؤساء).

فإذا كتب ملحمة الأسى البشري هذه، ربت الله على كتفه وأحال بصره من الأرض إلى السماء (لقد دعتني الأرض شاعراً.. فجاوبتها السماء بل نبياً). فهو من خلال شقائه قد صار نبي الألم (لقد واجهت رهبة الموت.. فوجدت فيما يليها زهرة الحياة.. زهرة الحياة

أمل من لا أمل له، إنجيل المتواضعين المستضعفين. عطف الله وحدبه على كل مخلوق معذب).

هذا هو موضوع (البؤساء) إحالة العذاب رحمة، وإحالة الرحمة حباً. وكان كتاباً ثائراً صاخباً عطوفاً. استشرى في العالم ناراً جائحة، فقد حاصر الباريسيون مكتبة (بانيير) في السادسة صباحاً من يوم نشره، وما هي إلا بضع ساعات حتى كانوا قد مضوا بخمسين ألفاً من نسخ الكتاب، وهتف بفكتور هيجو الذي أسر وحده على صخرة (جرنسي) المواطن الأول للعالم، وتلقى المواطن الأول أمجاده في اعتداد متواضع.

وأخذت سنة تصغر كلما مرت السنون (فتحت شعري الأبيض يعيش حب ربيع الحياة فالنور لا يعرف الشيخوخة). لقد صار من الجبابرة في الاحتمال الجسمي والعقلي فهو يستيقظ عند الفجر ويندفع في البحر. ثم ها هو ذا واقف قبل شروق الشمس أمام مكتبه. ويصيب قدراً من الراحة بعد الظهر مع أقلام الرسم، فهو يحب النقش قدر ما يحب الأدب. ثم يسير في نزهة طويلة على شاطئ البحر ليستمتع بالشمس ورشاش الماء الذي تذروه الرياح.

وهو لا يستخدم قط عصا يستعين بها في مسيره فوق الصخر، ولا مطلة تطله من المطر. فهو لا يخشى الحر أو البرد (أني خالد لا أموت ولا يستطيع شيء إيذائي..) وكان أكالاً أكيلاً. فهو يجهز على عدة صحاف من اللحم في جلسة واحدة. وقد مرت به أيام كان لا يرد جوعه دجاجتان.

نهم في أكله، نهم في تفكيره، نهم في قبوله أحزان الحياة ومسراتها على الحزن إلا مقدمة السرور ولو أننا دربنا آذاننا على استماع سمفونية الحياة لتبين لنا أنها تنتهي بنغم جميل.

واجه في هذا الاطمئنان المطلق موت اثنين من بنيه وموت زوجته (أديل) وفي هذا الاطمئنان واجه الغزو الألماني لفرنسا عام ١٨٧٠ وكان حينذاك قد عاد من منفاه بجرنسي (كل امرئ إلى الجبهة أيها المواطنون لتنهض المدن عن بكرة أبيها. ولتشعل النار

في كل الحقول. المدن المدن المدن. أنشئوا غابات من الحراب. ضاعفوا من رماحكم وأعدوا مدافعكم. وأنت أيتها القرية ارفعي مشعلك على كل رجل غنياً كان أو فقيراً عاملاً كان أو فلاحاً أو كاتباً أن يحضر معه أو يلتقط من الأرض كل ما يشبه السلاح أو القذيقة. جروا الصخور وكوموا أحجار الرصف. أحيلوا الأخاديد إلى خنادق. اقتلعوا الأحجار من أرضنا المقدسة اقذفوا الغزاة بعظام أمنا فرنسا).

ثم ينبعث من عينه ضوء ينبئ بالمستقبل (لا تخشوا هزيمة اليوم بل كونوا قلباً واحداً ويداً واحدة تعمل لهدف واحد هو النصر في النهاية).

وبهذا الإيمان نفسه. الإيمان بنبالة الأسى البشري. وبتوجيه الكد البشري إلى هدف محدد كتب قصة من خير قصصه عنوانها (الكادحون في البحر) وهذا موجز لها غير واف:

تنشأ صداقة بين (ليتيري) عم دروشت الساحرة وولي أمرها وبين المغامر (رانتين) ويرد رنتين على مودة ليتيري بأن يسرق منه ٥٠.٠٠٠ فرنك، وكان هذا المبلغ هو كل ما ادخره ليتيري طيلة أربعين عاماً وكان مخصصاً ليكون صداق (درشت). وتصير دروشيت وقد صار يتعبدها فتى في صمت. ذلك هو جيليات وهو شاب لا ريب في شجاعته، وإن حفت بميلاده الريب. وكان يتعبدها على البعد، ولكنه يشعر أنه أهون من أن يفاتحها بحبه.

وينقذ جيليات قسيساً من الغرق ذات يوم، فيهبه القسيس جنيهاً، فيرفض جيليات ويقبل الإنجيل حين يعرضه عليه، فينشأ موقف طريف، فتاة حسناء صداقها قد سرق، شاب ذو مركز وضيع يحب الفتاة حب المستيئس، وشاب آخر أرفع مكاناً وأرقى تعليماً. هذا هو الثالوث الذي لا مفر منه، لكن فلنمض في سبيلنا لنرى كيف يمضي المؤلف في تنمية موضوعه وكيف يحكم الوشائج بين مصائر هؤلاء الشبان الثلاثة ومصائر غيرهم من الناس.

وكان لليتري عم (دروشيت) زورق بخاري يدعى الدوراند يقوده الربان كليبان وكان ليتري قد فقد كل سفنه الأخرى وانحصرت كل آماله في الدوراند وربانها، وكان الربان رجلاً أميناً يستحق ثقة سيده فيه، قابل في إحدى رحلاته المحتال رانتين الذي سرق مال

ليتري والذي كان على وشك الفرار من البلاد بثروة تقدر بخمسة وسبعين ألف فرنك، فيضطره وقد شهر عليه الغدارة إلى أن يسلمه المال ثم يقلع إلى ليتري ليعيد المال إليه.

وهنا يزيد المؤلف في تعقيد القصة ليطيل خيوطها فتتحطم الباخرة دوراند فيرسل كليبان ركابها إلى الشاطئ في القارب الطويل وينتظر الموت في هدوء فوق السفينة الغارقة. لقد كادت تتحطم الآمال التي وضعها ليتري على مستقبل دروشت فقد خسر الدوراند ولم يبق منها شيء عدا الآلات التي كان ليتري نفسه قد رسم تصميمها. ولو أنه أستطاع فقط أن يستعيد الآلات إذن لأمكنه بناء سفينة أخرى حولها وقد تعود الحياة سيرتها، فهل من أحد يستطيع إلى الآلات سبيلاً؟

لو أستطاع ذلك أي رجل فله يد دروشت. فينبري أحد الناس لهذا العمل الذي يكاد يستحيل نجاحه. ذلك الرجل هو (جيليات). فيهرع إلى حطام السفينة. وكان تحت هوة في القناة. وكان بلوغه يستلزم النزول تسلقاً على حبل معقد وكان عملاً فوق طاقة البشر أداة في جسارة بالغة. وجعل يكد يوماً بعد يوم ويتحمل الجوع، إذ قد أطاح البحر بجزء من قوته الذي أحضره معه. فهو يعيش على الأصداف والسلطعون (ضرب من النبات) حيثما أستطاع استخراجهما.

وذات مرة كان يخوض ماء ضحلاً في أحد الكهوف فهاجمته سمكة ضخمة. غير أنه نجا بأعجوبة.

وهكذا يظل جيليات كادحاً كأنه رمز لكل أولئك الآدميين الكادحين الذين يجهدون ويشقون ويأملون أن يفضي بهم جهادهم إلى مرفأ الأحلام.

ثم يشرع المؤلف يعدنا لقمة الحوادث. فيأخذ جيليات إلى مسارب الكهف النائية فيعثر على هيكل لعظام رجل. ويستطيع جيليات أن يتعرف على صاحب الهيكل بفضل منطقة تحمل إسمه. فهو هيكل ربان السفينة، كليبان. وكان قد ربط في المنطقة ربطاً محكماً صندوق حديدي به خمسة وسبعون ألف فرنك فيأخذ جيليات المال ويعود كادحاً. ستأخذ دروشيت صداقها ويأخذ ليتري آلاته ويستطيع جيليات آخر الأمر أن ينقذ

الآلات ويستعد للمكافأة التي وعد، وهي يد دروشيت.

يقترب في المساء من المنزل الذي تقطنه الحسناء فيسمع بلبلاً يغني. وكانت أغنية تصدح في قلبه كذلك. كانت دروشيت في الحديقة لكنها لم تكن وحدها فإن معها القسيس الشاب الذي أنقذ جيليات حياته وكانت دروشت والقسيس يتعانقان. فينكص جيليات على عقبيه ويتركهما لهواهما. وتتزوج دروشت من حبيبها ويبحران إلى إنجلترا فيقف جيليات يرقب السفينة على صخرة تقع على حافة الماء فيرتفع المد ويصل إلى ركبتيه ثم فوق رأسه. وهكذا تنتهي حياة أحد الكادحين في البحر.

لكنه قد نال مكافأته. فهو إلا يكن قد كسب يد دروشت، فقد كسب ما هو أهم من هذا بكثير، وهو سعادة دروشت.

-٥-

نحن في العيد الثمانين لميلاد هيجو. فنسمع أحد أصدقائه ينادي "زهور لابد من الزهور" ونرى الطريق المرح الذي يمتد بين نيس وباريس وقد حفت بجانبيه أحمال عربات وقطارات من الزهر، وطغى الزهر على منزله حتى طمره فعلاً، ويرى خمسون ألف طفل، هم أزهار حية جميلة. يغنون ويرقصون تمجيداً للجد هيجو. ويمشي في طرقات باريس نصف مليون من العمال يرددون النشيد المفضل عند هيجو (المارسييز).

وأعقبت ذروة نصره هوة أساه، فما كاد يحتفل بعيده الثمانين حتى ماتت أعز صاحباته (جوليت) "إنك أن مت فإني مقيم على حبك" كذلك كتب إليها قبيل النهاية "ولو أنني مت لأقمت على حبك برغم ذلك.. هل مت.. إذن ينبغي أن أموت.." وبموت جوليت انتهت معيشة هيجو على الأرض، وأخذ يتوق إلى حياة وراءها أعظم منها، ولم يكن يخامره أدنى شك في عظمة تلك الحياة.

"فلو أني موشك على سحق نملة، فرأيتها قد ضمت كفيها البائستين في ضراعة لترفقت بها. فلماذا لا يرحمني الله إذن. إني لأتوسل إليه أن يهب النعيم المقيم لك.. ولي.. وللجميع..".

"ولم يكن هيجو وحيداً مع أنه فقد حبيبته، وحليلته، وأبناءه جميعاً عدا واحدة هي اديل التي كانت مصابة بجنون لا برء منه فقد كان يعيش بين أحفاده كان أشبه بشجرة البلوط يحيط بها نطاق من شجيرات صلبة. فإذا أوشك على تلقي دعوته إلى السماء قال لهم "يا ملائكتي الظرفاء إني راحل عنكم، فأنا أشعر أن الله يناديني فأنا أذهب لأرى ثانية صغاري الآخرين الذين في السماء إنكم لن تروني ثانية، لكن سأكون معكم دائماً، قريباً إليكم، أقرب إليكم مما أنا الآن، وسأباركم كما أفعل الآن".

ومات في ٢ مايو وهو يوم سانت جوليا، يوم يحمل اسم جوليت، وكان أصدقاؤه يتوقعون أن يدفن في حفل رسمي غير أنهم لم يدهشوا حين سمعوا رجاءه الأخير.

(أريد أن أمنح ٥٠.٠٠٠ فرنك للفقراء.. وأريد أن أحمل إلى القبر في عربة الفقراء) وكتب في نهاية هذا الرجاء عبارة بسيطة تعبر عن إيمانه (إني أرفض الصلوات التي تؤدى في كل الكنائس فإني أؤمن بالله)

أهم مؤلفات هيجو

Marion Delorme **Notre-Dame de Paris**
Les Le Roi S’amuse **Les Misérable**
Ruy Blas Les Burgraves **Travailleurs de la Mer**
Hernani

وعدد كبير من قصائد الشعر المسرحي والغنائي

جوستاف فلوبير
١٨٢١- ١٨٨٠

في عام ١٨٤٠ أقبل إلى باريس لتعلم القانون شاب غريب فيه حياء، وفيه فظاظة، فيه وسامة وفيه إهمال، فيه كبرياء وفيه حساسيه وسلاطة، هو في عامه الثامن عشر يبدو كأنه أفريقي في قميص من الفانلة الحمراء ومعطف أزرق، وهو صموت، فإذا فتح فاه خلت أن لسانه كان منقوعاً في برميل من الخل، فهو يبدي احتقاراً للتقاليد، ويرى حماقة بالغة في كل الناس بما فيهم هو، "إن أول جاهل يقع عليه بصري هو أنا إذا ذهبت إلى المرآة في الصباح لأحلق"، ويردف قائلاً: "وآخر من أرى من الجهال هو أي شخص يتفق لي أن أحدثه قبل أن آوى إلى مخدعي".

من ذلك الشاب العجيب؟ إن بالطلاب فضولاً إلى معرفة من يكون.

إنه فلوبير، جوستاف فلوبير، ابن كبير الجراحين بمستشفى روان، ولقد قال أحد الطلاب لفلوبير سائلاً (لا شك في أنه مما يفيض على نفسك السعادة الفائقة أنك ابن رجل عظيم ذائع الشهرة).

وأي سعادة في ذلك؟

(كيف! فكر في كل هذه الأرواح التي ينقذها) فأجاب فلوبير في تهكم.

(إن أبي ينقذ الأغبياء صوناً لما يأتون من حماقات).

-٢-

كان غريب الأطوار منذ نشأته الأولى، فهو دائم الاهتمام بالجانب الأربد الكئيب من الحياة، فهو يتسلق إبان طفولته جدار مستشفى أبيه، ليشهد الجثث في قاعة العمليات، وكان مفتوناً بوجه خاص بالمجانين والمعتوهين، وكان يتوهم أن المجانين والمعتوهين يبادلونه الافتتان. وكان دقيق الملاحظة بطبعه فما كاد يتعلم الكتابة حتى بدأ يقيد لمحات

عن الناس. وشب ابن مشرح الجسوم البشرية مشرحاً للأرواح البشرية. فهو منذ صغره يؤلف التمثيليات ويمثلها مع أخته على مسرح منزلي هو مائدة الطعام، ولم يقنع بمسرحياته فكتب قصة ومقالين علميين أحدهما عن كورنى والأخر عن الإمساك، كتب كل هذا قبل أن يصل إلى الحلقة الثانية من حياته.

لكن كان عليه أن يستخفى من أبيه حين يكتب.. لأن دكتور فلوبير كان لايقبل بتاتاً أن يحترف ابنة الأدب. وحين حاول جوستاف أن يقرئه إحدى روائعه أدركه النوم. فهو يتوق إلى أن يجعل من جوستاف جراحاً ماهراً مثله ومثل أشيل (أخي جوستاف) فنحن آل فلوبير أسرة محترمة ولا نحب أن يكون بيننا أفاقون ولا شعراء. ولذا أرسل جوستاف إلى مدرسة محترمة وظل ثماني سنوات يحلم ويرقب ويكتب ويهزأ برفاقه الطلبة ويصاحبهم، لأنه في قرارته روح وديع، شأن معظم قساة الساخرين، فإذا كان عامه الثامن عشر أخبر أباه في بساطة أنه لن يكون طبيباً.

وكان أبوه مستعداً لأن يتساهل معه "إذا لم تشأ أن تكون طبيباً فلتكن محامياً، وأرسله إلى باريس ليدرس القانون.

ولكن جوستاف كان عنيداً "إني بربري عندي عناد البرابرة"، وحب البرابرة للمغامرة "إني من نسل قراصنة صقليين"، فسيغدو قرصاناً روحياً أفاقاً باحثاً عن ذهب العبارة الرائعة "إني لأنوي أن أكون أديباً لا شيء غير ذلك" ...

فيئس منه أبوه كما ييأس من حالة مرضية لا رجاء فيها، وتنفس جوستاف الصعداء. فهجر كتب القانون والتفت إلى دون كشوط "إنجيل الحماقة البشرية"، وصار هذا الكتاب المصدر الأول لفلسفة فلوبير والمبدأ الرئيسي الذي يؤمن به "ليست كارثة البشر أنهم أوغاد، بل أنهم حمقى".

وكتب بهذه الفلسفة عدداً من المسرحيات والقصص تتناول نواحي الحياة الربداء القاتمة، منها قصة رجل فقد روحه تماماً، ومأساة مذهول يدفن حياً ويموت مجدفاً بالقدر، ومغامرات مخلوق أمه من الآدميين وأبوه من النسانيس، وقصص عجيبة فجة كتبها لمجرد

إمتاع نفسه وإمتاع أصدقائه.

وكان أصدقاء فلوبير هؤلاء أكثر منه تشاؤماً. "وكنا مجموعة من الشباب الهاذرين نحيا في عالم عجيب. ونضرب في طريقنا المألوف بين الجنون والموت".

وقد انتحر بعض هؤلاء الشباب، ومات آخرون في فراشهم، وشنق أحدهم نفسه برباط عنقه، وأقبل كثير منهم على الشراب ابتغاء الخلاص من أفكارهم.

ولكن فلوبير يستطيع الاحتفاظ بتوازنه، فلا يجن ولا ينتحر، وكان الفضل في ذلك لثلاثة من أصدقائه التقليديين، أرنست شيفاليير، والفرد ليثورتفين وماكسين كامب.

وبينما كان لجوستاف اهتمام متشائم بالأدب والموت كان لهؤلاء الشبان الثلاثة اهتمام مخلص بالأدب والحياة، وكان شيفاليير يجمع في شخصه بين الشاعر والسياسي. إذ كان رجلاً رأسه في السحب وقدماه على الأرض. وكان ليبورتفين ابناً لتاجر ناجح، وقدرنه شخصياً أن ينجح في أعماله. ولعل من الطريف أن تعلم أن ليبورتفين خال موباسان.

وأما دي كامب محرر مجلة باريس فقد نصب نفسه مرشداً لفلوبير وهادياً، لا في مضارب الخيال وحدها، بل وفي مسالك العالم أيضاً.

فأخرج فلوبير من عزلته وأغراه بمقابلة الناس واستصحبه في رحلته إلى المشرق عام ١٨٤٩.

وكانت هذه الرحلة إلى المشرق من الفصول الممتعة في حياة فلوبير (لن أنسى قط تلك التجربة.. هذه الألوان والأصوات التي سمعتها في مصر وعلى ضفاف النيل، وفي سوريا، وفلسطين، ومالطة والقسطنطينية) وفتن بالأهرام افتتاناً خاصاً (حين بلغنا سفح التل الذي تقوم عليه هذه الأهرام أطلقت حصاني كالإعصار. وفعل دي كامب مثل فعلتي، فلما وقع بصري على هذه العظمة دار مخي كما تدور الدوامة، وكنا وقت الغروب وقد تبدت الأهرام الثلاثة كلها في لون وردي وكأنها غرقى في بحر من الضياء).

ثلاثة أهرامات وثلاثة أصدقاء وعشيقة واحدة. وكان قد لقي لويز كولت، وهي الفتاة التي عشقها، في معرض الفنان براديير. وكانت شاعرة هزيلة الموهبة جليلة الحسن.

ولم يتحمس كثير من أعلام الأدب في باريس لجمال شعرها، ولكن شعر جمالها يلهبهم ويأسر قلبهم. وكان فكتور هيجو محزوناً لبتر ذراعي فينوس ميلو فذكرت له لويز أن ذراعي التمثال الشهير قد عثر عليها.

فسألها هيجو دهشاً أحقاً عثر عليهما؟ أين هما؟ فأجابت "تحت كمي".

لقي فلوبير الخجول هذه الحظية الشابة الجريئة فأسلم إليها قلبه وعقله وقدرته كلها على التمييز بين الأشياء. "إنها ليست أجمل نساء باريس وحسب بل هي أذكاهن كذلك" كذلك قال في عمى العاشق وغفلته.

لكنه لم يبن بها قط، لسبب واحد هو أن أمه كانت قد رفضت مثل هذه الزيجة فأبوه كان قد مات، ويقيم فلوبير الآن مع أمه في (كرواسى) على مقربة من روان، وكانت مدام فلوبير سيدة ضئيلة عصبية المزاج تحب ابنها حباً أثراً (فلن تشركني فيه امرأة أخرى، ولو كانت من ملائك الجنة)، ولكن فلوبير كان يبغض الزواج هو أيضاً. فهو لا يضن بأي غالٍ لديه إلا أن تستأثر بجسمه امرأة. فجسمه ذاك ليس غير خيال نفسه، فهو كان يعيش في عالم الأفكار لا عالم الأشياء وهو القائل (لم يحدث قط أني احتضنت امرأة حقاً، ولا لويز نفسها وكل ما انضمت عليه ذراعاي إنما كان خيال الحب وليس الحب نفسه).

ومع ذلك فقد كان خيال الحب ذاك من القوة بحيث أثر في طريق حياته كلها. فهو يجود أسلوبه الأدبي بإلهام لويز ويقدم على كتابة سلسلة من القصص قدر لها أن تقفز به إلى الصف الأول من بين الخلاقين في أدب العالم.

ومع ذلك فإن وحي الحب وإخلاص الصداقة لم يكونا غير أخيلة عابرة في عالم أفكاره... ذلك أن فلوبير رجل متوحد أساساً، يحيا مع أفكاره في خلوة. فهو يقطع ما بينه وبين لويز وما بينه وبين أصدقائه الثلاثة. وينسحب إلى خميلة عبقريته. وكان سليط اللسان سليط القلم. فإذا تقدم إليه دي كامب بنصيحة عملية بشأن نشر كتبه حمل النصيحة

على محمل الإهانة (إني لا ألومك على نشر تواليفك. وأشكرك على النية الطيبة التي صدرت عنها نصيحتك في شأن نشر تواليفي.

ولكن جنونك يبعثني على الضحك، لقد اختلفت المسالك بك وبي فنحن لا نبحر في قارب واحد. فليهد الله كلامنا إلى حيث شاء. فيحملك إلى مرفأ أمين ويقذف بي في عرض البحر).

وهكذا ترك صحابه وخلصاءه وعشيقته، ووجه قاربه نحو منفسح البحر الطليق. بحر حياة أدبية عنيفة لا تهدأ.

-٣-

كان فلوبير في أدبه مزيجاً نادراً من الكاتب الخيالي والواقعي، فهو يقول عن نفسه: إني لأنطوي على رجلين متميزين، أحدهما يحب الضوضاء والإنشاد والتحليق كما تحلق النسور، ويحتفل برنين الديباجة وذرى الفكر السامقة. والآخر يبحث عن الواقع ويوغل فيه أعمق ما يستطيع، ويحفل باستخراج الحقائق الصغيرة كما يحب استخراج الحقائق الكبيرة، ويتمنى لو يضع يدك على ما يخرج من الأشياء هذا الشخص ينعم بالضحك ويستمتع بحيوانية الإنسان.

كان فلوبير طوال حياته يتأرجح بين عالمي الخيال والواقع. كان أحياناً يحلق إلى ذرى الخيال وأحياناً أخرى يسف حتى يوغل في وحل الوجود المادي.

ومهما يكن العالم الذي يتفق له أن يعيش فيه الآن، فإنه يتوق أبداً إلى العيش في عالم آخر. فهو لا يتحدث قط عن الكتاب الذي يؤلف، بل هو دائماً يتحدث عن الكتاب الذي سوف يؤلفه بعد هذا، فكانت سلسلة مؤلفاته لذلك تعاقباً متصلاً مطرداً بين الواقعي والخيالي: مدام بوفاري. التربية العاطفية إغراء سانت آنتوني. بوفارو بكيشيه. ولم يكن هذا التعاقب مجرد اتفاق، بل جاء نتيجة صراع داخلي دائم بين الفنان والعالم، الشاعر والساخر القاسي، مواسي البشرية ومزدريها.

لكنه كان دائماً فيما يكتب الفنان السامق، وهو يهتم باللفظ أول ما يهتم. فاللفظ

عند فلوبير ليس مجرد أداة للفكر، بل هو وحدة حية لها صوت وعبير شخصية وروح. وكان يصقل صفحاته ويعيد صقلها، وكان كثيراً ما يهب يوماً بأكمله لينقح عبارة واحدة، حتى يستحيل مجموع الكلمات على هذه الصفحات وحدة غناء كاملة، فهو يتجنب ما أمكن تكرار لفظ بعينه في نفس الصفحة، "إن من الخطأ إيذاء أذن القارئ كما أنه من الخطأ إيذاء قلبه".

لكنه لا يكاد يحترم عقل قرائه، فالعقل البشري غبي أتعس غباء، وكان هذا الدرك من الغباء البشري ينفره ويستهويه في آن معاً، فهو يدرسه كما يدرس طبيب مخلص مرضاً كريهاً لعله يستطيع علاجه بعد أن يتبين سببه. فإذا قيل: أن "آرنست رينان" كان أبداً يحاول أن يجدي شيئاً من الحكمة حتى في الأحمق فإن جوستاف فلوبير كان يحاول أبداً أن يكشف شيئاً من الحماقة حتى في الحكيم، ولكن الطبيب في فلوبير هو الذي يحب أن يتعمق الشخصية الآدمية، مصراً على إجراء كشف طبي فتري كامل، لكي يكشف عن المرض ويستأصله فور ظهوره.

وفي جهوده للكشف عن المرض واستئصاله، مرض الخسة الرأسمالية، تفكر وكتب أعظم قصصه، مدام بوفاري، وكانت هذه القصة قصة روح خاطئة مثلها مثل فاوست جيته. ولكن إذا كان بطل جيته الأخرق يهتدى بغريزته إلى الطريق الصحيح الأوحد. فإن بطلة فلوبير المتدبرة تضللها غريزتها وتغريها بالطريق الخاطئ الأوحد. طريق الابتعاد عن الملل والسعي إلى الموت عن طريق الإسراف على النفس.

فقصة (اما بوفارى) هي صورة واقعية لروح خياليه. كانت (اما)– ابنة فلاح رحيم شهواني مرح مثقل بالخيلاء بعيد عن الدين. فربيت منذ طفولتها الأولى تربية أغرتها بالعيش وراء الآفق "ففاكهة الحقل التالي ... أحلى دائماً في خيالها من فاكهة حقلها".

وقد نشأت في دير. فطعمت غزلاً مرهفاً من تلك الأساطير الدينية التي كان يسمح لها بمطالعتها أيام الأحد من باب التسرية، وعادت من الدير إلى المزرعة فوجدت نفسها مرة أخرى في وسط بيئتها الدميمة وأحلامها الجميلة، فهي تتوق إلى هجران أصوات

الحظائر والحقول ومناظرها وروائحها. تريد لترحل من هنا إلى مكان آخر، تتوق لأن ترى أحداً ييسر لها هذه الرحلة، فيظهر في حياتها شاب، شارل بوفاري، وهو ليس حسناً ولا سيئاً، ولا ماهراً ولا غبياً. هو مجرد رجل عادي مغمور لا طرافة فيه، لكنه في نظر (أما) فارس الأحلام الذي سينقذها من سأمها.. فتتزوجه، ولكن ما هي إلا لحظة بعد الزواج حتى تعود إلى أحلامها القلقة لأن بوفاري يمثل هذا المكان العادي، و(أما) دائمة الحنين إلى المكان الآخر الرائع.

وهذا رجل آخر قد أقبل لينقذها يسمى (ليون) وكان شاباً رقيقاً خيالياً. قضت معه لحظة قصيرة من السعادة الفائقة، وأصابت معه نظرة مختلسة إلى السماء فيما وراء الأفق.. ثم تركها..

فيعود إليها الواقع من جديد أثقل وأكأب وأخنق للأنفاس مما كان. وتمضي الأيام متثاقلة كأنما أقدامها قد شدت بأثقال من الرصاص، حتى أحلامها قد صارت الآن مثقلة بملالة متصلة.

ثم يأتي العاشق الجديد فتلقي بنفسها بين أحضانه أشد ما يكون التهالك، إنها تدخل إلى شيء ساحر، كل شيء فيه عاطفة ونشوة وهذيان تحوطها مساحة شاسعة من الزرقة، ويرف في أفكارها رائع الخيال. وأما الوجود العادي فيبدو بعيداً مسفاً في الظلال التي بين هذه القمم، وتقضي حلماً جديداً مع عاشقها الجديد (رودلف) فيسافران معاً في الخيال إلى بقاع نائية إلى إسبانيا بقيثاراتها، وإيطاليا بسمائها الزرقاء، والشرق بمآذنه وأسواقه لكن هذا الحلم أيضاً سرعان ما يتبدد. إذ ينشأ بينها وبين رودلف شجار ثم تركن (أما) إلى الحقائق التي تقع قريباً من هوة اليأس. إن عالمها الحقيقي لا يحتمل، وعالمها الخيالي، قد تحطم، ولم يبق غير شيء واحد هو النسيان. فتتلمس هذا النسيان في حمى انفعال شهواني. فتقابل (ليون) مرة أخرى وتلقى بنفسها بين أحضانه، لا بوصفها عاشقة هذه المرة، بل بوصفها محظية.

فهي تحلم الآن: لا بأن تفر من الواقع، بل بأن تفر من نفسها.

وهكذا تسقط من هوة إلى هوة من (ليون) إلى عازف أوبرا. من عازف الأوبرا إلى كاتب عقود. ثم توقفت حتى عن الأحلام، لقد أصبحت حياتها فراراً مختلطاً يائساً مفزعاً.

ثم كان الاختيار الأخير بين السجن والقبر. واختارت (أما) القبر لأن الحمأة ليست إلا نكسة إلى الواقع، أما الموت فهو الرحلة المخيفة المرجوة وراء الآفق، الرحلة العظمى الأخيرة إلى أرض الخيال.

لقد ظلت (أما بوفاري) خيالية حتى النهاية.

-٤-

لما نشر فلوبير قصة (مدام بوفاري) نعى عليه النقاد، ووصفوه بأنه خطر على الأخلاق، فقبضت عليه الحكومة الفرنسية بتهمة التمكين للأدب الخليع من التسلل إلى الجمهور. وبعد محاكمة عاصفة حكم ببراءته ولكن ذلك لم ينجه من توبيخ شفوي توجه به إليه رئيس الجلسة، وكان على جمهور الفرنسيين أن يقنعوا كلاً من النقاد والحكومة أن مدام بوفاري صورة صادقة للحياة. وأنها في أمانتها مع الحق ليست أكثر بذاءة من وصف صادق لكتلة من كتل الجليد الهاوية. وكان فلوبير لا يحفل بعواصف القدح ولا زوابع المدح. كان يجلس كما يجلس راهب معتصم في منزله، ويسخر بالعالم ويمتعه على التعاقب، ليصير إلى حالة عقلية خير من حاله. إني ساخر متهكم لا شك في ذلك، ولكن السخرية هي الملح الذي يمكن البشر من أن يستمرئ تفاهة الحياة.

كان فلوبير أشد رجل في أوربا عزلة، كما يصفه أصدقاؤه، كان ينفق الجزء الأكبر من السنة في (كرو است) لا يذهب إلى باريس إلا لماماً، ليتحدث إلى جورج ساند، أو يتعشى مع فيكتور هيجو، وقلة من أرواح توائمه.

كان ضخم الجثة، له شارب قرصان، وعينا طفل، ومع أنه كان يحب لقاء زملائه إذا عرضت فقد كان يفضل الوحدة على الاتصال بهم، وكان يقطن منزلاً طويلاً واطئاً يقع على السين، وكان لحجرة مكتبه خمس نوافذ "فحيثما أنقل بصري أرى السماء العالمية".

منزل قديم متين، ورجل عجوز متين، ذو عادات مستقرة متينة، يستيقظ في الساعة

العاشرة بانتظام، فيقرأ خطاباته وأوراقه، ويتناول فطورًا خفيفًا في الحادية عشرة، ثم يسير متنزهًا على ضفة النهر، ويعود في منتصف الساعة الواحدة فيجلس للعمل حتى الساعة السابعة، ثم يتناول عشاءه. ويتنزه نزهة قصيرة في الحديقة، ويعود إلى مكتبه ليقضي في العمل فترة أخرى تستمر حتى بعد منتصف الليل.

إنه يكاد يعيش بكليته بين كتبه "يا له من رجل عجوز خشن، يبغض بني الإنسان" كذلك كان يقول عنه جيرانه، لكنهم لم يعرفوا إن هذا المبغض لبني جنسه، قد ضحى بمعظم ثروته لبعض أقاربه الأبعدين الذين كانوا أحوج إليه منه.

وهكذا عاش وحيدًا يبذل هباته لا ينتظر عليها شكراً، ويكتب قصصه لا يبغي منها شهرة. إنك إذا حللت الإنسان وجدت آخر الأمر أنه يحيا في أفكاره. وهذا هو المكان الذي يجد فيه متعته الوحيدة، ويتلقى فيه جزاءه الوحيد. وكان وسط أفكاره هذه يكتب قصته (بوفارو بكوشيه) فأخذه الموت بيمينه، وقاده إلى مشاهد جديدة لتواليف أعظم.

أهم مؤلفات فلوبير

Madame Bovary
Salambbo
Bouvard et Pécuchet

ناثانيال هوثورن

١٨٠٤-١٨٥٤

كانت حياة هوثورن رمزاً شعرياً للخلق، كما كانت مخلوقات هوثورن رمزاً شعرياً للحياة. ولد لقوم يجوبون البحر، فجلس منعزلاً على الشاطئ، يسجل في هدوء ذلك الصراع الأبدي بين الرمل وموج الشاطئ. ولقد يبدو هذا العزوف في نظر أصحاب الشخصيات النشيطة إضاعة للوقت ونكوصًا عن مواجهة المشكلات الخطيرة التي تواجه الكبار في العالم. على أن "عبث الأطفال هذا–كما يقول هوثورن– يغدو رائعاً مادام على هذا النطاق الواسع".

وبينما كان الآخرون يحاولون في استماتة أن ينقشوا أسماءهم في الرمال، كان هوثورن يرقب تدافع الأمواج لتعفى على آثارهم. "ارسم الحروف (على الرمال) ضخمة، بحيث تزيد على أن تقاس بخطوتين أو ثلاث. وليكن الحفر عميقًا كي يبقى على الزمن! أن الساسة والمحاربين والشعراء لم يستنزفوا قواهم لهدف خير من هذا الهدف.

فهل حققوه؟ عليك إذن أن تعود في خلال ساعة أو ساعتين، وأن تبحث عن ذلك الاسم الذي حفر عميقاً. وستجد أن البحر قد عفا عليه، وبينما الزمن نفسه يدفع بموجات العفاء على أسماء الساسة والمحاربين والشعراء.

أرهف سمعك أنت فإن موج الشاطئ يضحك منك!".

وقد صرف عنايته إلى مراقبة هذه الآثار، وذلك العفاء على المحاولات البشرية، وإلى أن يقدم للتاريخ خصائص تلك الحروف التي نقشت في الرمل قبيل أن تعفو عليها الأمواه.

وكان شديد العناية بنوع خاص بآثار حركة المتطهرين المتداعية في أيامه فأدرك كنهها وحفظها من النسيان قبيل أن يحل محلها التفاؤل الطروب الذي ساد أيام ما بعد الحرب

الأهلية.

-٢-

وحينما قرر هوثورن أن يكرس نفسه للأدب، كان يعلم أنه قد قضى عليه بحياة الفقر والألم والإهمال. ذلك أن الأدب كان في أمريكا سلعة غير رائجة، بل لقد كان قرض الشعر أيام المتطهرين يعد خطيئة. شأنه في ذلك كشأن لعب الورق أو شرب الخمر أو تقبيل زوجة رجل آخر سواء بسواء.

وكانت أقدم المسرحيات الأمريكية، تتفادى رقابة المتطهرين بأن يطلق عليها تجملاً (محاضرات خلقية). على أن الرقابة كانت قد خفت أيام هوثورن إلى حد ما، وإن بقيت مهنة التأليف من المهن غير المأمونة، غير أن هوثورن كان على استعداد لأن يقوم بالمجازفة. فإنه من قوم مغامرين، فلقد كان آل هوثورن يقودون السفن منذ أجيال خلت. وكان دم البحر يجري في عروقهم وكان الإقدام على المخاطر المجهولة طبيعة ثانية في هذه الأسرة.

وفضلاً عن ذلك فإن التعليم الأول لهوثورن قد جعله غير صالح لحياة الأعمال أو المهن. فلقد ربي بحيث صار (رجلاً انطوائياً) إذا استخدمنا تعبير علماء النفس المحدثين. فكان يعيش في عالم تفكيره الخاص.

وقد ولد في بداية القرن (١٨٠٤) وفقد أباه البحار وهو لم يزل طفلاً. فاعتكفت أمه مع ناثانيال وابنتيها الصغيرتين في منزل منعزل في (سالم)، وهناك اعتزلوا العالم، وكأنما قد أغلقت عليهم سفينة في وسط الأطلنطي. بل كان كل فرد منهم يحيا منعزلاً عن باقي أفراد أسرته.

لقد قضت تلك الراهبة المتطهرة العجيبة على أطفالها بأن يحيوا في هذا الدير الصغير العجيب. فكان كل من الأبناء يأكل ويلعب ويقرأ ويتفكر في حجرة خاصة، بحيث اضطر ناثانيال إلى أن يخلق عالماً من الأشخاص الخياليين ليكونوا في صحبته.

وكان بالإضافة إلى ذلك قد أصيب في باكر عمره إصابة بالغة في ساقه، فأقعدته هذه الإصابة سنوات كثيرة عن مشاركة الأطفال الآخرين في اللعب. وإذ كان حساسًا بطبيعته.

متأثرًا بتزمت أمه، فقد كان يقضي النهار بطوله داخل المنزل، فإذا كان الغسق أو الظلام خرج يتجول في الحقول، أو على شاطئ البحر. كان من أثر هذا المسلك أنه عرف الطبيعة في أقتم أمزجتها. فكان طول حياته لا يرى إلا وقد اكتسى حلة غبشاء أو سوداء. وإننا لنجد هذا المزاج واضحًا في كل أسلوبه الأدبي، فكانت لغته ذات حلاوة حزينة وكأنها العالم يغني لينام.

-٣-

التحق في عامه السابع عشر بكلية بودوان، وهناك قابل اثنين من الطلبة كان لهما أثر في مستقبل حياته، هما هنري لونجفيلو، وفرانكلن بيرس. ولقد قاسى في حياته الدراسية ذلك الشقاء الذي يلقاه عادة عبقري أعمق من معلميه فكرًا، فحصل على درجات صغيرة. فإذا تخرج عاد إلى (سالم) وأقام يحلم بالحياة كما قال "بدلاً من أن يحيا الحياة".

وكان يكتب القصص ويقرؤها لنفسه ثم يلقي بها في النار. لقد عجز عن أن يكون ممثلاً في مسرحية الحياة، ولم يقنع بأن يظل أحد النظارة، فقرر أن يكون معقبًا شديد الملاحظة. وكان يقرأ إذا كان الصبح، ويكتب إذا كان العصر، ويمشي مسافات طويلة إذا كان الليل. وكان ينظر إلى الأرض المظلمة ويعمرها بالأشكال والعواطف التي تنتمي إلى عصور ماضية وإلى جيله أيضًا.

لقد صار مكتشفًا للسر المكنون، وباحثًا في مجاهل الروح البشرية. فأخذ عظام التاريخ الجافة فكساها لحمًا لا ينتمي إلى هذه الأرض شاحباً ولكنه جميل- ثم يقذف بهذه الأشخاص الهشة في الخطيئة، ويحلل تصرفاتها بقسوة المتطهر وحنان الشاعر. وإننا لنجد هذا الازدواج في عبقريته، وذلك الصراع الدائم بين تقواه ورحمته، حتى في أقدم ما نشر من كتبه وهو مجموعة القصص المسماة (قصص تروى مرتين).

ومن أشد هذه القصص دلالة عليه (عمود مايو بالجبل المرح) وهي قصة شاب وشابة دخلا حصن المتطهرين بنيو انجلند، وفي قلبيهما لوثة من الوثنية الهوجاء. فالحياة عند المتطهرين حقيقة صارمة، ولكنها عند هذين الشابين الوثنيين لا تعدو أن تكون رقصة مرحة. إنهما خاطئان ولابد من عقابهما على الخطيئة. وهكذا بينما هما يحتفلان بزواجهما

حول عمود مايواذ هاجمها الحاكم انديكوت بجنده فجرد عمود مايو من أزهاره وقضى على الزوجين المذعورين بحياة من المشقة الجسدية والانقباض الروحي، ولكن هنا نجد الشاعر في هوثورن يناهض المتطهر فيه. فحين أخرج الزوجان من مشهد السعادة قام الحاكم العجوز القاسي برفع إكليل الورود من بين حطام عمود مايو وقذف به بذات يده فوق رأسيهما. إن الخطيئة الدميمة تجزى بالعقاب. ولكن ألمها الجميل يجزى بالورود، وكانت هذه نغمة جديدة في الأدب الأمريكي ولكن الجمهور الأمريكي لم يكن قد تهيأ بعد لهذا النوع الجديد من الأدب، ففشل الكتاب من الوجهة المالية

-٤-

لقد تقدم رفاقه في الدرس في مضمار الحياة. فقد صار لونجفيلو أستاذاً في هارفرد وصار بيرس عضوًا في مجلس الشيوخ الأمريكي. أما هوثورن فلم يزل يضرب على غير هدى. وحصل على عمل فترة من الزمن هو وظيفة وزان فحم في جمرك بوستن. غير أن هاريسون قد انتخب رئيسًا جديدًا للجمهورية ففصل هوثورن من عمله في موجة التغييرات التي تلي الانتخابات الأمريكية عادة.

ثم استثمر مدخراته، وكانت تبلغ نحو ألف دولار في المستعمرة التعاونية المسماة "بروك فارم" واعتقد أنه سيستطيع العيش دون الكفاح في طلب الرزق، وكان هذا العصر يتميز في تاريخ أمريكا بأنه عصر التجريب. فنبتت فيه كل المذاهب، الاشتراكية والحركة النسائية والتسامي الفردي والفوضوية والشيوعية وما إلى ذلك، وكان المثاليون على استعداد لأن يعلنوا مقدم عصر سعيد لا شقاء فيه. وكان المنتظر أن تصبح بروك فارم بزعامة مارجريت فولر إحدى جنات هذا الفردوس الذي سيقوم في الأرض، وقد أثبت أعضاء بروك فارم كفاية عملية إذ اختاروا صاحبنا هوثورن– ويا له من اختيار– مستشارًا ماليًا لهذه المستعمرة.

وهكذا نرى هوثورن في دور جديد. دور ممول الفلاحين. فألقى بقلمه جانبًا وحمل مذراته، وبدلًا من أن ينثر الحبر على الورق صار ينثر السماد على الحقول– فيا له من منظر غير متسق، منظر ملاك في كومة من القاذورات. لقد تحمل هذه الحياة قرابة عام. ثم

عاد إلى (سالم) بعد إذ فقد كل ماله في تجربة بروك فارم. ولكنه قد وجد فيها مادة لقصته الوحيدة ذات الألوان (قصة بلثيديل) ويختلف أشخاص هذه القصة عن الأشخاص القاتمة في قصصه الأخرى في أنهم ينعمون بدفء الشمس ساعة الظهيرة.

إنه الآن في الثامنة والثلاثين من عمره، شخصية بارعة الجمال، عديمة الجدوى إلى درجة تبعث على الرثاء. لقد كان له جسم هرقل ورأس أبولو ولكن عينيه، كانتا أشبه بعيني طفل مفزع، أو غريب ذي جنة آتى من أرض غريبة. فكان يجفل من صحبة الناس. وكان أكثر ألفة بأشخاص قصصه منه بسكان (سالم). فاتخذ لنفسه مقعدًا متوحدًا على المرتفعات، وشرع يحول الحياة إلى قصص. ولكنها قصص أكثر حيوية من الحياة ذاتها.

لقد كان مشغوفًا بفنه بحيث أحب أن يعيش دون أن يزعجه العالم أي إزعاج أو يتطفل عليه أي تطفل. وكان إذا اقتحم عليه أحد عزلته التأملية امتعض "في مقت باطني، وفرار لا يلوي على شيء من مقدم هذا الشخص. كأن ذاتًا أخرى قد أفزعتني، فهرعت أجري على الصخور، واعتصمت بمنحنى جدول ينتمي إلى بحق الساعات التي خلوت فيها إليه".

ومع ذلك فإن عزلته لم تكن كاملة. فقد تزوج صيف عام ١٨٤٢ من (صوفيا بيبودى) وهي المرأة الوحيدة التي قدر لها أن تمنحه سعادة حقة. وانتقلا إلى (كونكورد) مدينة الذكريات الثورية والأرواح الثورية من أمثال برنسون الكوت وهنري ثورو ورالف والد وايمرسون و ايلرى شاننج. وهنا شعر بشيء من الألفة فقد كانت الحياة هنا تشبه حياته من وجوه كثيرة، ولكنه حتى في هذا المكان لا يخرج عن تباعده واستحيائه إلا في أندر الأوقات، وقد استأجر منزلًا متهدمًا في أحد الأركان المنزوية في المدينة. وكان يلتف في رداء النوم الممزق ويقول "قد لا أصير مالكًا في يوم من الأيام ولكني أكبر مالك للثياب المهلهلة في البلاد" وأقام على رسم شخصيات وثنية في إطار متطهر.

وظل أربعة أعوام لا يكاد يستطيع المضي في عمله معتمدًا على ما تدره عليه القصص من ربح. ثم وأتاه الحظ. فلقد استعاد الديمقراطيون رئاسة الجمهورية، فعين هوثورن مشرفًا على جمرك (سالم) وكان راتبه ١٢٠٠ دولار في السنة. وكان هذا مبلغًا

خرافيًا في ضخامته بالقياس إلى (سالم) عام ١٨٤٦.

على أن حظه السعيد قد تخلى عنه عام ١٨٤٩. فقد انتخب (زخارى تايلور) رئيسًا للجمهورية، وكان معنى هذا فصل هوثورن من الجمرك.

وكانت كارثته تبعث على الرثاء، فإنه ليشعر بأنه شيخ مسن مع أنه لم يتجاوز الخامسة والأربعين وكان عليه أن يعول زوجة وطفلين، دون أن يكون لديه مدخرات يركن إليها، أو أمل في الحصول على منصب جديد.

ولكنه نجا بفضل ثلاثة أمور، شجاعة زوجته، وكرم أصدقائه، وإيمان الناشر بقدرته على كتابة قصة من عيون الأدب.

لقد تلقت زوجته نبأ فصله من الوظيفة كما تتلقى أسعد الأنباء.

فابتسمت له في شجاعة وقالت "سيتحقق لك آخر الأمر الفراغ الذي تستلزمه كتابة تلك القصة العظيمة" وأقامت مدفأة في غرفة مكتبه وعنيت بأناقة المكتب، وأعانته على ارتداء ملبسه المريح وهيأت له أن يجلس ويكتب، ثم ذهبت إلى الطابق الأعلى وعادت في يدها مائة وخمسون دولارًا من الذهب البراق، وهو مبلغ كانت قد أدخرته سرًا لمثل هذه المفاجآت.

وما هي إلا أيام قليلة حتى علم هوثورن على حين بغتة أنه غني بحب أصدقائه، كما هو غني بحب زوجته و إخلاصها، فقد تلقى صكًا بمبلغ ضخم مصحوبًا بخطاب مؤثر، ممهور بتوقيع جورج هيلرد، وهو أحد الأعضاء في جماعة كمبردج، التي كان يرأسها لونج فيلو. وقد جاء بخطاب هيلرد ما يلي "لقد خطر لي كما خطر لبعض أصدقائك أنك قد تكون الآن بحاجة إلى معونة مالية صغيرة. لذلك فقد جمعت المبلغ المرفق من أولئك المعجبين بعبقريتك القادرين لشخصيتك... وإني لأعلم فيك حساسية المزاج، لكن لا تتحدث عن التزاماتك، ولا تفكر فيها. وإنما نحن قد أدينا جزءًا صغيرًا جدًا مما نحن مدينون به إليك، لما لك على الأدب الأمريكي من أياد.. فلا تدع أي ظل من الألم أو اليأس يتسرب إليك أيها الصديق العزيز. إن أصدقاءك يذكرونك ولن ينسوك أبدًا.." ورد

هوثورن على هيلرد بخطاب قال فيه "لقد أثار خطابك دموعي على نحو لم تفلح متاعبي في إثارته.. لقد كان ثمة كثير من الحلاوة وشيء غاية في المرارة يمتزجان في هذا الدمع نفسه.. إن المال يا عزيزي هيلرد سيمهد سبيلي وقتًا طويلًا. وليس من سبيل يستطيع به المرء الاحتفاظ بكرامته بينما هو يعتمد على كرم أصدقائه إلا بأن يتخذ من هذا حافزًا له على بذل أقصى الجهود حتى لا يحتاج إلى معونتهم مرة أخرى".

ومضى في كتابة قصته باذلًا في كتابتها أقصى جهده، لكنه لم يكن مؤمنًا بنفسه. زاره في (سالم) ذات يوم ناشره جيمز. ت. فيلدس.

فوجد هوثورن في مكتبه يحوم في حيرة حول مدفأته، فسأله الناشر "هل أعددت شيئًا للمطبعة؟"

فأجابه هوثورن "كلا! كيف يجازف ناشر بطبع كتاب لي وأنا أوفر كتاب أمريكا حظًا من كراهية الناس!".

"إني أنا هذا الناشر".

فقال هوثورن مؤكدًا "ولكني في الواقع ليس لدي ما يستحق النشر".

ففتح فيلدس الباب وكاد أن يخرج فأخذ هوثورن من أحد إدراجه حفنة من الأوراق المخطوطة وقال في تردد "لعلك تتنزل بتصفح تلك الحزمة من القمامة".

وأخذ الناشر الحزمة معه. وفي تلك الليلة كتب خطابًا حماسيًا إلى هوثورن.

لقد كان المخطوط الذي فرغ لتوه من قراءته هو مشروع ملخص قصة "الحرف الأحمر".

-٥-

ولا تبدأ حوادث (الحرف الأحمر) من البداية. فإن هوثورن يستخدم فيها طريقة رواية القصة من آخرها. يبدأ المشهد الأول بإطلاق (هستر برن) من السجن. وهذه هي هستر المرأة الشديدة الحنين إلى الحب، والشديدة القدرة على معاناة الألم، تخرج من ذلك الحصن المظلم، وعلى ذراعيها طفل عمره ثلاثة أشهر. وعلى صدر جلبابها يظهر حرف

(ز) بالقماش الأحمر.

وكانت رزينة المظهر، كليمة الفؤاد، سارت إلى مكان التشهير. وكان في أحد أطراف الحشد المتطلع رجل ضئيل. وكان له جبين ذكي وعينان قاسيتان. وكان هذا الرجل (دكتور روجر شلنجويرث) هو (زوج هستر برن) لقد غاب عن موطنه عدة سنين وهو الآن غريب في بلده.

وكان قسيس المدينة المحبوب (أدثرد يمسدال) شابًا يربو إخلاصه على شجاعته. وهو يشق لنفسه طريقًا في خلال الحشد، ويقف إلى جانب (هستر) ويلح عليها أن تذكر من زنى بها. ولكن (هستر) ترفض في إباء أن تستسلم لإلحاحه.

ثم لا يلبث الكاتب أن يبدأ في نسج العقد والأحابيل التي تعقد حياة الأشخاص الأربعة الرئيسيين وهم (هستر) ودكتور (شلنجويرث) و (آرثر ديمسدال) و (بيرل) الصغيرة، وفي الليلة التالية لإطلاق سراح (هستر برن) من السجن تمرض طفلتها ويستدعى الدكتور (شلنجويرث).

فتقول (هستر) هامسة: "لقد أخطأت في حقك خطأ بالغًا".

فأجاب زوجها: "لقد أخطأت أنا كما أخطأت، فأنا رجل من رجال الفكر، وأنت امرأة من أهل الجمال، فبأي حق صرنا زوجين؟".

إن (روجر شلنجويرث) يفهم، ولكنه لا يصفح.. فإن عقله وقلبه مختلفان في سبيليهما.. فهو مصر على معرفة من فسق بامرأته ومعاقبته.

وتتعيش (همستر) من أشغال الإبرة. وكان أهل الفضل في المدينة مصرين أول الأمر على أن ينزعوا منها طفلتها، ابنة السفاح ولكن يتغلب (مستر ديمسدال) عليهم أخيرًا فيدعون الطفلة لأمها. فيقول (روجر شلنجويرث) باسمًا: "إنك يا صديقي تهتم بهذه المرأة الفقيرة اهتمامًا عجيبًا".

وتتدهور صحة (مستر ديمسدال). فيندب دكتور (شلنجويرث) نفسه لمعالجته. ويساكن القسيس، لأنه مصر على أن يتبين أسرار قلب (ديمسدال). ولتلاحظ كيف أن

الكاتب قد جمع بين الرجلين جمعًا جثمانيًا لكي ينسج خيوط انفعالاتهما العقلية والروحية. ويغدو (شلنجويرث) صورة مادية لضمير القسيس المذنب.

وأن (ديمسدال) لينظر إلى (شيلنجويرث) في فزع متزايد، ولطالما حاول أن يعترف بخطيئته من فوق المنبر، ولكن شجاعته كانت تخونه دائمًا.

وفي سكون الليل ذات مرة، صعد إلى مكان التشهير حيث وقفت (هستر) يجللها العار. وكان يعتقد أن كل الناس نيام، ولكن يراه ثلاثة أشخاص (هستر وبيرل) وكانتا عائدتين من منزل امرأة تحتضر، ودكتور (شيلنجويرث).

وفي رثاء ساخر: يصحبه الطبيب إلى المنزل "لا ينبغي لك أن ترهق نفسك في الدرس إلى هذا الحد أيها السيد الطيب ديمسدال".

وهكذا أحكم نسج القصة بحيث صارت إلى نموذج محدد يبعث على الأسى. ثم تتحرك القصة مسرعة إلى ذروتها التي لا مفر منها، فترسم (هستر) خطة للفرار مما يحدثه (روجر شيلنجويرث) في نفسها من أثر قاتل. فتزمع السفر إلى إنجلترا ومعها (ديمسدال وبيرل).

ولكنهم يجدون أن (شلنجورث) لا ينهزم بهذه السهولة. فقد علمت (هستر) أنه أيضًا قد حجز تذكرة على نفس السفينة الذاهبة إلى إنجلترا. ولتلاحظ مهارة الكاتب في أن هذه المعلومات تأتي في يوم من أيام الإجازات البالغة الأهمية، اليوم الذي اختير فيه (ديمسدال) ليلقي موعظة الاختيار تكريمًا للحاكم المعين حديثًا.

وهكذا تلتقي في يوم واحد أعلى ذرى مجد (ديمسدال) وأبعد أغوار مأساته. فلم يعد في وسع (ديمسدال) أن يخفي خطيئته مع (هستر) إنه ليفضل الاعتراف الآن بما يستتبعه من عار، على عذاب المستقبل الذي يصبه عليه (شيلنجويرث). وهو يتعمق أبعد أغوار روحه.

وهكذا يلقي (ديمسدال) موعظة الاختيار للجمع الذي يعبده، ثم في حركة مسرحية يرقى مكان التشهير ومعه (هستر وبيرل الصغيرة). ويصيح قائلًا: "يا شعب نيو انجلند،

أخيرًا وأخيرًا جدًا، أقف حيث كان علي أن أقف منذ سبع سنين.."

ثم تقبل لحظة الإلهام في المأساة:

فهو يستمر في صوت رنان "انظروا إلى الحرف الأحمر الذي تلبسه هستر.. إن لي أيضًا حرفي الأحمر".

ثم يمزق الرداء الكنسي عن صدره. فيبدو لحمه وقد نقش عليه حرف (ز) باللون الأحمر.

فلما نظر الدهماء إليه نظرة العجب والدهشة والرثاء، مال برأسه على صدر هستر. لقد أدى حياته ثمنًا لخطيئته.

-٦-

إن (الحرف الأحمر)، كمعظم روايات هوثورن وقصصه القصيرة، تمثل التاريخ الروحي لنيو انجلند.. الصراع بين الحب المتطهر للدين، والدين الوثني للحب. ولكن الكتاب ليس مجرد صورة لنيو انجلند. فإنه كذلك صورة هورثون نفسه، ذلك الرجل المتطهر الجسم، الوثني الروح. فإن في أشخاص الرواية جميعًا شيئًا من هورثون.

قسوة القضاة الذين عاقبوا (هستر برن) على خطيئتها مع (آرثر ديمسدال) وعدم صفح (شيلنجويرث) الذي نصب نفسه للانتقام كأنه تجسيد لضمير القسيس الشاب. وتردد (ديمسدال) الذي كان يخفي قلبًا يمور باللهب تحت رماد العرف الاجتماعي، وتحدي (هستر برن) التي كانت تحمل رمز آلامها وكأنه رمز على التكريس يبارك ثوب حبها.

إن هورثورن في كتابه يمثل نوعين من الخطيئة: الخطيئة التي يرتكبها الحب ضد العرف الاجتماعي. والخطيئة التي يرتكبها العرف الاجتماعي ضد الحب. ويرى هورثورن أن الخطيئة الثانية هي أشد الخطيئتين نكرًا. إن هورثورن الشاعر يحاول أن ينفصل عن هورثورن الواعظ. فلقد انتهى أوان التطهر في أمريكا، ولابد من أن يحل محله شيء جديد. ولا يدعي هورثورن أنه يعلم هذا الشيء الجديد على التحديد.

ولعله يتمثل في شخصية بيرل الصغيرة، تلك الثمرة البريئة الأثيرية غير المتميزة للتطهر والوثنية، جميلة ولكنها سريعة الزوال، كأنها وميض شعاع الشمس يتراءى في حلم، ولكنها تبشر بشيء أكمل وأكثر تجاوبًا مع قلب العالم من كلا أبويها. لقد عاش هورثورن في بواكير التاريخ الأمريكي بحيث لم يكتب قصة نضج بيرل الصغيرة. فنهض بهذا الواجب قصاص آخر فيما بعد.

يمثل هورثورن عصر انتقال في تاريخ أمريكا العقلي. وهو ينتمي إلى أولئك المجددين العقليين الذين يحاولون الفكاك من أخطاء الماضي. فأخذ في الارتياب في الصورة الكلوينية القديمة للجنس البشري، التي تمثل جمهورًا من المخلوقات الخاطئة وقع بين نارين، الآمر بالكدح والعناء في السماء، والجلاد القاسي في جهنم. وكان هورثورن ابن المتطهرين، وكان أجداده قد شنقوا الكويكريين وأحرقوا الساحرات، ولكنه كان كذلك أبا الثائرين. فالتحليل النهائي يكشف عن انعطافه إلى الضحايا لا إلى القضاة أو السجانين. فهستر بيرن هي أنبل أشخاص (الحرف الأحمر) وأوفرهم حظًا من العطف.

ولكن هورثورن لم يزل يتحسس طريقه. وهو لم يطمئن بعد إلى الأرض التي يقف عليها. فهو كأشخاصه يحيا في عالم غامض بين النور والظلام. فالأشياء غير متميزة والمسافات غير محددة، والأفق محفوف بالغمام. وليس من حد فاصل تنتهي عنده الأرض، وتبدأ عنده السماء. غير أنه يعرف شيئًا واحدًا: هو أن أخطاء الماضي ستتحول فتصير آمال المستقبل "في عصر أزهى، في زمن السماء نفسها، ستتكشف حقيقة جديدة لإقامة (الجنس البشري) على أساس من السعادة العامة أكثر صلابة".

-٧-

ويمكن إيجاز باقي حياة هوثورن في كلمات قليلة، حين انتخب (بيرس) لرئاسة الجمهورية، عين القصاص الذي كان رفيقه في الدرس قنصلًا بليفربول وكان هوثورن يحيا خارج البلاد حياة العزلة عن المجتمع التي كان يحياها في وطنه. فألف بين نفسه وبين تاريخ إنجلترا، بدلًا من أن يؤلف بين نفسه وبين شعبها. فلما انتهت فترة اشتغاله في القنصلية سافر إلى إيطاليا، وهناك أيضًا عاش في الماضي أكثر مما عاش في الحاضر. ثم عاد إلى

أمريكا وإلى المكان الذي كان يألفه أشد الألفة، وهو الحدود بين الماضي والحاضر كما تتمثل في حياة شعب الأقاليم.

وقد بلغ من انغماسه في مشكلات مسرحياته الإقليمية أنه لم يكد يحس بالمأساة القومية التي كانت تمثل أمام عينيه. فلما نشبت الحرب الأهلية، هز كتفيه استنكارًا وقال "إني أوافق على الحرب، لكني لا أدري ماذا نحارب من أجله".

على أنه أيضًا كان يخوض غمار حرب– حرب الروح البشرية لتخلص من أسر البيئة. وقد صور هذه الحرب في قصة (**The House of the Seven Gables**) وفيها تنسج خطايا الآباء شبكة تحول بين أبنائهم وبين السعادة. وعاد إلى هذه الحرب في (**The Marble Faun**) وفيها يبعث إلى الحياة أحد مخلوقات الماضي نصف الآدمية، وسط المشكلات الإنسانية الخطيرة في الزمن الحاضر. وهو موضوع هوثورن الأثير، موضوع الخطيئة والعذاب. وفي نهاية حياته تمامًا كان في شغل بحرب أخرى لم تنته بعد، هي حرب الروح ضد أحكام القدر في (قصة دوليفر).

وقد حاول في هذا الكتاب أن يهتدى إلى سر الحياة، وهزيمة الموت، والركب الإنساني العالمي الذي يمضي إلى الخلود.

وكان من سخريات القدر أن هذا القصاص الفيلسوف قد مات في نفس الوقت الذي كان يبحث فيه عن الحياة الخالدة (مايو سنة ١٨٦٤).

وانقضى بموته عصر عقلي من التاريخ الأمريكي.

أهم مؤلفات هوثورن

Twice Told Stories
Mosses From an Old Manse
The House of the Seven Gables
The Dolliver Romance
The Snow Image
The Blithedale Romance
The Scarlet Letter
The Marble Faun
Tandlewood Tales
The Great Stone Face

وليم ماكبس ثاكري

١٨١١- ١٨٦٣

ولد في كلكتا، وفقد أباه وهو في الخامسة، فأرسل بحرًا إلى إنجلترا، ليحيا مع عمته بشزويك، وكان طفلًا غريب المنظر، أشبه بثمرة اليقطين يحملها عود من اللوبياء، فقد وضعت عمته قبعة زوجها على رأس الصبي الصغير– وهي قبعة ضخمة شيئًا– ولشد ما أفزعها أن رأسه ملأها تمامًا. وأخذته إلى طبيب أسرتها ليفحصه، فطمأنها الطبيب بقوله: "لا تراعي فللصبي رأس كبير، ولكنه رأس عامر".

ومع ذلك فإن رأس وليم الصغير، ذلك الرأس الكبير قد استغرق زمنًا طويلًا حتى ينضج، فكان في مدرسة شارتر هوس (وهي المدرسة التي التحق بها تلميذًا في القسم الخارجي) في مستوى يقل شيئًا عن مستوى رفاقه. وكتب عنه زميل له في فرقة الدراسة يدعى جورج فينابلس يقول: "مع أنه لبث هناك بضع سنين، فإنه لم يبرز في الفصل ولم ينبغ في الملعب".

ومع ذلك فإن هذا الفتى الصغير الوديع، قد أظهر حتى في هذه الفترة جرأة على الفكاهة الجافة التي سوف ينماز بها في قابل أيامه.

كتب إلى أمه في كلكتا يقول "إني أحب مدرستي، فما أكثر الصبية الطيبين الذين ألعب معهم، ثم أضاف استدراكًا خبيثًا هو: بالمدرسة ٣٧٠ تلميذًا ليتهم كانوا ٣٦٩".

وكان يكتب بانتظام إلى أمه وزوجها الماجور سميث، وكان دائمًا يعترف لهما بمدى كسله اليوم، و مدى جده غدًا، و لكن هذا الغد المجد لم يأت أبدًا. وبعد إذ تخرج في مدرسة شارتر هوس كان لا يزال بحاجة إلى تعليم إضافي يعده لكمبردج فقام بذلك زوج أمه– وكان ماجور سميث وزوجته قد انتقلا الآن إلى إنجلترا– والتحق بكمبردج في فبراير سنة ١٨٢٩و هنا أيضًا عاش عيشة الرجل المرهف الحس المنعزل عن الناس. وقد قال

في ذلك أحد مدرسيه: "لو استطاع أحد أن يخرج هذا الفتى عن كسله لكان قادرًا على أي عمل إذا أراد، لكنه لا يريد أبدًا".

كانت بلية ثاكري أنه لا يستطيع مطلقًا أن يركز جهده في شيء واحد. فهو يومًا يحب أن يترجم هوراس، ويحب في اليوم التالي أن يرسم صورًا هزلية، وفي اليوم التالي يكتب شعرًا هجائيًا. وكان قليل الإجادة في كل ما كتب. فهو لم يركز جهده في شيء واحد بحيث يبرع في هذا الشيء الواحد. ولا مراء في أنه لم يتوفر على الدرس. فهو بعد عامين يقضيهما في الجامعة تتقاذفه فيهما التيارات. يطلب إليه أن يغادر الجامعة دون الحصول على إحدى درجاتها.

وهكذا غادر الجامعة، وجعل يخبط في الحياة، فجاب أوربا وزار المتاحف والمسارح والمكتبات. ورسم صورًا وكتب قصائد. ولاحظ غرور الحياة ورحمتها وجمالها، وهو شاب نحيل صموت من علية القوم، فقد ورث مائة ألف دولار، شديد النهم إلى المجد بالغ الكراهة للعمل، وكان مزاجه يبلغ في تناقضه ما بلغ جسمه، فله جسم عملاق و وجه طفل لطيف و أنف مهرج. وقد كسر أنفه في شجار نشب بمدرسة شارتر هوس وظل مدى حياته مشوهًا، وقال ذات مرة مازحًا "لولا أنفي المكسور لحصلت على وظيفة عملاق في (سرك) فأنا حينما تقدمت للوظيفة اختبرني صاحب العرض اختبارًا دقيقًا، ثم هز رأسه وهو يقول: أنت شاب طولك مناسب، ولكنك بالغ الدمامة".

ومرت به أيام فارغة وليال عابثة.. ثم تجربة مريرة هي تلك الآلام التي يقاسيها العقل الموهوب. فهو في لجة تلك التيارات التي تتقاذفه إذ وجد نفسه في دار ميسر ذات مساء. فرأى أن المغامرة شيء مثير وإن يكن مكلفًا. وما هي إلا بضعة أشهر، حتى كان قد فقد ماله جميعًا. ثم استقر في حياة العمل الجدي.

-٢-

جرب الفن فترة من الزمن، لكنه أدرك أن كفايته تقصر به عن بلوغ ما أراد ثم قرر احتراف الأدب، وكان قد رأى في أسفاره كثيرًا من (المدن والناس) ورأى في كل مكان

جسومًا تضطرب إلى غير غاية. "انظر أن كل شيء باطل الأباطيل وقبض الريح" لسوف يتوفر على ملاحظة العرض الساري ولسوف يعلق متواضعًا على بعض مشاهده إذا أمكنه ذلك.

والتماسا لهذه الغاية، شرع يكتب القصائد والمقالات والقصص. وقد رفض معظمها لمبرر حسن، ذلك أن ثاكري كان يكتب لغرضين متعارضين، فهو يزدرى بني الإنسان بعقله ويهواهم بقلبه. ففشل الناشرون في فهمه، لأنهم لم يستطيعوا أن يحددوا لونه. فقد جمع أعظم المتناقضات الأدبية.. إنه مزدر ساخر قاس عطوف، يرى سخف الحياة ولكنه يراه خلال ضباب من الأسى.

وكان ثاكري نفسه قد واجه أسى عظيمًا في مقتبل حياته العملية، فقد تزوج "ايزابيلا شو" وهي فتاة أيرلندية حسناء ولدت له بنتين، وقدمت له أشهى مذاق للنعيم حظي به إنسان. ثم أصيبت بالحمى، وشفيت منها جسمًا وماتت بها عقلاً، وقضت سعادة ثاكري بقضاء عقلها. فعهد بها إلى عناية أسرة صديقه، وألقى بنفسه في خضم حياة الأندية ولم يكد يسغيه "أن نشاطي الاجتماعي لجهد طويل أبذله في سبيل النسيان".

ولم يعد نشاطه الأدبي أن يكون جهدًا بذله طول حياته يلتمس الفكاهة. فهو يضحك من بني جنسه من أثر رثائه لهم. وأن تهكم ثاكري ليخلو من الضغن فإن تكن يده خشنه كيد عيسو فإن صوته رحيم كصوت يعقوب.

وهذا سر العناء الذي لقيه في بناء مجد أدبي. فقد عجز الجمهور أبدًا عن فهم كاتب يستخدم السوط ليربت به على الأكتاف عطفًا ورثاء، وكان أبناؤه أنفسهم حين كبروا يعنفونه على دقة فكاهته واستخفائها ويسألونه "لماذا لا تكتب فكاهة بسيطة– كفكاهة ديكنز– حتى يفهمك كل الناس؟".

وكان ثاكري يتألم أبلغ الألم لعجزه عن بيع بضاعته الأدبية، فإذا انسدت بينه وبين المجلات المسالك أنشأ مجلة له دعاها **The National Standard**.

وكان جانب النجاح الوحيد في هذه المغامرة أنها مكنته من السخر بغفلته "لكنك لو

لم تخبر الغفلة قط، فاستيقن أنك لن تكون حكيمًا" كما قال في (الأرمل لفل).

لقد فشلت المجلة، وظل ثاكري يتعلم الحكمة عن طريق حماقته. وبدأت كتاباته تدريجًا تجد لها مكانًا في أركان مجهولة من المجلات. وقد وصفه أحد المحررين بأنه مجرد كاتب مقالات ضئيلة، ولمع من شعر جميل. فرد ثاكري على ذلك بقوله لأرينك أني خير مما تظن..

ولم يفعل إلا بعد زمان طويل. وحينما كان ديكنز – الذي يصغره بعام– تشرب نخبه لندن كلها، كان ثاكري شابًا ساخرًا مغمورًا لا يقرؤه أحد "كتب قصة نفسية عنوانها **The Great Hoggarty Diamond** فتساءل جون سترلنج "ماذا يفوقها في قصص فيلدنج وجولد سميت" وغضت مجلات عدة من قدرها. وتقدم بطلب ليعين محررًا بمجلة **Foewign Quarterly Review**.

"– أرجوك أن تفكر في خادمك المطيع الذي يستطيع حقًا، فيما يعتقد، أن يؤدي الواجب على أكمل وجه" فألقى طلبه في سلة المهملات، وعرض أن يكتب سلسلة لمجلة **Blackwood's Magazine**، وجاء في طلبه "إني انتمى إلى ناديين في هذه القرية، وأستطيع أن أجمع كثيرًا من الأحاديث، ولكن ملتمسه أصاب أذنا صماء. يا له من عمل مثبط للهمة، ذلك الجهد العابث لكسب العيش بالقلم.

ولكنه لم يتحول عن غايته "ماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟". وأخيرًا وبعد اثني عشر عامًا من الفشل المتصل، أصاب قدرًا يسيرًا من النجاح.

وكان أول تواليفه الناجحة نوعاً هو **The Irish Sketch Book** وبلغ عدد النسخ المبيعة من الكتاب ألفاً، ولم يكد ثاكري يصدق عينيه حين قرأ الرقم، فقال في تجهم خبيث "أخيراً بلغت من الشهرة ما بلغ ديكنز الذي تباع مائة ألف نسخة من كل كتاب له".

وفي سخاء الرجل الذي حقق غايته نصح لصديق أديب في إيرلندا هو القصاص شارلس ليفر بأن يحضر إلى إنجلترا ليجرب حظه فيها ومضي إلى عرض معونة مالية عليه،

وكان هذا العرض– كما وصفه ليفر متفكها– أشبه شيء بأن تعلم صديقك العوم وأنت لا تزال تجاهد لتبقى رأسك خارج الماء. وسرعان ما أفاق ثاكري من سكرة النجاح الأولى، وعاد إلى غمرته وحزنه، حدثه أحد أصدقائه مشيراً إلى (ذي ايريش سكتش بوك، قال "لابد أنها متعة فائقة أن تؤلف كتاباً يحوي كل هذه الفكاهة المشرقة، فقص عليه ثاكري في جوابه قصة صغيرة. حدث أن أتى مريض ذات يوم إلى عيادة طبيب ليفحصه فقال له الطبيب: "إنك شديد الهم والكآبة ولست بحاجة إلا لشيء ينعش روحك، فلماذا لا تذهب إلى ملعب التمثيل وتشهد مجانة المهرج بلسينلو؟" فقال المريض "إني أنا بلسينلو" إن ثاكري يضحك– فيما يقول– لأنه شديد الميل إلى البكاء "ألا ما أفكه ما كتبت وأنا أكاد أشنق نفسي" كذلك ذكر في أحد خطاباته.

–٣–

وظل يكتب قصصه وقصائده ومقالاته التي تتسم كلها بالفكاهة. وظل الجمهور يجزيه عليها بحفنة من البنسات– وبتصفيق مبعثر مشتت.

والحق أن الجمهور لم يكد يعرف اسمه، فهو في رغبته الزائدة في التنكر قد اتخذ لنفسه عدداً من الأسماء المستعارة.

وكان استخفاؤه في هذه الأسماء المستعارة الكثيرة مظهراً جديداً من مظاهر التناقض في شخصيته. فهو على ظمئه إلى ذيوع اسمه، وقد بذل غاية جهده لإخفاء اسمه.

ولكن ثاكري لا يعدم مبرراً كافياً لاستخفائه في أسماء مستعارة.

فهو يقول "إن مطمحي الثاني هو ذيوع الاسم. أما مطمحي الأول فهو إصابة رزق أولادي" وما كان له أن يكسب عيشه لولا هاطل من المقالات يغدقه على المجلات بثمن ضئيل للكلمة "قد يحدث للأديب أن الربح الذي يصيبه من جهة واحدة لا يقيم أود أسرته، فعليه أن يكتب في جهة أخرى.

فلو كتب (برون) مثلاً مقالات للصحف اليومية وأخرى في المجلات الأسبوعية والشهرية أيضاً، وذيلها جميعاً بإمضائه لأضعف قوته بإطالة خطوطه. وتفادياً للإلحاح باسمه

دائماً حجب اسمه دائماً. وأن قارئاً ليتساءل في إحدى هذه المرات النادرة التي وقع فيها ثاكري مقالاً بإمضائه الصحيح "من ذلك الكاتب الجديد؟

إن كتابته لأشبه بكتابة الهواة إذا قورنت بما يكتب تيتي مارش[٤]".

إن ثاكري قد قارب الأربعين ولما يزل مجهولاً مغموراً. وكانت هذه الغمرة تحز في نفسه "يا صديقي أمسح الأحذية أو نظف السكاكين أو أفعل أي شيء غير الاشتغال بالأدب" كذلك كتب في إحدى مقالاته لأن الأدب كما ذكر في موضع آخر "ليس تجارة ولا مهنة بل هو الحظ الأنكد".

ومع ذلك فلم يتزحزح عن حظه الأنكد. لأنه صمم على أن يرى العالم أنه "خير مما تظن" وأثمر التصميم في عام ١٨٤٧ تلك الثمرة الأدبية الشائقة "سوق الغرور" وهي قصة لا بطل لها.

ولم يكن ثاكري مطمئناً أي اطمئنان لقيمة "سوق الغرور" (ليت شعري أتصلح هذه الرواية؟ وهل يقبلها الناشرون؟ وهل يقرؤها العالم؟) لم تنجح القصة في أول الأمر. فقد عرض ثاكري الأبواب الأولى على مجلة "كلبيرن" فرد المحرر إليه المخطوط وقال "إن هذا الرجل لا يستطيع كتابة القصص" ورد القصة محرر مجلة أخرى وعلق عليها يقول "إن الألفاظ خفيفة كأنها ريش من رصاص" ويقول محرر آخر بمجلة أدنبرة يدعى "ما كفى مابير" (على المرء أن يكون في غاية الحذر من قبول عمل الغرباء على القراء. ففي مجلة كمجلة إدنبرة من المهم دائماً الاحتفاظ بمستوى عال من الأسماء الكبيرة).

ورفض "سوق الغرور" كثير من المحررين وناشري الكتب قبل أن يقبلها محرر (بنش) آخر الأمر. كان الجمهور بطيئاً في التعرف على مزايا الكتاب، لكن النقاد سرعان ما رأوا فيه حدثاً جديداً في تاريخ الأدب الإنجليزي. وكتبت همن كارليل إلى زوجها: "لقد استحضرت الأعداد الأربعة الأخيرة من سوق الغرور وقرأتها أثناء الليل إنها تسحق ديكنز وتمحوه محواً".

---

٤ واحد من عشرات الأسماء التي كان شكري يوقع بها كتاباته. (المترجم)

وكتب (ايراهام هايورد) في تعليق له نشر بعد ظهور أجزاء قليلة من القصة يتنبأ بأن "سوق الغرور" قد كفل لها الخلود، كما كتب الفناء لتسع وتسعين في المائة من القصص الحديثة. وهلل للكتاب كثير آخرون من المعقبين وسلكوه في الروائع، لكن التقرير الكامل عن هذا الكتاب قد كتبته القصاصة (شارلوت برونتي) لزميلها في المهنة، وكانت روايتها المنشورة حديثاً (جين اير) قد أثارت الاهتمام والإعجاب، ومع ذلك ففي وسط نشوة انتصاراتها وجدت الوقت والأريحية للاحتفاء بقصة تنافس قصتها، قصة تستحق في نظرها نصراً أعظم من انتصاراتها. فكتبت في مقدمة الطبعة الثانية (لجين اير) "إن رجلاً يعيش في عصرنا يفضل عندي عظماء المجتمع، حتى لكأنه ابن (املاه) إذ يسبق الملوك المتوجين في يهوذا واسرائيل• إنه يتكلم الحق كما كان يتكلمه.. عميقاً.. يشبه في قوته وحيويته كلام الأنبياء، وعلى محياه طابع الجسارة والشجاعة.

لماذا أشير إلى هذا الرجل؟ إني أشير إليه أيها القارئ لأني أرى فيه عقلاً بلغ من العمق والامتياز مالم يدركه معاصروه اليوم، ذلك لأني أعده المجدد الأول لهذا العصر، واعتقد أن كتاباته لم تجد بعد من المعقبين من يحلها مكانها الحق، أو يهتدي إلى التعبير الذي يصور نبوغه بحق. إنهم يشبهونه بفيلدنج ويتحدثون عن ذكائه وفكاهته وقدرته على الدعابه، وإن تشبيهه بفيلدنج لمن قبيل تشبيه النسر بالعقاب، ذلك بأن فيلدنج قد يقع على الجيفة. أما ثاكري فلا يقع عليها أبداً. فعقله ناصع، وفكاهته جذابة، ولكن كليهما يتصل بعبقريته الجادة اتصال مستصغر البرق العابث تحت سحابة صيف بشرارة الموت التي تكنها السحابة في أحشائها وبعد فإني أشير إلى مستر ثاكري وإليه أهدي الطبعة الثانية هذه من (جين اير) أن هو قبل التحية من شخص لا تربطه به علاقة شخصية.

كان لابد من قصاص نابغ لفهم قصة "كسوق الغرور" فهذه القصة لا تخلو من بطل وكفى. بل إنها من الناحية الفنية تخلو كذلك من خطة مرسومة. فهي صورة صادقة من صور وجودنا الإنساني الذي يخلو من البطل والخطة.

ويمكن تلخيص الكتاب كله في مقطوعة واحدة، كتبها ثاكري بعد نشر "سوق الغرور" ببضع سنوات.

أيه باطل الأباطيل.

ما أعبث شريعة القدر

وما أضعف أساطين الحكمة

وما أصغر عمالقة العظمة.

-٤-

ظفر ثاكري الآن بقسط واف من المجد وأصاب عيشاً رضياً، لكنه لما يزل غير سعيد، فإنه كذلك أشبه بأشخاص قصته في أنه دمية في سوق الغرور.. يمتطي أبداً صهوة الطموح البشري في تلك الدوامة المرحة، هادفاً أبداً إلى شيء يقصر عن بلوغه. فهو لا يحصل على بيت حتى يتوق إلى عربة تجرها جياد أربعة. ولا يحظى بالعربة ذات الأربعة، حتى يتوق إلى مركز اجتماعي. فإذا أصابه تاق إلى مقعد في البرلمان، ويجسر رغم خلوه من كل كفاية سياسية على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم.

وكان من حسن حظه– ولعله من حسن حظ إنجلترا كذلك– أن منعته روحه المرحة من أن يبالغ في جهاده ليحظى بأصوات الناخبين.

كان "لورد منك" يرأس أحد اجتماعاته الانتخابية فقال "فلينصر الله المرشح الأصلح". فرد عليه ثاكري باسماً "لا قدر الله" فهو يعرف في منافسه (ادوارد كادويل) سياسياً يبرعه بكثير، وقد انتخب كادويل وأثبت في السياسة كفاية حقه.

بقي ثاكري للأدب، وهو الجانب الوحيد الذي يفضل فيه منافسه، لكن طموحه ظل يدفع به قدماً، فتعاقد على إلقاء سلسلة محاضرات ليصيب للأطفال رزقاً، وقبل كل دعوة وجهت إليه مهما يكن نوعياً ليستمع إلى متملقيه "فإن هذه المأدبة من المديح المغرق ليزيد في التذاذى إياها أنها جاءت بعد مجاعة طال أمدها".

وزار أمريكا مرتين فعاد مثقلاً بالتشريف وعسر الهضم "أما وقد أصبت مالاً لأطفالي الأعزاء، فقد زال القلق من حياتي وأستطيع أن اتنفس حراً فترة من الزمن".

لكنه لا يتنفس في هدوء وحرية، فهو مقيم على قلقه وعلى شغفه بأن يبلغ ما لا سبيل إلى بلوغه. فإن عليه أن يستبدل بعربته مركبة أفخر وأن يستبدل بتابعه موكباً من الخدم، وأن يستبدل ببيته الصغير قصراً ريفياً. يجب أن ينافس نبلاء (سوق الغرور) في ذلك السباق المجنون، فهو يكتب إلى أمه "إن توم كارليل يعيش معيشة تامة الجلال في بيت صغير (بشلسي) استأجره بأربعين جنيهاً. به خادم استكلندية عبوس تفتح الباب الذي يطرقه خيرة رجال المجتمع الإنجليزي". فإن مجده المنزوي ليس مما يروق ذوقه، فهو يريد ليكون من رجال المجتمع "أنظر إلى شهرة ديكنز" أن عليه هو أيضاً أن يكون نجماً يتألق في ندوات العالم وحاناته، إنه يتوق إلى أن يربته لورد (فلامدودل) بيده في ود، وأن تبسم له ليدي (فلامدودل) ابتسامتها تلك الأليفة الكريمة الحبيبة، وأن يتهامس به الخدم معجبين إذ يقدمون إليه الطعام في حفلات العشاء التي تقام لتكريمه. وكان يحلو له ترديد قصة الخادمين الإرلنديين اللذين استرق إليهما السمع إذ كان يتعشى في سانت لويس، فقال أحدهما "أتدري من يكون هذا الرجل؟" "كلا. أخبرني من يكون؟" "إنه ثاكر الشهير" "وماذا فعل"؟ "لست أدري ألا أنه رجل عظيم".

وكلما كتب قصة جديدة جعلت عظمته تزداد، وجعلت ألسنة الناس تلهج بتمجيده، وإن كانوا لا يدرون السبب. ذلك بأن كل الناس كانوا يعجبون به، وإن لم يقرأه منهم أحد، كما قال ناقد من معاصريه، حتى أن أروع قصص ثاكري.. قصة (هنري اسمند) التي كتب عنها ناشره الأمريكي (جيمس فيلدس) يقول "إني أظاهر ذلك الكتاب وأقف إلى جانبه، وإني على استعداد لأن أتركه حيثما اتنقل كأنه بطاقتي الشخصية" حتى هذه القصة قد وسمت بأنها أجمل قصص الأدب الإنجليزي وأقلها حظاً من إقبال الناس على قراءتها. كان الجمهور يلتهم التعليقات، ويتحدث عن أشخاص الرواية، ويمجد المؤلف، ويشتري الكتاب. ثم يتركه على نضد المكتبة دون أن يقطع ما بين أوراقه.

فلنقطع نحن ما بين أوراقه، ولنلق نظرة خاطفة على قصة (هنري اسهمند) في أواخر أيام أسرة (ستوارت) كان يقطن منزل ليدي (كسلوود) صبي ضئيل، كثير التفكير، اسمه هنري اسمند.. وهو كما يعتقد كل الناس ابن طبيعي للكونت توماس كسلوود. فإذا شب

الفتى الصغير، عهد بتربيته إلى الأب الجزويتي (هولت) وكان المشير الروحي لأسرة كسلوود.

ووافى الأجل عميد الأسرة وهو يعمل في خدمة الملك المخلوع جيمس. وصارت عمادة الأسرة إلى فرانسيس كسلوود. وارتضى هنري اسمند تغير الوضع بطريقته الهادئة المفكرة. فهؤلاء سادة جدد وتلك أعباء جديدة. وهذه فرصة عظمى جديدة. فإن ليدي كسلوود، تلك الشابة الجميلة التي تبدو أشبه بإبنة لفرانسيس منها بزوجته، كان بها ميل يعطفها إلى هنري، وكان هنري يكن لها شعوراً أقرب ما يكون إلى العبادة. وأصبح يحب ابنتها (بيتريكس) وابنها (فرانك) حب الأخ الوامق.

وفي أول الأمر كان السلام يرفرف على أسرة كسلوود. ثم حل بها أسف وأسى فإن إصابة بالجدري قد شوهت وجه ليدي كسلوود، فوجد زوجها عزاءه في أحضان امرأة أخرى لكن فتور الكونت نحو زوجته لا يمنعه من أن يغار حين يحاول التودد إليها رجل آخر يقال له لورد موهون، فتحدى لورد موهون إلى المبارزة، وإذا كان هنري قد بلغ مبلغ الرجال فقد حاول أن يحارب مكان سيده. لكن ألكونت عقد العزم على الثأر لنفسه بنفسه. وفي المبارزة قتل واعترف الكونت قبل موته مباشرة أن هنري اسمند هو الابن الحقيقي لتومس كسلوود. لذا فهو المالك الشرعي لأملاك كسلوود، لكن إخلاص هنري لليدي كسلوود وولديها كان أعظم من حبه للمجد الشخصي. فأحرق الاعتراف وظل خادماً في المنزل، بل ظل خادماً بغيضاً أيضاً، فإنه لمستلق أثخنته الجراح التي اصابته في المبارزة إذ تتهمه ليدي كاسلوود بأنه هو الذي جلب الموت على زوجها. ولا يقوى هنري على احتمال الحياة في تلك الظروف، فيتطوع في الجيش ويحارب ويصاب بجراح تحت امرة مارلبرو، ثم يرقى تدريجاً حتى يصل إلى رتبة القائم مقام، ويصبح ياورا للجنرال (وب).

وأخيراً يقابله معلمه الأب هولت وهو يحارب في الأراضي الواطئة، فيخبره القسيس بحقيقة أصله. فإن أبا هنري، الكونت توماس كسلوود

قد تزوج من أمه– وكانت ابنة نساج– ثم هجرها. وقد توفيت في دير، وأخذه أبوه

إلى منزله كما يؤخذ اللقيط ليربي صدقة وإحساناً.

ولكن هنري ما برح يحتفل بسر أصله لا يبوح به لأحد. فواجبه ألا يؤذي من يحب. وإن كانوا لم يعودوا يبادلونه الحب. وكان يصلي ذات يوم بكنيسة ونشستر ففرح بأن دعاءه قد أجيب. فإن ليدي كسلوود لتقف هناك قبالته. ولا تلتقي عيناهما حتى يعاود قلبيهما ذلك الود القديم.

وتعود الآن إلى قلب هنري اسمند عاطفة جديدة. فقد أحب بيتريكس حباً قاهراً غلاباً. وهي الآن في السادسة عشرة من عمرها تعمل وصيفة شرف بالبلاط الملكي. وهي عادة غنجه مدللة كأفتن الغيد اللائي صدعن قلوب الرجال، وظل هنري عشر سنين لا تريم عنها آماله.. ولا جدوى.

فليس بها أقل ميل إلى هذا الجندي الذي لا مال لديه ولا لقب. بينما كثير من رجال الحاشية اللامعين قد خفضوا الجناح لنار سحرها فاستشاط منهم الجناح. فيجد حب هنري القديم لآل كسلوود مخرجاً جديداً وقتئذ. هو الولاء لأخي بيتر يكس ويدعى فرانك. وهو صبي يشابه أخته في الإغضاء عن العواقب والسحر والجاذبية. حارب معه هنري وحماه في معارك كثيرة. وتوفر على تربيته. واهتم اهتماماً أبوياً لا يخلو من توجس بزواجه من نبيلة هولندية تكبره كثيراً في السن.

في تلك الأثناء كانت بيتر يكس ماضية في مسلاتها التي لا تخلو من أملال.. مسلاة تحطيم القلوب. ووصلت الآن إلى تحطيم قلبها هي. فهي تجاوز ربيع جمالها مسرعة وتظل على ذلك غير متزوجة. كان الرجال يهيمون بها عشقاً ثم يخطبونها ثم يتركونها في طلب صيد أصلح. ولكنها أقامت على رفضها هنري اسمند رجاء أن تصيب خيراً منه.. وأخيراً وجدت ضالتها المنشودة.. في دوق هملتون وهو أرمل له من المكانة والعمر ضعف ما لها من المكانة والعمر، واستسلم هنري اسمند لمصيره، وقدم لها هدية زواج عقداً من ألماس جميلاً كان قد أخذه من ليدي توماس كسلوود، زوجة أبيه (الثانية).

لكن دوق هملتون يرفض الهدية. ويصر على ألا تقبل عروسه هدية من رجل ليس له

لقب ولا جاه. فأجابت أم بيتر يكس وقد تولاها الغضب: إنه صاحب لقب فهو الابن القانوني للكونت كسلوود، وهو الوارث الشرعي لأملاكه وما نحن إلا صنيعة إحسانه، وشرحت السيدة النبيلة كيف سمعت قصة أصل هنري من الكونتيسة العجوز– وأن هنري لم ينبس ببنت شفة عنها لأي إنسان. وكانت ليلة زفاف بيتر يكس إلى دوق هاملتون. فقامت مبارزة بين الدوق واللعنة التي صبت على آل كسلوود من قديم، متمثلة في لورد موهون ويقتل هملتون في المبارزة وتترك بيتر يكس وحيدة مرة أخرى.

ولكنها لا تزال ترفض هنري. فإن رجلاً آخر يهفو لها ويميل... وهو خير ما تهيأ لها من صيد.. هو أمير ستوارت الشاب الذي يطالب بعرش إنجلترا. ولكن الأمير كان يحب أن يتخذها خليلة لا حليله، وكان هنري اسمند وفرانك كسلوود، أخو بتر يكس من أنصار الأمير ستوارت، فإذا عرفا نوايا الأمير حطما سيفيهما ولعنا الأمير وتركاه لنهايته السيئة.

فإذا هرب الأمير وبيتر يكس إلى فرنسا كان جولندن يتجاوب بالصيحة المكهربة "ماتت الملكة آن. يحيا الملك الجديد جورج هانوفر" أما هنري اسمند والسيدة كسلوود فقد ثاب كل منهما إلى صاحبه يلتمس العزاء والسلوى وأثمر العزاء والسلوى حباً وزواجاً. فإن حب السنين الخوالي قد بعث جديداً "ذلك بأن الحب القديم هو الحب الجديد وهو خير حب".

–٥–

كانت خبرة ثاكري بالحب القديم أشبه بخبرة هنري اسمند بالحب القديم ذلك أن ديكنز كان من أقدم صحاب ثاكري وخيرهم. ولكن نشب بينهما خلاف. وأن المتنافسين في الأدب لتكفي شرارة لأن تلهب بينهما نار الشقاق.. وظل الصديقان سنين طويلة لا يتبادلان الحديث. ثم حدث ذات مساء، وكان ثاكري قد بلغ الثالثة والخمسين، أن تقابل الرجلان على درج الأثينيوم فمد ثاكري يده مندفعًا ليسلم على ديكنز. ورد ديكنز عليه التحية... واختفى بينهما الخصام القديم.

وكأن ثاكري قد علم أن من واجبه الإسراع بتوديع صديقة القديم. فما هي غير بضع

ليال حتى أقبل يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٦٣، فذهب ثاكري لينام نومته الأخيرة.

لقد نادى المدرس اسمه من الثبت فأجاب ثاكري في دعة، كما أجاب الكولونيل الحبيب نيو كوم في إحدى رواياته "لبيك".

أهم مؤلفات ثاكري

The Great Hoggarty Diamond
The Yellowplush Papers
Barry Lyndon
The Book of Snobs
Vanity Fair
Henry Esmond
The Newcomes
The Virginian
Lovel the Widower
Pendennis

وكثير من المقالات والقصائد

شارلز ديكنز

١٨١٢ - ١٨٧٠

كانت دنيا شارلز ديكنز هي دنيا الأطفال أولى الظرف والطيش والتعثر والخبث والدعابة والتفاؤل. وكان هو واحداً من هؤلاء الأطفال.

ولكن طفولته الشخصية كانت خلوا من الدعابة والتفاؤل. كان ضئيلاً عليلاً قد ساءت تغذيته،

تصيبه بين الحين والحين نوبات من التقلص، فقال أبوه: "لن يعيش هذا الطفل حتى يقاسي المرارة التي يقاسيها الكبار".

وكان أبوه يقاسي المرارة دائماً، وكان يتقاسمها مع أسرته في سخاء وجود.

كان كاتباً في ميناء (برتسي)، يكسب رزقه في بطء فائق، وينفقه في سرعة فائقة فكان عليه دائماً أن يسبح في بحر من الدين يرتفع مده أبداً.

فإذا بلغ شارلز عامه الثاني نقل أبوه إلى لندن. ومعنى هذا ارتفاع يسير في مرتبه وزيادة كبرى في وجوه إنفاق هذا الراتب. ومما زاد الطين بلة أن جون ديكنز لم يكن خليعاً مستهتراً وحسب. بل كان كذلك مخصباً مكثراً. فما مضت بضعة أعوام حتى أخرج إلى الوجود ثمانية أطفال.

وأحال مسئولية إعالتهم إلى رب رحيم. أما هو فقد لاذ بالأمن والسلام في سجن المدينين في (مارشل سي).

في مثل هذه البيئة لم يكن أمام شارلز فرصة للتعلم المنظم. فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب على ركبتي أمه. وتعلم قليلاً من اللاتينية في مدرسة يملكها القسيس (جيلز). وكان يزور المسرح من حين لحين في حراسة ابن خاله (جيمس لاميرت) وحين

بلغ الحادية عشرة كان قد انتقل من التعلم إلى التكسب.

وكان في أول أمره يربح بضعة بنسات من غناء هزلي للمصطافين في (ليم هاوس) قال أحد المبتهجين من عامة الناس في لندن "ألا ما أشد غرابة هذا الصبي". غير أن شارلز كان يضيع مواهبه في جوب الآفاق.

فالغناء لا يدر ما يكفي أولئك الذين عبس لهم وجه العالم. لذا وجد له أبوه– بمعونة جيمس لميرت– عملاً أكثر مادية. عمل لاصق للأشرطة بمصنع لدهان الأحذية في (هنجر فورد ستيرز).

وكان عملاً كئيباً مملاً يتطلب الوقوف بواجهة المصنع للصق الأشرطة، من مشرق الشمس إلى مغربها، بينما تقف حشود المارة تعلق على الصبي الصغير ذي الأصابع الرشيقة. لكنه كان يشعر في آخر الأسبوع أنه رجل غني بذلك المرتب الخيالي (ستة شلنات) أي نحو دولار ونصف. وكان ينفق منها بنسين. وما أبهظه من ثمن.. في شراء قطعة من الحلوى البائتة، ويحمل باقي المبلغ إلى أبويه. فإذا كان يوم الأحد خرج للنزهة مع أبيه، وكان قد أطلق سراحه من سجن المدينين حينذاك. فيدعان حياة الجزء الخشن من لندن إلى عالم الخيال. وكان يروقه في أرض الخيال بحي الأغنياء قصر فخم. فقال له أبوه "إنك أن تثابر وتجد فقد تقطن هذا القصر يوماً ما".

فقال شارلز في نفسه "يا له من حلم مستحيل التحقيق".

–٢–

وكلما علت السن بديكنز زاد جداً ومثابرة وطموحاً، وهو أن أعجزه أن يعيش في أرض الخيال فعلاً، فلعله مستطيع خلق أرض خيالية، فقرر الاشتغال بالأدب.

وبدأ حياته الأدبية بأن أسس وحرر جريدة في (أكاديمية ولنتجن هوس) وهي مدرسة كان يختلف إليها في فترات قصيرة تتخلل عمله.

وكان هو أيضاً متعهد البيع لجريدته. فعد نفسه رجلاً من أنجح رجال الأعمال، إذ

كان يبيع مجلته (بالبلى) وقطع من أقلام الأردواز. لكن أبويه كانا بحاجة إلى أن يتعيشا بشيء أكثر من البلى وأقلام الأردواز.

فأخرجاه من المدرسة في عامه الخامس عشر وألحقاه بمكتب محام.

ولكن ديكنز لا يحب أن يشتغل بالمحاماة، فقد قرر أن يكون أديباً. فعلم نفسه الاختزال "وأخذ يسجل مشهد الكون، مشهد الإنسانية التي تلهث طرباً وصخباً" وصار يشتغل في عامه العشرين في النهار مراسلاً برلمانياً، ويكتب بالليل صوراً خيالية من حياة لندن. وكان يمهر هذه الصور بتوقيع (بوز).

وقد نشر بعض هذه الصور بلا أجر في صحيفة يقال لها المجلة الشهرية.

ويحدثنا عن نفسه حين رأى أولى قصصه بتوقيع (بوز) مطبوعة منشورة. أنه ولى وجهه شطر قاعة وستمنستر "ولبث فيها نصف الساعة، فإن عيني قد أغشاهما السرور والزهو بحيث لا يحتملان ضوء الشارع".

وكان (بوز) الشاب يحيا في هذه الأيام حياة ممتعة مليئة بالحوادث زاخرة بالجهد الذي لا يكل. فهو في ساعات العمل أعنف المزاحمين وأشدهم مراساً. وهو في ساعات اللعب أكثرهم بشاشة وأوفرهم مرحاً. ويقول عنه لي هنت (وقد أخذه العجب) "أي وجه ذاك الذي يلقاك به في حجرة الاستقبال. إن به من الحيوية والروح مثل ما في خمسين إنساناً مجتمعين".

ومع ذلك فإن ما في وجهه من الحيوية والروح، أو قل إن ما في جيبه من المال لم يكن يكفيه كسب الشخص الوحيد الذي يحبه ويؤثره على كافة الناس. وهو ابنة أحد مديري المصارف، ماريا بيدنل "إن ديكنز شاب لطيف لكنه أديب، فهل يستطيع أن يعولني بقلمه؟".

وهكذا فقد ديكنز ماريا، فتزوجت رجلاً أغنى منه لم يلبث أن أفلس بعد أعوام قليلة. وثابر ديكنز على كتابة القصص فأصبح من أغنى رجال إنجلترا.

وقد نزل أول الغيث على ديكنز في أوائل الحلقة الثالثة من عمره. ذلك بأن (صور بوز) قد لفتت إليه أنظار الناشرين "شابمان وهول" فتعاقدا معه على كتابة تعليقات شهرية حول صور هزلية يرسمها الفنان الشعبي روبرت سيمور. وقد طلبت هذه التعليقات كما يطلب ركن تقليدي محرر بالأجر. لكن هذه التعليقات التي جرى بها قلمه، قد استحالت إلى أوراق بكوك الخالدة. ولم تجد الأعداد الأولى من (أوراق بكوك) كثير رواج. لكنها بعثت فيه الشجاعة على أن يتزوج مختارته الثانية من النساء، كاثرين هوجارث.

ثم أصابته صدمة مفاجئة، هي انتحار روبرت سيمور، ثم ومضة مفاجئة من ومضات السعد، إذ صار الرسام الجديد هابلوت نيت إرون الذي يوقع باسم: (فز).

وكتب النجاح لأوراق (بكوك) منذ ذلك الحين، فقد تعاون (بوز) و (فز) تعاوناً تاماً، وصار كل منهما يستفز صاحبه إلى قمم من اللغو السامي، فألفت مقطوعات تبكي إذ تضحك وتضحك إذ تبكي.

ولقد اضطر كذلك أن يبكي إذ يضحك حين كتابة أوراق بكوك. ذلك بأنه فقد ماري هوجارث شقيقة زوجة التي كانت تقيم معهما منذ الزواج. فظل شهرين لا يستطيع مواصلة كتابة سلسلته. وقال الناشرون يفسرون تخلفه "منذ ظهور العدد الأخير من هذا المؤلف منى الكاتب بفقد شابة من أقربائه عزيزة جداً عليه، تربطه بها صداقة وثيقة ومودة وطيدة، وكانت صحبتها عزاء له في كده زماناً طويلاً".

ولم يبرأ برءاً تاماً من حزنه، حتى أن كل ما كتبه من مشاهد الموت فيما بعد لا يعدو أن يكون بعثاً للجرح القديم. فإذا عاد إلى أوراق بكوك كان شيخاً حزيناً حكيماً في الرابعة والعشرين من عمره.

وكان هوى لندن. فقد أزينت المدينة بقبعات بوز، وأربطة بكوك، وقماش سام ولر. كتب أحد المعاصرين "ليس في إنجلترا مكان الأولجه (بوز) فدكتور بنيامين برودى يصطحبه في عربته من مريض إلى مريض، ولورد دنمان يطالع بكوك على المنصة بينما

المحلفون يتفكرون. ويقول رجل لقسيس وقد أوشك على الموت: "أحمد الله.. إني أستطيع الموت في سلام، فقد فرغت لتوي من قراءة الحلقة الأخيرة من بكوك".

وكان من أثر ذيوع شهرته أن أغرقة الناشرون في بحر من العقود.

فتعاقدوا معه على كتابة المقالات والأقاصيص والقصص. وكان يقبل كل شيء "فما أقصر الحياة، وما أزخر مخيلتي بشخصيات تضرع إلى أن أخرجها إلى الحياة، وكان الإجهاد يقتله. فإنه يكتب في عام واحد، وآن واحد، ثلاث قصص طويلة ويحرر مجلة، ويخط في ساعات فراغه مسرحية غنائية قصيرة ورواية فكاهية.

ويقفز في المساء قفزته الحبيبة إلى المجتمع.. لا مجتمع النبلاء، بل مجتمع المثقفين الذين هم في الأرض بمثابة الملح في العام. ومن أمتع ما رسم ديكنز من الأشخاص شخصه الباسم كأنه زهرة متفتحة في حجرة الأضياف، وقد تألق في صدريته الزرقاء الفاتنة وسرواله الأزرق الفاتح.

ورباط عنقه القرمزي، وعينيه اللتين تشعان على كل فرد وعلى الجمع نوراً ينطق (ألا فليبارك الله).

لقد أحرق شمعة حياته من طرفيها جميعاً، وأبهجه شهود الوهج، وأسرف على ماله وصحته، وأكثر من كتبه، وزاد من شهرته وضاعف من عدد أسرته، لكنه ضاعفها من امرأة لا يحبها. ولم تكن كاثرين دميمة الجسم، بل كانت خرقاء العقل غافلة. فهي تحك ذقنها في كل كرسي تمر به. وتثور لدواع تافهة. وترتاب في صاحبها. وتنتابها ثورات مفاجئة ليس لها مبرر. ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن هذه الصورة هي ما نراه بعيني ديكنز.

ولا ريب أن لديها ما تقوله لكنها– وا أسفاه– لم تؤت براعة زوجها في عرض وجهة نظره. ومع ذلك فلابد في زوجة رجل نابه عبدته نساء إنجلترا أجمعين من أن تكون على حظ من اللباقة غير عادي. ولم يقسم هذا الحظ لكاثرين ديكنز.

ومهما يكن من سبب لهذا الشقاق بين الزوجين، فقد كان على ديكنز أن يمزج بحساء النجاح الدسم مرارة الشقاق الزوجي. ورضي عن طعم هذا الحساء وواصل عمله.

وقام في عامه الثلاثين برحلته الأولى إلى أمريكا.. وقد بدأت هذه الرحلة بشوق وتلهف من الطرفين، وانتهت بالجفاء وخيبة الأمل من الطرفين.

فبعد أن جال جولة مظفرة بين المحاضرات وحفلات العشاء وتهليل الناس له في بوستن ونيويورك وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنطن وغيرها من المدن الأمريكية الكثيرة، أخذ يتبدى له العالم الجديد، وأخذ هو يتبدي للعالم الجديد، مهرجاً عاطفياً محتالاً. فالألفة بينهما أثمرت الازدراء المتبادل. وكان كلاهما يميل إلى التهويل في أخطاء الآخر. فهو يقول لقد تعود الأمريكيون الإسراف في البصق ثم يقول في وصف ما شهد مرة في أثناء رحلة بالقطار (لقد طارت قذائف من البصاق في استمرار متصل من النوافذ على طول الطريق حتى بدا كأن حشايا من الزغب قد فتحت من وراء النوافذ، فعصفت بها الريح) وتشكو أمريكا ديكنز هي الأخرى

فتقول: (إنه يعض اليد التي تصب المال في جيبه صباً، فيا له من طفيلي كفور).

وإذا كان كلاهما يهول في عيوب الآخر، فإن لكليهما كثيراً من الحق في شكاته. فلقد قاسى ديكنز من قرصنة الناشرين الأمريكيين، لأن قانون الملكية الأدبية الأمريكي قد سمح بنشر كتبه في هذه البلاد دون أن يدفع له مقابل. وهو يشير إلى هذا الإجحاف في كثير من محاضراته فيعترض سامعوه على إثارة مشكلة شخصية في اجتماع عام. لذلك كان فراقه أمريكا داعياً إلى أن يتنفس الجميع الصعداء. وقال أحد المعجبين به مازحاً: (أود أن يكون مستر ديكنز والأمريكيين فرحين بهذه الصفقة).

عاد ديكنز إلى إنجلترا يخوض سلسلة طويلة من المعارك من أجل المستضعفين والمعذبين في الأرض، وكانت معارك بهيجة، خاضها بسلاح القصص، بقلم ساخر، وقلب شاعر. جعل يعنف ويلوم ويمتع ويهدد وينذر ويغري الحكومة الإنجليزية بالإصلاح أثر الإصلاح.

ويقول ثاكري في شيء من التعلل الحاقد أن قصص ديكنز قد كتبت لقوم كبار، لهم

عقول الصغار. فيشكره ديكنز على ملاحظته تلك ويقول (هذه هي الحقيقة بالضبط، فإني أكتب لبني الإنسان) وهو جنس أميل إلى الغباء منه إلى الشر.

وإذ كان الرجال أطفالاً ملتحين فحسب، فإنك تستطيع أن تثير ضحكهم من حماقتهم، بأن تريهم معرضاً هزلياً لصورهم في مواقف خرقاء. وأن الجولة في قصص ديكنز لأشبه بجولة في معرض للمرايا المحدبة والمقعرة، أرأيت إلى كل هؤلاء الناس ومهازلهم المضحكة: ميكوبر، بكوك، ولر، سارجنت بوزفوز، شارلس شريبل، سميك، سميزر، كويلب، سكروج، ديك سويفلر، بوب كراتشيت، توم بنش؟

وهل هؤلاء إلا أنفسنا كما نتراءى في مرايا المعرض؟ إن أسماءنا نفسها تنقلب وتنعكس فتأخذ أشكالاً مضحكة. لكن يا له من وصف صادق، ويا لها من صور خالدة لن تمحى من ذاكرتنا، أنظر إليه كيف يستطيع في كلمات قليلة أن يخلد صورة لرجل "لقد ظل (جون شنزلوت) يحشد كل نفيس في خزانة منيعة، حتى حشد جثمانه غير النفيس في خزانة منيعة، هي التابوت".

لقد قيل إن إنجلترا قد أنجبت اثنين من أكبر فناني العالم، هما "رينولدس" راسم الجسم البشري، و "دكنز" الراسم الهزلي للروح البشري.

-٥-

لكن ديكنز كان أجل من رسام. فهو قصاص بارع، ينسج خطة القصة في سهولة أثارت حقد تاكري الذي كان يفوقه من حيث الفلسفة ويقصر عنه من حيث الخيال "عبثاً أحاول سبق هذا الرجل أو محاذاته" كذلك قال يوماً مؤلف سوق الغرور "إني لا أستطيع أن ألمسه أو ألحق بغباره".

على أن شتى قصص ديكنز يوجد بها شيء من حياته. قال أحد معاصريه: "لكان هذا الرجل قد شهد كل مكان وعرف كل إنسان وشاركه تجاربه". فكل قصة تشير إلى رحلته في العالم جسماً وروحاً. ويصدق هذا الوصف على قصص شارلز ديكنز عامة، وعلى دافيد كوبر فيلد خاصة.

قال ديكنز: إن شئت أن تعرف سيرتي فاقرأ دافيد كوبر فيلد.

لكن يجب أن نؤكد أن هذا الكتاب هو رواية خيالية لحياته "أما التفصيلات الحقة لحياتي فاحتفظ بها لنفسي"، كذلك قال لمن نقل دافيد كوبر فيلد إلى الفرنسية فدافيد كوبر فيلد: صورة هزلية لديكنز كما يرى من خلال عبقريته المازحة. إن الأحرف الأولى نفسها لدافيد كوبر فيلد D.C

هي مقلوب الأحرف الأولى لشارلز ديكنز (C.D) وكان دافيد من أبناء الفقر كما كان شارلز، لكنه يخالف شارلز في أنه اضطر إلى العيش مع زوج أم قاس يدعى (ادوارد ميردستون) فإذا بلغ دافيد وشارلز سن الحادية عشرة، أخذ كل منهما يعمل في مصنع لدهان الأحذية.

وهنا أيضاً يختلط الخيال بالحقيقة. فإن دافيد آبان اشتغاله بالمصنع يساكن مستر (ولكنز مكوبر وزوجته) وسلالتهما من صغار الأطفال. وكان منزل مكوبر هو في الحقيقة منزل أسرة دكنز وولكنز مكوبر هو أبو شارلز.. وهو رجل محبوب قليل الحول عنيف، يؤمن إيماناً أعمى برحمة السماء. رجل يتوقع أن يأتي الخير بغتة، ولكنه لا يحرك قط أصبعاً ليعين على إتيانه. وقد ضيق عليه دائنوه الخناق، حتى ألقى به في غيابه سجن المدينين. ويتكرر وقوعه في قبضة مستغلين لا يتورعون. وتمكن أخيراً بمعونة خالة دافيد من أن يبدأ حياة جديدة في أستراليا، وكان هذا أغلب الظن هو ما يتمنى شارلز ديكنز أن يقع لأبيه... أن يكون سالماً معافى محبوباً، لكنه بعيد عن بصره ما أمكن. لأن جون ديكنز، كان لاينى عن تبديد مال ابنه وبعث القلق والارتباك في عقل هذا الابن.

وباقي القصة أيضاً نسيج بارع يضم الحقيقة والخيال. فدافيد–كشارلز– يشتغل كاتباً لدى أحد المحامين، ويتعلم الاختزال ويصبح كاتباً ناجحاً. ويتزوج من امرأة ضئيلة لطيفة فآتوة العواطف.

وهنا يقف التشابه بينهما مرة أخرى. فدافيد يفقد زوجته ويبنى بامرأة أكثر ملاءمة له. وهذا ما قد يفسره المحدثون في تحليل النفس بأنه تحقيق رغبة لشارلز ديكنز.

أما باقي القصة. وهو زواج الخادمة (بيجوتي) للحوذي (باركيس) المطواع أبداً، ونفاق وافتضاح (أور ياهيب) وخيانة اميلي الصغير وموت حبيبها (هام) حين يحاول إنقاذ خائنها (ستيرفورث) الذي خانها لما تحطمت السفينة.. فكل هذه الفصول والشخصيات مبعثها الجانب الخيالي من حياة شارلز ديكنز.. ومع أنها خيالية، فإن هذا لا يغض من صدقها عند المؤلف. فإنه من الصعب أن ترسم الفواصل بين الخيال وعقل الفنان المبدع. وأن ديكنز ليقول "إني أحيا مع كل شخصية من شخصيات قصصي".

-٦-

وكلما علت به السن، زاد حبه لصحبة الناس. فلقد صارت حياته دوارة من تلك الدوارات المثيرة للمرح. فهو أبداً يؤلف كتباً جديدة ويعقد صداقات جديدة ويتعلم في الرقص خطوات جديدة.

وتحدثنا ابنته أنه تعلم مرة خطوة معقدة صعبة. فإذا كان منتصف ليلة باردة قفز من مخدعه وأخذ يدرب نفسه عليها في مصاحبة نغمات صفيره، مما أثار عليه أفراد أسرته الذين أيقظهم من سباتهم.

أنه طفل غير مسئول، فيه قلق وفيه تقلب وفيه إسراف. ما أسرع ما كان يرد إليه المال وما أسرع ما كان يصدر عنه. كان يدري أن حياته دوار سكرى. وكان يبتهج لذلك فهو يقول في تباه واعتزاز. إن ثلاثة أرباعي جنون والربع الباقي هذيان. وإن عقله الذي جاب من الآفاق ما لم تستشرفه معظم العقول الأخرى قد دخل الآن في طريق جديدة مثيرة. وسار في أثره جسمه العاني غير عابئ بالعواقب. فجعل من نفسه مخرجاً مسرحياً ومديراً للإنتاج وممثلاً، وجاب الريف ذهوباً وجيئة مع نفر بلغوا من الجنون ما بلغ، يحيى التمثيليات القديمة، ويكتب أخرى جديدة. ويغازل في مرح، مخلفاً وراءه في كل مكان آثاراً من الحب والضحك.

وكان أحب شيء إليه إخراج تمثيليات للأطفال. ذلك بأنه خير من يفهمهم وهم خير من يفهمونه.

ومهما تبلغ شواغله من الكثرة والإلحاح، فإنها لا تعوقه عن تسليتهم. فكان بيته مليئاً بالأطفال دائماً. فقد بلغ عدد أولاده الآن عشرة، دعك من رفاقهم الصغار الكثيرين الذين يأتون لزيارتهم "وكثيراً ما كان العم بوز يقطع الجملة من وسطها لينصرف إلى مداعبة الصغار دعابة عنيفة" كما تقول ابنته.

إن ديكنز في موقفه من الأطفال ليتبدى في أشد حالاته مرحاً وأشدها رقة. كذلك حدثنا أحد أصحابه إنه كان يجوس وإياه خلال الأحياء الفقيرة ذات ليلة باردة من ليالي الشتاء، وكان الفجر يقترب والزمهرير القارسي- يكاد يقتحم جسمي وينفذ مني إلى صميم عظامي "وكنا نمر بنزل فقير، فماهي إلا أن رأيته يختطف طفلاً صغيراً من بين ذراعي أمة السكري المسكينة ويحمله إلى داخل النزل بما كان عليه من قذارة، ليمنحه الدفء والعناية".

وهذا صديق آخر من أصدقائه يصوره في صورة تشبه هذه جمالاً "كان يسير مع ديكنز خلال سوق هرجرفورد، وكان يسير أمامهما أحد عمال الفحم وقد حمل طفلاً يطل وجهه المتورد القذر من وراء كتف أبيه. فغمز ديكنز للطفل وغمز الطفل لديكنز يرد عليه تحيته.. وبعد إذ استقر التفاهم بينهما على هذا النحو اشترى ديكنز كيساً من الكرز من بائع الفاكهة وأطعمها الطفل جميعاً واحدة واحدة دون أن يلاحظ الأب من الملهاة الصغيرة شيئاً".

فالحياة -كلها- كما يعلم ديكنز والأطفال- يمكن أن تحال إلى ملهاة لو أنك نظرت إليها النظرة الصادقة. فإن القدر أيضاً كان يطعم ديكنز الكرز، ويمنحه السرور العظيم، والمذاق الممتع.

ثم أصابه التلبك في آخر الأمر. فقد اشترى ديكنز قصر (جادزهيل) وهو القصر الذي أخبره أبوه مرة أنه قد يمتلكه يوماً ما إذا هو جد وثابر. وامتلاك هذا المنزل والسهر عليه يتطلبان مزيداً من المثابرة والجد، ومزيداً من الأصدقاء والتسلية، ومزيداً من التنغيص على زوجته والانفصال الحاسم منها آخر الأمر.

وتبع ذلك انهيار في صحته، لكن عمله متواصل لا ينقطع. فنفقان تتزايد، والجمهور الظامئ يتصايح بطلب المزيد من قصصه ورؤية شخصه. وتعاقد على سلسلة من الجلسات يقرأ فيها رواياته على الجمهور.. في إنجلترا وأمريكا وكان يصيب في كل مكان غدقاً من الذهب وضجيج الاستحسان.

كتب من اكستر إلى صديق له في لندن "لم أشهد شيئاً قط كالحب الشخصي الذي يغدقونه علي" وهذه امرأة توقفه في شارع بنيويورك وهي تقول "مستر ديكنز هلا أذنت لي في لمس اليد التي ملأت بيتي بعدد كبير جداً من الأصدقاء) ويبدو أن كل من قرأ قصصي متلهف على أن يسمعني اقرأها من جديد.

ولا عجب. فهذا الرجل، كما قالت سيدة من بوستن، هو ساحر لا ريب في ذاك، قد اجتمع فيه رهط كامل من البشر. فهو يكاد أن يبدل بجسمه جسماً آخر كلما انتقل من شخص في القصة إلى شخص آخر. وأن له من الأصوات مثلما حوت كتبه من الأشخاص. وأحياناً كانت عاصفة جائحة من الاستحسان تعصف بالجمع كله، فما كان شيء يوقف الضحك وانبجاس الدموع، واصطفاق الأكف، والقرع بالأقدام، والهتافات الداوية المحمومة "أعدها ثانية أعدها" ثم "أعدها أيضاً".

وكان ديكنز يرد المعجبين إلى الهدوء بإعاداته، ويجمع ما كسب، وينزف قوته نزفاً، ويعود من رحلة في أمريكا استغرقت خمسة أشهر وقد حمل جيبه مائة ألف دولار– وحمل وجهه طابع الموت.

وإذا كان قلبه ما برح قلب طفل، فإن جسمه غدا جسم شيخ طاعن في السن. كتب أحد أصدقائه في مفكرته (إن أقل استثارة لشعوره تدفع بالدم إلى يديه حتى لتضربان أحياناً إلى السواد. وتلبك هضمه بحيث لم يستطع أكل الطعام اليابس، فكانت قائمة طعامه اليومي تشتمل على قدر يسير من القديد المبلل في القشدة، وقدح من حساء البقر، وكوب من نبيذ شري، ومشروب (اجنوج) مضافاً إليه قليل من الروم ليضفي عليه طعماً لا يعافه. وكان أبداً مصاباً بالأرق، ويستشعر في قدمه اليسرى خدراً خاصاً

"كأن جزءاً مني قد مات فعلاً".

لكنه لايني عن مطالعاته خلال الربيع من عام ١٨٦٩. ثم يقضي راحة قصيرة في منتصف الصيف، ويستأنف المطالعة خلال الخريف والشتاء من ١٨٦٩ والربيع من عام ١٨٧٠.

ثم تقصر قوته عن بذل الجهد. فهو يقول في آخر مرة ظهر فيها على الناس "إني لأتوارى عن هذه الأضواء الزاهية إلى الأبد.. فوداع محزون شاعر بالفضل قادر للجميل يحمل لكم الحب والأكبار".

وما هي إلا بضعة أسابيع ثم ظهر لأول مرة أمام جمهوره الجديد،

جمهور خالد من الأطفال المرحين (وهل تحوي مملكة السماء غير هؤلاء).

أهم مؤلفات ديكنز

Pickwick Papers
Oliver Twist
Nicholas Nickleby
Barnaby Rudge
The Old Curiosity Shop
Martin Chuzzlewit
Our Mutual Friend
Dombey and Son
David Copperfield
Bleak House
Hard Times
Little Dorritt
A Tale of Two Cities
Great Expectations

فيودورميخائيلوفتش دستويفسكي

١٨٢١- ١٨٨١

كان آل دوستويفسكي في أول أمرهم أسرة كاثولوليكية من لتوانيا– يجري في عروقها دم أهل الشمال– وإذ كانت قد تحدرت من أصلابه قسيس أرذوكسي يوناني، فقد تميزت بالكبرياء والتزمت والورع، والفقر المدقع. لقد كانوا مشوقين إلى كلمة الله والي الحنطة، وقد رحلوا إلى أوكرانيا، وغيروا ديانتهم إلى ديانة أكثر انسجاماً مع دمهم الإسكندناوي والتمسوا الطعام والجواب الأبدي على سؤال الروح الأبدي. لقد كانوا رهطاً أولى عقول، قد يذهبون إلى أي مكان عفو الخاطر– إلى الجنة أو إلى اللعنة، ولكنهم لا يذهبون أبداً في غمرة الهمل.

ولد فيودور عام ١٨٢١ من هذه السلالة العجيبة من الكاثوليكية الإسكندناوية التي يكسوها الجلال. وكان أبوه من هيئة الأطباء بمستشفى للفقراء. وقد أوحى هذا الموقف إلى الصبي بأن وجود أولى العقول ليس مرده إلى عقولهم بل إلى أنهم أطباء للفقراء.

وأن موسكو في الشتاء لتتخللها ريح لا تكتفي بأحداث صفير موسيقى في الأذن بل إنها لتصمى القلب كأنها السيف.

وكان مستشفى دوستويفسكي زاخراً بألوان قسوة الطبيعة بالإنسان وفي الصيف حيث تدفأ الريح، كنت ترى أطفالاً ذوي رجل واحدة، ورجالاً طاعنين في السن يموتون موتاً بطيئاً من أثر القذارة والمرض. يطلعون في حديقة المستشفى المجاور لمنزل فيودور، كأنهم علامات الاستفهام قد جن جنونها على صفحة الطبيعة الباسمة.

كانت حديقة المرضى هذه أولى ذكريات فيودور، ولقد فطن في سن باكرة للتناقض العجيب في أمر الحياة، شقاء الإنسان وسط بهاء الطبيعة. وهذا الصدام بين متناقضات الحياة هز منه أعماق الفؤاد.

وكان جدار مرتفع يفصل بيت فيودور عن الحديقة، ولكنه لا يستطيع المشي حتى يختفي الحاجز بينه وبين هذا الجمال، وهذه الشقوة. إذ كان بالجدار باب ففتحه.

ثم كان مساء. فإذا أبوه ثائر مستشاط اللب، يقفل الباب في وجهه بعنف، ويخبره ألا يعود إلى فتحه أبداً. ولكن فيودور كان يعلم أن الباب في انتظار أن يفتح بيد أحد الناس، ممن يتحدون الضرب بل ويرحبون به، وقرر أنه ما بقي أبوه على احتفاظه بالمفتاح كأنه السجان، فسيقوم بضرب نفسه ثلاث مرات يومياً التماساً للسرور الذي يحظى به في المعاناة، مع هؤلاء العانين على الجانب الآخر من الجدار، العانين وسط مجالي الجمال.

إن على الإنسان أن يألم لكي يتنزه في حديقة، وكان الدكتور دوستويفسكي شديد الحزم في معاملة فيودور وأخيه ميخائيل. فحيثما كان باب في الجدار سارع بإغلاقه، وإذا لم يكن جدار سارع ببناء جدار، ولم يسمح للصبيين بمصاحبة أي إنسان من خارج الأسرة. ونجم عن هذا الحزم أن صار فيودور صبياً متوحداً.

فلما التحق بمدرسة الهندسة في بترسبرج في السادسة عشرة من عمره ظن المدرسون والطلاب أنه متغرطس. فلم يكن له من رفيق غير أحلامه (إني أحلم بالعظمة والجمال. إني أحيا في دنيا الأحلام وسأكتب مسرحية عاطفية).

إنه يعيش في عالم المعاني المجردة. بعد إذ حال أبوه بينه وبين العيش في الواقع الملموس.. فما عساه يعلم عن المسرحية العاطفية؟

لقد كان أبوه ينهي ابنه المتورع عن ذكر النساء إلا في الشعر المسرحي وفي سن السادسة عشرة كان الطلبة الروس الشياطين بمدرسة الهندسة يعرفون كل شيء عن النساء. فجعلوا يعيرون ذلك الشاعر الراهب الصغير ذا البشرة البيضاء الذي يعيش بينهم.

ولكنه لم يلبث أن تسللت إليه الصداقة عن طريق ممنوع. فلقد قابل بعض الأدباء ممن هم على شاكلته وكانوا مثله حالمين، يقرءون بوشكين ويكتبون الشعر، وكانوا أحياناً يلتمسون صحبة النساء، ولكن هذه الصلة لم يشعر بها أبوه. "أقم حولك سياجاً واحذر

أن يعديك زملاؤك".

وكان فيودور قد كتب إلى أبيه يرجوه أن يبعث إليه بقليل من المال، يبتاع به بزة جديدة، ليتعشى في راحة مع أصحابه.. نعم.. وليأثم قليلاً. فلم يتلق فيودور على كتابه غير رد شديد غاضب. وكان أبوه قد انتقل من المستشفى إلى ضيعة ريفية وشكا من أن نفقات هذه الضيعة تستنفد كل موارده. وقال أن ولديه سيكونان متسولين بعد موته. ما لم يكفا عن طلب المال.

ولاحظ فيودور أن الخط مضطرب، فظن ذلك راجعاً إلى إسراف أبيه في شرب الفودكا، وكان مصاباً بإدمانها. وتلقى ذات يوم خطاباً من منزل أبيه، لا بهذا الخط المضطرب الباعث على الشفقة، بل بخط شخص آخر، وقد جاء بالخطاب أن أباه قد سافر للإشراف على بعض أملاكه فلم يعد..

وقد وجد مخنوقاً تحت وسائد عربته.. أما الحوذي فقد اختفى مع الخيل. وسرى همس بأن ما حدث إنما كان انتقاماً من جانب رقيق الأرض الذين لم يعودوا يصبرون على قسوة مالك الأرض دوستويفسكي. وجرت الشائعات بأن كثيراً من القرويين قد اشتركوا في المؤامرة.

لم يجر فيودور اسم أبيه على لسانه مرة أخرى. ولكن مصرع دوستويفسكي الأكبر والسبب المرجح لاغتياله قد أحدث اضطراباً عنيفاً في روحه، وكأن لعنة قابيل قد صبت عليه، فأرسل بصره في الظلام.

-٢-

وكان الليل زاخراً بالرؤى التي ائتمرت به، وأزعجته، وأشارت إلى مغزى عظيم. فسطر هذه الرؤى على الورق. قصص نفسية عن المغامرات، وهي مسرحيات لم تمثل خارج شخوصه بل في داخلها. وهذه صورة مجردة قد اتخذت صورة وحش عقد به ناظره. إنه الشعب الروسي. لسوف يفهمه ويعمل له ولا يألو في خدمته جهداً. لسوف يحمل النار والماء لعبقريته.. ويتعهده حتى يبرز ملامحه من سمت الرأس إلى أخمص القدم. إنه لم ير

وهو بين المثقفين في بيتر سبرج غير الرأس. والآن فلير القدم.

فقد لاحظ أن هذه الملايين التعسة التي منها تتكون القدم إنما تعبر عن نفسها في حرية مطلقة في الحانة حول كوب من الفودكا. فذهب على حيائه ودقة ذوقه إلى حانات بيتر سبرج ليستمع إلى أبناء ضرة أمنا الأرض. ولم يكن بالرجل الذي يتشجع الغرباء على التحدث إليه. فقد كان وجهه مكتئباً، وكانت عيناه زائغتين. لذلك كان يدعو الناس، لا إلى حديث حول المائدة، بل إلى ملاعبته (البليارد) حيث الوجه متجه إلى أسفل والآذان مرهفة إلى أعلى.

فما أضعفه من لاعب وما أقواه من منصت. لقد خسر المال وكسب الحكمة وذات يوم وقع مخطوط له في يد ناقد روسي حصيف، فأرسل إلى دوستويفسكي وقال له (أيها الشاب: أتدري ماذا كتبت لتوك؟ كلا إنك لا تدري فإنك لا يسعك الفهم بعد).

لقد جعل دوستويفسكي عنوان مخطوطه (الشعب الفقير) إنها قصة الناس الذين لم يخلقوا غير خلق نصفي– قطع بائسة من الصلصال شوهتها أصابع الملائكة الخرقاء، جسوم كسيحة، وأرواح كسيحة، مفارقات إنسانية، معتوهون أولو أعين جميلة، عمالقة أولو أطراف ملتوية.

ونظر دوستويفسكي إلى حياة أولئك التعساء فلم يجد فيها عقلاً ولا تناغماً. ثم رجع إلى المثقفين من جديد. فلعلهم على الأقل يعينونه على تبين نظام للخلق، ومعنى للحياة، لعل هؤلاء المثقفين يغيرون وجه المجتمع ويخلعون القيصر في روسيا ويقيمون جمهورية من الأحرار. وإنما الإنسان هو من ينقذ مصيره. وأن على عقل الإنسان أن يعمل لكي يثير قلب الإنسان من الشقوة إلى النشوة.

ويشترك دوستويفسكي في مشاورات الندوات التي كان يجريها هؤلاء المثقفون الأحرار الذين سوف يغيرون جوهر العالم. فيضم صوته إلى صوتهم ضد ظلم رجال الحكومة ويقبض عليه في أحد الاجتماعات. وبعد محاكمة صورية سيق إلى حصن (بيتر بول) في انتظار نهايته مع غيره من المجرمين السياسيين، لقد أسروا بدنه، ولكن أنى لهم بأسر روحه؟

أنى لهم أن يحبسوا اللانهاية بين جدران الزنزانة الأربعة؟

وهم الآن يضعونه في عربة، ويسوقونه إلى أرض سيمينوف للتدريب قرابة عيد الميلاد. الهواء حاد وهذه عربات أخرى تصل الى المكان محملة بسجناء سياسيين آخرين. وهذه فصائل من الجند واقفة في انتباه على أهبة تنفيذ حكم المحكمة العسكرية.. بالموت.

وهذا قسيس يحمل صليباً في يديه، يقود السجناء إلى منصة جللت بالسواد. وهؤلاء السجناء يؤتى بهم شرذمة بعد شرذمة أمام فرق إطلاق النار. وهذا فيودور في الشرذمة الثالثة يقدر أن قد بقي له من العمر خمس دقائق. يا عجباً ليقظة عقله في مثل تلك اللحظة.

وما يكاد الجند يرفعون بنادقهم حتى يهرع فارس إلى المنصة، يحمل رسالة من القيصر بالعفو عن المسجونين. لقد خفف حكم الإعدام إلى النفي بسيبريا. وكأن هذه دعابة عابسة للقسيس الصغير. وأن أحد المسجونين لا يسمع بالعفو حتى يشرد لبه ويصاب بمس. وآخر يصيح في مرارة (كان القتل أهون) ذلك أنهم كانوا يعلمون أن الموت في الحياة أبلغ إيلاماً من الموت بمعناه المعروف.

-٣-

وسيق دوستويفسكي ليلة عيد الميلاد من حصن (بيتر بول) إلى القطار الذاهب إلى سيبريا. وفي المحطة الأولى دفعت امرأة بنسخة من الكتاب المقدس إلى يديه وكان هذا هو الهداية الوحيدة لمسافر صوب هذه الأرض الخراب. ووجد بين أوراق الكتاب المقدس ورقة من ذات الروبلات الخمسة والعشرين– تكفي لشراء تبغ وثوب كتاني وصابون وخبز أبيض.

ولكنها لا تكفيه أن يبتاع السلام العقلي إذ لم يكن يسهل على شاب حضري أحب نعومة العيش، أن يقضي وقته في سترة السجن، وذراعاه وساقاه مصفدة بالأغلال. وأن يديه اللتين لم يسبق لها العمل بأي شيء أثقل من القلم، قد قضي عليهما الآن بالأشغال الشاقة.

إن هذا الشاب المسرف في استحيائه، قد ألقي به الآن بين أبشع اللصوص والقتلة في روسيا. وصار رفاقه دائماً هم المفسدون الذين لا صلاح لهم وقد اقتحموا عليه أفكاره، وكادوا يقترفون جرماً أبشع بكثير من كل ما اقترفوه من قبل. ذلك هو جرم ذبح العقل بلا سكين.

ولكن عقل دوستويفسكي رفض أن يذبح فإن مشكلة مصير الإنسانية قد عادت إلى استثارته حين بلغت حيرته المدى. ووجد أن معسكر الاعتقال في سيبريا إن هو إلا قاعة أخرى من قاعات البلياردو في بيتر سبرج.

ثم لاح له أثناء تأمله نور جديد. فقد أدرك أن إصلاح من لا صلاح لهم لا يأتي عن طريق الإنسان بل عن طريق قوة خارج الإنسان. فعاد بهما إلى الكتاب المقدس الذي كان قد وجد بين صحائفه الورقة ذات الروبلات الخمسة والعشرين، التي وفت بشراء الخبز الأبيض، وقد كشف في رسالته عن نوع من الخبز خير وأبقى.. خبز الأرواح الأبيض.. إنه الله منقذ الإنسان مذنباً كان أم قديساً. لكن إذا كان الله ينقذ المذنب فأي خطر في اقتراف الذنب؟ الواقع أن الخطيئة إغراء إيجابي، اقتراض من رحمة الله، اختبار لكرمه اللانهائي، كما أن طلب القرض من صديق فيه امتحان لكرم الصديق. وهؤلاء المثقفون في بيتر سبورج، الباحثون عن عالم يفوق عالمنا خلقياً، ألم يعلموا أن صلب المسيح لا يكون له معنى ما لم يصلب القاتل بجواره: "فالله يخلق الخاطئ والخاطئ يخلق الله، وأن عالماً من الكمال الذكي كالذي يحلم به المثقفون في بيتر سبرج، يوشك أن يقضي بالعدم على الغرض الخلاق لله...".

وكلما زاد دوستويفسكي إيغالاً في التفكير في مشكلة الشر، زاد إدراكه أن جريمة الإنسان ليس معناها شر الإنسان، وأن عقاب المحاكم ليس معناه إرادة الله. "أن من يحيق بهم عقاب البشر ينجيهم الله".

وهذا دوستويفسكي الذي اشترك في نشاط ثوري وهو يأمل مخلصاً إنقاذ الناس تصدر محكمة مخلصة عليه حكماً بالعقاب جنباً إلى جنب مع القتلة الذين أزهقوا أرواح

الناس. وهنا أومض في خاطره شعور بأن عليه البحث وراء ظواهر الأشياء، لكي يهتدي إلى المنطق الصحيح للأشياء.

-٤-

وبعد أن قضى أربعة أعوام في سيبيريا، أطلق سراحه من الأشغال الشاقة، ولكن القانون الروسي كان ينص على أن العقاب لم ينته بعد. فطلب إليه أن يخدم بوصفه جندياً في سيبيريا، وأن يشق طريقه صعداً إلى رتبة الضابط، قبل أن ترد إليه حريته. فانضم إلى فصيلة من الجند في قرية سمبيلا تنسك الصغيرة. وأحب ماريا دمتريفنا، زوجة ضابط الفصيلة، وكانت شقراء شيئاً، متوسطة الطول نحيلة جداً سريعة التأثر متعالية، وكان زوجها في نزع الموت، ولكن فيودور كانت قد اجتاحته فكرة (لن أتزوج قط. يجب أن أحيا عزباً) ذلك بأن مرضاً خطيراً كان يعاوده في السجن في فترات منتظمة، هو (الصرع) وقد أخبره الأطباء أن هذا المرض يستفحل مع تقدم العمر. وهو الآن قد اجتاز معظم الحلقة الرابعة. وهذه أول مرة يقع في غرام عنيف، إنه حب قد تأجل عن موعده كثيراً، فأعاد الرجل فجأة إلى جموح الصبية المراهقين.

وسرعان ما مات زوج ماريا، فعمد فيودور، الرجل الذي برئ من مرضه كما كان يدعو نفسه إلى إهمال نصيحة طبيبه، وبنى بالأرملة وسرت شائعات السوء بأنها قضت الليلة التي تسبق ليلة الزفاف في أحضان عاشق يصغر فيودور في السن.

وحين سمح لفيودور أخيراً بالعودة إلى روسيا، لغط الناس بأن عاشق زوجته تبعهما في مركبة تسير في أثر مركبتهما إلى الوطن.

ولكن الشتاء الرطب سرعان ما أصابها بالحمى القرمزية، وصار من الواضح أنها أيضاً موشكة على اللحاق بزوجها في عالم الموتى. وحالت حالها مع الوقت بحيث صار ينكرها من رآها. فلا حاجة الآن إلى الخوف من خيانتها.

وكان فيودور لم يزل يجاهد في حل مشكلة الشر، فرجعت به الذكرى إلى بعيد الماضي، إلى أيام طفولته، وإلى حديقة المرضى، حيث المرضى على جانب من الجدار،

والأصحاء على الجانب الآخر.. إن على المرضى أن يموتوا، وعلى الأحياء أن يحيوا. فإن عواطفه التي طال بها الكبت متعطشة إلى الانطلاق. ووجد ريا لظمئه في أبوليناريا بانكراتيفنا وكانت طالبة شابة تسير في المظاهرات الاشتراكية تحمل علماً أحمر وتنشد المارسييز. وكانت قد استمعت إليه وهو يحاضر. فكتبت إليه أنها تحبه.

وكانت باردة وكانت شبقة، وكانت مزعجة، حتى في الحب.

حتى ليكاد مركيز دي ساد أن يكون من تلاميذها في ذلك. إنها قمينة بأن ترتكب الجرائم دون اكتراث أو احتفال. وهي في برود جليد الشتاء، تنظر إلى كل الناس دون أن يمس نفسها منهم شيء، كأنها رئيسة دير في القرون الوسطى. ومع ذلك فلم تشبهها امرأة أخرى في الشهوة والشبق.

أما محبها فكان ينطوي على رجلين، أحدهما يعمل جاهداً للكشف عن مشكلة الجريمة والعقاب.. يرسم خطوطها وشخوصها، ويكتب المذكرات ويصف النوافذ القوطية.. إنه يحاول أن يخضع للغة الكلام قصة الطالب (راسكلينكوف) ألم يهب نفسه للبحث عن دخيلة العالم، وأن يحيا ويموت في دير فنه؟

هذه صورة الرجل في وعيه.

أما الرجل الآخر، فطائر على جنح حلمه المحموم، جائل مع (أبو ليناريا) أقطار أوربا جميعاً. وإنها لتصده وتعذبه وتحمله على الاستمتاع بها وكراهتها على التعاقب. وإنه ليركع أمامها وقد غشت عينيه الدموع ضارعاً إليها الليلة بعد الليلة ألا تطرده من غرفتها. ثم تناهت إليه الأنباء بأن زوجته قد شارفت الموت. فأسرع إليها، وسهر على العناية بها سهراً متصلاً، وشهدها حين أسلمت الروح.

-٥-

وذات صباح أقبلت شابة على دستويفسكي تلبية لحاجته إلى سكرتيره يملى عليها كتابه الأخير، فنظرت في إجلال إلى وجه الرجل الذي يكتب (الجريمة والعقاب) إلى جانب فراش زوجته المحتضرة. فلما تم الكتاب أحس دستويفسكي بقلق عجيب، ولكن

سكرتيرته (آنا جريجوريفنا) قالت له (فيودور ميخائيلوفتش إن الجبلين لا يمكن جمع شملهما، ولكن الإنسانين يمكن جمع شملهما) وتزوجته.

والجريمة والعقاب: هي قصة (راسكلنيكوف) التي يقرأها العالم أجمع. قصة الشاب اللامع الذي يستيقظ في حلمه، فيقدم نظريات عقلية ويكشف أغوار الخير والشر بعقل نافذ لا يعوقه عائق.

وأخيراً يتمخض عن ذوبان إرادته في صورته العقلية المجردة للإنسان الأسمى، ويقع جسمه في آسر عقله.. فكل ما كتب عنه من الأفكار، وكل ما خطه من مقالات ونظريات قد استحال إرادة آلية تجرفه أمامها. فتدب الحياة في المعنى المجرد حتى ليبتلع ما كان حياً ملموساً، ويحدث تبادل بين الشخصيتين، وما دامت آراؤه ونظرياته قد اشتملت على وجود الجريمة، أبشع جريمة يسع العقل البشري تصورها، فإنه مضطر إلى أن يقترف جريمة.. يجرفه إلى ذلك قوة عقل عقد العزم على اختبار أفكاره...

وهناك عجوز من عميلات الرهن، كان قد رهن لديها بعض ما يملك فقرر قتلها وساءل نفسه ولم ذلك؟ وأجاب (إنه من أجل مالها الذي لا غناء فيه للبخيلة، ولكنه أداء لما تحتاجه حياة الطالب مثلي من نفقة).

ووجدت آنا في شهر العسل دستويفسكي مستلقياً في إحدى نوباته، وقد تدلى رأسه من أحد جوانب مخدعه، ولو مضت ثانية بعد ذلك لوقع. وسبق تقلصاته شعور صرعي، وتحول وجهه كله إلى نعمة نشوى، فمسحت العرق عن جبينه والزبد عن شفتيه (واستفاق تدريجاً فقبل يدي وعانقني).

ومضى دستويفسكي في كتابة قصته.. وفي اليوم المضروب اللجريمة ينام راسكلنيكوف معظم الوقت حتى يفوت الموعد المحدد. ثم يصحو ويشخص إلى دار العجوز، فيصطنع عذراً لتعطيلها ثم يمسك بفأس. وكان حتى اللحظة الأخيرة يشعر شعوراً قوياً أن الأمر كله غير صحيح وأنه لن تقترف جريمة.. حلم عجيب.. أيهما العالم اليقظ، وأيهما العالم النائم؟ وعلى نحو آلي يشج رأسها بحد الفأس. وكأن الدم الذي ينزف شراب

في سوق.

فتصعد أخت القتيل الدرج، وكان يقدر غيابها فقتلها هي الأخرى وأخذ بعض مجوهرات المرأة العجوز، وحافظة نقودها، لأن صوتاً في باطنه يغمغم له غمغمة متصلة (إنك قتلتها من أجل هذا المال. من أجل هذا المال... لأنك فقير محتاج وهي غنية عجوز لا جدوى لها.. وهذا المال سيدفع بك قدماً في حياتك.. وفي دراساتك).

ثم يلقي بحافظة النقود جانباً دون فتحها، ذلك بأن فكرة جديدة تسري الآن في جهاز عقله (أيها الإنسان الضعيف لا تنتحل الأعذار لتوجد مبرراً مادياً. إنك قتلت هذه المرأة لمجرد أن القتل نفسه قد استهواك. وليس من دافع آخر. إنك قتلت لأنك أردت اقتراف جريمة.

وكان دستويفسكي يذهب إلى المقصف دائماً، يراهن بالمال على الأحمر والأسود. فإن الجموح واللون والخطر كانت تجرفه ولا عاصم، كأنها الحياة نفسها. "وعاد ذات يوم إلى منزله في يأس وقال إنه قد خسر كل شيء، وشرع يرجوني السماح له برهن بعض الأشياء، فخلعت له قرطي وحلية صدري.. فركع أمامي وقال: إن عليه أن يلعب دون انقطاع.. وعندئذ أدركت أنه ليس بالمقامر العادي، فهو لا يقامر ليكسب، بل لأن به حاجة إلى أن يخسر".

ولكن جريمة راسكلنيكوف لا تختم القصة إنما هي البداية. إن الإنسان بحاجة إلى اقتراف الجريمة، لا من أجل الجريمة، بل من أجل ما يليها من عقاب.

هذه هي القصة. فهل تريد المضي قدماً في التيه المعقد وراء الخير والشر؟ إن القتل قد اعتبر جناية غامضة، واعتبر القاتل مجهولاً، ولا مراء أن أحداً في بيتر سبرج لا يتهم الطالب راسكلنيكوف بكل نظرياته الغريبة..

وفي غير وعي وعلى نحو آلي، في هذه الحدود المجهولة بين عالم الواقع وعالم غير الواقع. يعود راسكلنيكوف إلى زيارة مكان الجريمة، ويذهب إلى مقر الشرطة للسمر، فتند عنه تلميحات مريبة ويلفت إلى نفسه الأنظار، ويبذل جهد المستميت في اجتذاب

الأنظار إلى جريمته.

حقاً لقد اقترف جريمته من أجل ما تشتمل عليه من ذنب (ألم أولد محملاً بخطيئة كل من مات وكل من سيولد؟ ما أغبى الناس وما أقل بصر القوانين التي سنها الإنسان! فهي لا تعترف قط بالجرائم غير الملموسة التي تحوم في أثير الروح. فليس قيام الناس بالاعتراف للقسيس لتخليص أرواحهم قاصراً على حالة المشهد المادي للقتل والدم).

لذلك كان على المرء أن يقتل لكي يطالب بالعقوبة التي تورطت فيها الروح ساعة الميلاد، فليرحم الله الرجل الذي يشعر بآثمه وجرمه ولم تلطخ يداه بأي جريمة قتل. إنه قد يصاب بمس. ويخر روسكلنيكوف على ركبتيه ويخبر الناس أنه قد قتل امرأتين بفأس وهو في حالة هادئة ومع سبق الإصرار (أرجوكم أيها القوم الطيبون ألا تتصوروا جريمة أبشع من هذه في تاريخ القلب) ويصدر عليه الحكم ويذهب إلى سيبيريا وعلى شفتيه أغنية. ما أعجبه من انحراف إنه الآن وقد تلطخت يداه بجريمتي قتل يشعر لأول مرة في حياته أنه بريء كل البراءة، كأنه ملاك يستشهد في نشوة النعيم).

فيهمس دستويفسكي (قل لي هل هناك ألة؟) فيجيب صوت كأنه يخترق الحجب البعيدة، ويقوده كدانتي عبر مهاوي أولى اللعنه (إنما أنقذ الإنسان وجود الشيطان. فعن طريق الشيطان وحده قد كسب الإنسان الضمير).

-٦-

وكان فيودور دستويفسكي يشرب الشاي مع الشبان والشابات اللائي حضرن لمحادثته في أمر المصير الاجتماعي للإنسان. فلما أعربوا عن حلمهم في عزل القيصر وإقامة جمهورية في روسيا على غرار الجمهوريتين الفرنسية والأمريكية عاد عقله القهقري إلى أيام كان منفياً سياسياً. في زمرة القتلة الذين استخدموا الفأس والبندقية. وهز رأسه في حزن قائلاً (ريثاً أيها الأطفال. إن ما نحتاج إليه لإعادة بناء العالم ليس هو العنف– بل العمل العظيم، الثورة العظمى المنبثقة من الضمير) فأجابوه وأعينهم تقدح بالشرر (ولكن كيف لك أن تلهم الناس جميعاً هذا العمل العظيم، تلك الثورة النابعة من الضمير كما

تدعوها؟)

فرد عليهم دستويفسكي بقوله (وما حاجتكم إلى دعوة الناس؟ ألا تدركون ما يمكن أن تبلغه قوة رجل صحيح واحد؟ إنه لا يكاد يظهر رجل صحيح حتى يمضي الجميع في أثره).

ثم تهدأ عيناه وكأنهما النجم المتلألئ، وتنتقل حياة صوته إلى حياة قلمه، فيجرى قلمه بتصوير رجل نبيل كامل، شخصية من الجمال الخالص– الأمير (مشكن) وهو مصروع معتوه أطلق من مصحة العقول. وما أبسط عقله وما أقوى ثقته بالطبيعة البشرية. إنه يمشي في عالم المحتالين فيضربونه ويسرقونه ويكادون يقتلونه فلا يمد أصبعاً ليردهم عنه، إنه يرفض أن يكون عليماً بدناءة الناس، وهذا ما يحفظهم عليه– إنهم يستطيعون اختلاس أي شيء منه عدا إيمانه بطيبتهم، فهم إذا اعتدوا عليه ربت عليهم في حنان، كأنما هم يعانون الأذى وليس هو. وسرعان ما أخذ أفرغهم رأساً يدرك أنه إنما يعيش في مستوى من الشعور أسمى من مستواهم.

ولكنه ارتفاع تدور منه الرءوس ولابد لكل الناس من السقوط آخر الأمر، فيقع صاحبنا في حب امرأة ساقطة، فيقتلها عاشق آخر من سكان الأرض في ثورة مخافة أن يحظى بها غيره. فإذا هرع الناس إلى الغرفة وجدوا أن القاتل قد غطى الجثة بالقماش المشمع، وأحاطها بقارورات العقاقير لمنع العدوى، ووجدوا القاتل فاقد الوعي تماماً حانقاً مغيظاً، وكان الأمير يجلس إلى جواره على الأرض دون حراك، وكلما انطلق المريض يصيح ويرغي ويزيد، سارع بإمرار يده المرتعشة على شعر رفيقه وخديه، كأنما يريد أن يرده إلى الهدوء والطمأنينة. لكن القاتل واأسفاه لم يعرف أحداً ممن أحاطوا به.

ولم يزل دستويفسكي يتعمق غوراً بعد غور حتى وصل إلى أبعد أغوار قلبه. ويصير منظره عجيباً أثناء الأعوام الأخيرة من حياته. ويذهب إلى حديقته، وقد انحنى رأسه من ثقل أفكاره.

ما هذا المخلوق الذي ركب من طل ولهب، ذلك الملاك الشيطان، الحكيم في

حماقته الأحمق في حكمته؟ أن دستويفسكي يخلق أشخاصه معتوهين ومجرمين وحكماء وقديسين، ويطلب إلى كل منهم بلا استثناء جواباً عن أحجية الحياة. وإنه ليضرب في الطرقات وينصت إلى من يمر بهم من الناس، لعله يجد الجواب في كلمة أو إيماءة أو بسمة أو إيماضة وجه بنشوة الأمل.

وكثيراً ما كانت أفكاره تسمو به إلى مستوى يعلو إدراك إخوانه من البشر. إنه ليحلق بأجنحته عبر الفضاء ويرى شمساً جديدة (كان البحر الزمردي الباسم يداعب الشطآن في حنان، مقبلاً في حب، حب ظاهر تراه العين ويكاد ينبض بالشعور.. كانت الأشجار الباسقة الرائعة تقف في روعة الأزهار الكاملة، وأوراقها التي لا تحصى تحييني في صوت حلو مهدهد، كأنما هي تتحدث بالحب. وكان العشب قد اشتعل بألوان براقة حلوة العبير. وأسراب الطير تدور في الهواء، ثم تستقر في اطمئنان على كتفي ويدي. وتقرعني جذلى قرعاً خفيفاً بأجنحتها الصغيرة المرتعشة.

كانت هذه الأرض قبل أن يدنسها الظلم، وحين كان يقطنها قوم لم يعرفوا الخطيئة بعد.. لقد أروني أشجارهم. ولكن لم يسعني فهم أغوار حبهم وهم ينظرون إليها. وإني لمقتنع بأن هؤلاء الناس كانوا على نحو ما متصلين بالنجوم في علياء السماء. لم يكن لديهم دين. بيد أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه حين يسمو سرورهم الأرضي بحيث يبلغ حدود طبيعتهم الأرضية فسيفتح.. منفسح أكبر للاتصال بالكون كله. كان كلهم مستهاماً بصاحبه إلى أقصى حد، وعلى أوسع مدى..

ونظروا إلي بأعينهم التي تضيء بالحب.. فأفسدتهم جميعاً؟ فكيف أمكن أن يتم ذلك؟ لست أدري.. وكل ما أدري أني كنت سبب النكبة. فتعلموا الكذب وأحبوه وأدركوا جمال الأكاذيب.

وما أسرع ما أريقت أول قطرة من الدم وشرعوا يتحدثون بلغات مختلفة وشرعوا يعرفون الحزن ويحبونه. ويتوقون إلى العذاب، ويقولون إن الحقيقة لا تنبت إلا من الآلم. فإذا أغضبوا تكلموا عن الأخوة والإنسانية.. وإذا اقترفوا الجرائم اخترعوا العدالة،

ووضعوا لأنفسهم قوانين كاملة لدعمها، ودعماً للقوانين أقاموا المقصلة. إنهم لا يكادون يذكرون ما خسروا.. وأخذ يظهر رجال يفكرون في طريق يهيئ لهم الإتحاد، على نحو لا يكف فيه أحدهم عن إيثار نفسه على الناس جميعاً، ولكن يمكن بفضله ألا يقف في طريق غيره.. وقامت من أجل الفكرة حروب كاملة.. فبكيت من أجلهم رثاء لهم، ومددت إليهم يدي متهماً لاعناً ومزدرياً نفسي. وفي يأسي ذكرت لهم أن عملي قد انتهى.. وضرعت إليهم أن يصلبوني، وعلمتهم كيف يصنعون الصليب.. ولكنهم اكتفوا بأن سخروا مني، وانتهى الأمر بأن ظنوا بي الجنون... ثم أفقت من نومي فرفعت يدي ودعوت الحق الأبدي)

ثم جاء الجواب أخيراً عن الطريق الملتوي لانحراف البشر وحماقتهم وألمهم (لسوف يأتي.. الرجل الآله الذي سخر منه الناس وعدوه في المعتوهين. وسوف يتعلمون أن يتبعوه حتى يعلمهم حقيقة معنى الخير والشر– أن من ينزل الألم ومن يعانيه ليسا شخصين مختلفين، بل هما ذات الشخص، وذات الروح، وأن كل إنسان مسئول عن عمل الجنس البشري بأسره، وأن الجنس البشري بأسره مسئول عن عمل كل إنسان، وسوف يأتي ذلك المنقذ المعتوه.. إلى هذه الأرض حيث الإنسان يبدو حقيقة، وما هو إلا طيف، ويبدو الآله طيفاً وهو الحقيقة. سوف يأتي آخر الأمر ويلقننا الحقيقة الحيوية الوحيدة، إن كل الناس من أسمى القديسين إلى أدنى القتلة يتلمسون نفس المصدر بطرق شتى، مصدر النور، نور الوحدة العالمية والحب العالمي).

ويجلس دستويفسكي، ويمسك برأسه. وسرعان ما يشعر بعرق عجيب على يديه. لقد تخضبت يداه بدم من رئتيه.

(وليست الحياة أهلاً للزراية ولا الموت أهلاً للخوف).

وتضع زوجته الباكية وأطفاله الباكون شموعاً حول جثمانه، ويبعث حكماء روسيا جميعاً برسائل العزاء، وينشد التلاميذ، خاصة من تعلموا على الرهبان، صلواتهم طوال الليل.

(أبنائي: لنقصر عن التشوف إلى حياة أبدية في المستقبل، أبنائي: إذا نحن لم نبلغ الأبدية في هذه الحياة فلن نبلغها أبداً. فالأبدية هنا.. الآن. فثمة لحظات لابد أن ندركها، لحظات من الوجود الأسمى، يقف عندها الوقت لا يريم، وتستغرق حياتك كل حيوات الجنس البشري كله. تلك لحظات أبدية..).

أناشيد لا تنتهي. ثم يدفنونه (إن هذه اللحظات الكاملة الخارجة عن مجرى الزمان، هي التي يتحرك نحوها الجنس البشري بأجمعه) فليس معنى الحياة انتقال الإنسان من جيل إلى جيل، بل تحول الإنسان من وحش إلى ملاك. من الخاطئ إلى القديس. والحياة صعود متصل من المستويات الدنيا للإدراك إلى المستويات العليا.. حتى تغدو أسمى لحظات القديس، الإيمان الخالد للخاطئ. "والخلق كله ماضٍ من الظلام إلى النور".

أهم مؤلفات دستويفسكي

Poor Folk
The Double
The Landlady
The Family Friend
The House of Death
Letters from the Under-world
The Dream of a Queer Fellow
Crime and Punishment
The Gambler
The Idiot
The Demons
The Brothers Karamazou
The Eternal Husband

ليوتولستوى

١٨٢٨- ١٩١٠

كان تولستوى من هؤلاء القلائل، الذين لم يرفعهم عن طبقات الشعب طموح فذ، بل نزل بهم إلى هذه الطبقات قلب فذ، فكان شأنه شأن بوذا، ذلك العظيم الآخر الذي تواضع فارتفع. فتولستوى قد تحدر من سلالة طويلة من الأمراء، وكان أحد أجداده صديقاً حميماً لبطرس الأكبر. ولد في يسنايا بولنايا عام ١٨٢٨ وفقد أمه وعمره سنتان، وأباه وعمره تسع سنوات فكفلته وأخوية وأختيه سيدة تمت إليهم بسبب من القرابة هي "العمة" تاتيانا، وكانت إمرأة تمتاز بميزتين بارزتين هما الصفاء والود. وتشوبها رذيلة واحدة كبرى، هي صحبة أهل البلاهة من الحجاج فهي تعدهم من المتصوفة والقديسين.

وكان تولستوى يستمع إلى قصص هؤلاء الحجاج. فكلف منذ حداثته بما وراء الطبيعة. وهو كلف لم يستطع قط أن يخلص منه تماماً. فظل حتى آخر أيامه نهباً لأحلام اليقظة، والشطحات الصوفية، التي طالما غامت على عقل من أسمى عقول القرن التاسع عشر.

وكان في المدرسة من أشد التلاميذ تخلفاً. وكان من عادة مدرسية أن يصفوا ليوتولستوى وأخويه قائلين: أما سرجى فمقبل كفء. وأما ديمتري فمقبل لكنه غير كفء. وأما ليو فلا هو بالمقبل ولا بالكفء.

لكنه ينظر إلى الحياة نظرة الجد الصارم. فقد علم وهو صبي لم يجاوز الخامسة أن الحياة ليست متعة وتسلية، بل هي كد بالغ العناء. وفي عامه السادس عشر كفر بالكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية) وأعقب ذلك عصر من التجول الفلسفي في (صحراء المراهقة) على حد تعبيره. فانتقل من الدين إلى اللاأدرية ومن اللاأدرية إلى الكفران بكل شيء. وأخيراً شارف اليأس حين بلغ عامه التاسع عشر.

كان الباعث الأكبر على تعاسته أنه ذو جسم غير شائق. فهو شديد النهم إلى إعجاب الناس به. وإنه ليكتب في يومياته "أريد ليعرفني الجميع ويحبني الجميع" لكنه يؤمن ألا سعادة في العالم لمن حرم الفتنة كما حرمها هو. فقد كان وجهه دميماً كوجه القرد. فعيناه صغيرتان غائرتان، وجبينه منخفض، وشفتاه غليظتان، وأنفه ضخم بصلي الشكل، وأذناه غاية في الضخامة، كان له عقل بارع الجمال في جسم بالغ الدمامة، وبلغ من إحساسه بأنه منفر أن قرر الانتحار.

لكن عدل عن رأيه لحسن الحظ وأسرف على نفسه في الملذات يلتمس بها النسيان الوقتي لتعاسته، بدل التماس النسيان الدائم في الموت.

ثم استكشف روسو ذات يوم. وكان هذا الكشف هو الدعامة الروحية التي يحتاجها وقتئذ على التحديد. فأزال برمه بدمامته. وفتح عينيه لجمال الطبيعة. لقد كفر بدين الكنيسة. فهو الآن يعتنق دين روسو ويعبده كأنه آله، ويتخذ حول عنقه قلادة تمثالاً صغيراً لروسو وكأنها من الصور المقدسة.

وجاءت قصته الأولى (مالك روسي) من إلهام فلسفة روسو. وتعالج هذه القصة المشكلة التي سوف تشتغل تولستوى طول حياته مشكلة الصراع الخالد بين المثل الأعلى الذي يحيا له النبي، وإزورار الجمهور وعدم اكتراثه. فبطل القصة ويدعى الأمير نيخلودوف. قد هجر الجامعة ليساعد فلاحيه، ولكن فلاحيه يؤثرون البقاء في حمأة الهوان شأنهم في ذلك كشأن أكثر من أصيبوا بالإهمال وقلة الاحتفال. فهم يستطيعون فهم السيد الظالم الذي يلهبهم بالسياط. لكنهم لا يكادون يعرفون ذلك السيد الرفيق بهم. ماذا يكون؟ أنهم يجفلون منه ويهزءون به، وينظرون إلى عونه المبذول نظرة المرتاب. وهو عندهم إما جاسوس أو محتال، أو أبله، أو أي شيء، إلا أن يكون رجلاً لا يبغي غير صداقتهم..

فينهزم نيخلودوف ويجلس إلى (البيانة) يعبث بمفاتيحها وليس هو بالموسيقي الموهوب. ولكن خياله يصوغ الأغنية التي عجزت عن عزفها أصابعه غير الرشيقة فيسمع

زمرة ترنم، وفرقة تعزف، ويمتزج الماضي والمستقبل فيتحقق حلمه ظافراً.

إنه ليرى الفلاحين الروس لا في كل دمامتهم وحسب، بل وفي كل ظرفهم كذلك. فيغفر لهم جهلهم وكسلهم وعنادهم ونفاقهم وارتيابهم، ذلك بأنه لا يقتصر الآن على النظر إلى ظواهرهم. بل إنه ينظر أيضاً إلى بواطنهم. فيرى آلامهم وصبرهم وبشاشتهم ورضاهم الهادئ بالحياة، واستسلامهم الشجاع إذا واجههم الموت. ويغمغم قائلاً (جميل)...

فهم إن يرفضوا ما عرض عليهم، فهو الآن يفهمهم ويحس إحساسهم لأنهم جميعاً أخوة. هو والفلاحون من لحم واحد ودم واحد.. كلهم رهط من الفلاحين لا حول لهم ولا قوة، يعيشون ويكدون ويموتون تحت سياط مالك الأرض الذي لا يرحم، أعني به القدر.

-٢-

وما أقبل عام ١٨٥١ حتى كان تولستوى قد فقد ماله في المقامرة، وفر إلى القوقاز لينجو من دائنيه. وانضم إلى جيش كان أخوه من ضباطه.

لقد كان تولستوى في عامه التاسع عشر يتمنى لو يموت. أما الآن وقد بلغ عامه الثالث والعشرين فهو وطيد الإيمان بالحياة. فقد تخلى عن شكوكه الفلسفية، وإحساسه الحارف بالخطيئة وعاد إلى شغفه بالتصوف والنسوة الجميلات. فهو كفاوست في شبابه، يقبل الحياة ويجد فيها لعبة يحلو له العبث بها. فالتجارب جميعاً طيبة ما أضافت إلى حظنا من السرور. ويقول في القوزاق "ليس من شيء يقال له خطأ. ولكن تستمتع بفتاة جميلة لما قارفت إثماً وإنما قدمت أية على حسن الصحة".

لقد غمس نفسه في جمال الجبال وحارب وقامر وأحب وأبدع الروائع الواقعية الشعرية: حكايات الطفولة، وأقاصيص الحرب، وقصص القوزاق، والمقالات والخطابات التي فاض بها قلمه في تتابع سريع كأنه تدفق السيل.

وكان من أثر استغراقه في عمله الأدبي أنه لم يكد يلتفت إلى واجباته الحربية. فهو

مستهام بالخلق، قليل العناية بالهدم والتدمير، وهو على اعتزازه بسترته الحربية بما تحمل من أوسمة جميلة وأزرار نحاسية، قد أخذ يرى الحرب في ألوانها الحقة فهو في (الغزوة) التي كتبها في عامه الرابع والعشرين يبعث بأولى صيحاته محتجاً على الروح العسكرية:

(هل استحال على الناس إذن أن يعيشوا في سلام في هذا العالم المليء بالجمال تحت هذه السماء المرصعة بالنجوم والتي تنفسح إلى غير نهاية. كيف استطاعوا في مكان كهذا أن يبقوا على شعورهم بالكراهة والانتقام وحب القضاء على بني جنسهم؟. إن كل ما انطوى عليه القلب البشري من الشر ينبغي له أن يتبخر إذا مسته الطبيعة، وهي أصرح وأصدق من تكلم عن الجمال والخير).

وكان حتى ذلك الوقت لم يشهد في مناوراته العسكرية غير تمثيل الحرب. لكنه في عام ١٨٥٣ يواجه الحرب نفسها مواجهة واقعية. لقد أعلنت روسيا الحرب على تركيا ودعي تولستوى ليؤدي واجبه ليزيد من مجد القيصر.

وكان في أول الأمر تجرفه حماسة وطنية وما أسرع ما استحال وحشاً مفترساً كغيره من شباب أمته. فقد طغت عليه موجة من الحماسة الغامضة فذبح الأتراك وحمد الله على نصيبه في المذبحة.

ولكن لم يمض زمن طويل حتى أفاق من نشوة التقتيل. فقد ألف في خلال حرب القرم ثلاثة كتب أولها يتوهج وطنية متطرفة مسرفة. ويتحدث في ثانيها حزيناً عن تبادل التقتيل بين بني الإنسان. وينعى على حكام العالم في مقدمة الثالث أنهم جعلوا من رعاياهم وقوداً للمدافع.

وكلما أطال النظر إلى الحرب استبانت له في كل بشاعتها ونكرها. فهو منذ اليوم مكرس نفسه لحرب عالمية ضد الحرب. كتب في مفكرته في الخامس من مارس سنة ١٨٥٥ (لقد اهتديت إلى فكرة عظيمة، أحس بقدرتي على أن أقف عليها كل حياتي. تلك الفكرة هي إنشاء دين جديد.) دين اللا مقاومة. دين الأخوة الدولية دين السلم العالمية.

-٣-

وفي عام ١٨٥٦ اعتزل تولستوى خدمة الجيش وعاد إلى سنت بطرسبرج (ليننجراد) وكانت شهرته في الجندية والكتابة قد سبقته إلى هناك، فغدا في الحال علماً من أعلام الأدب، فرحب به أعلام التأليف والفن في المدينة في مجالسهم الخاصة. لكنه وجدهم جميعاً من المدعين الذين لا يلائمونه فهم يرون أنهم الصفوة المختارة وأنهم أصحاب عقول سمت على عقول البشر.. وأنهم فخر الخليقة وتاجها. وهم يكتبون لأهل الثقافة والفكر، أما باقي البشر فغير جديرين بأن يسهموا في أفكارهم السامية. أما تولستوى فموقفه على النقيض من ذلك تماماً. فالأديب عنده هو انجيل الجمال والحكمة الذي يجب أن يملكه الجميع. فكتب ليعلم الكثرة بدلاً من أن يكتب لتسلية القلة.

وإنه ليكتب للعامة وهو يعلم حظهم من الذكاء حق العلم. يدرك تماماً جانبهم الزري الوقح، لكنه يشعر كما يشعر الأمير (نيخلودوف) أنهم يتحسسون النور بغريزتهم، وإنما هم ينتظرون زعيماً معلماً يهديهم السبيل "اذهب إلى الناس لتعلم ما يريدون وحاول أن تفهم ما يحتاجون، وأعنهم على تحقيق حاجتهم".

وأنشأ مدرسة لفلاحي (ياسنايا بوليانا) وحاول في هذه المدرسة ألا يجعل من نفسه أستاذاً، بل تلميذاً من التلاميذ. ذلك بأنه يعتقد أنهم جميعاً ليسوا غير أطفال يحاولون تهجى المقطع الأول من كتاب الحياة الغامض.

وقد أغلقت الشرطة المدرسة، وقدمت النصيحة إلى تولستوى بأن يدع الفلاحين وجهلهم، ثم أقبلت أشهر من المرض واليأس. فمات إخوان له من السل، وخشي تولستوى أن يكون هو الآخر قد أصيب بنفس المرض. ففقد إيمانه بالخير وبكل شيء، وفكر في الانتحار مرة أخرى.

في هذه المرة أنقذه الفن، وحبه لفتاة في السابعة عشرة هي (صوفيا أندرياتينا بهرس).

وتزوج من هذه الصبية وكان عمره ضعف عمرها تماماً.. ثم بدأ فترة من السعادة الصافية امتدت نحو خمسين سنة. وكانت الكونتيسة تولستوى موهوبة في بابها. فقد

صارت "الزوجة الصحيحة لمؤلف".

إذا استعرنا عبارته. فهي تكتب ما يمليه عليها، وتستثير خياله، وتشجعه، وتبذل جهداً مضنياً في نسخ مخطوطاته، وتكون نموذجاً لبعض من أفتن شخصياته.

وكتب تحت تأثير سعادته آيتين من أعظم آياته.. مأساة العاطفة الفردية (آنا كارنينا) وملحمة العذاب (الحرب والسلم) في قصة (آنا) زوجة (كارنينا) يكمل تولستوى موضوع قصيدة جيته التي يقول فيها (إن القوى السماوية تأتي بنا إلى الحياة وتضطرنا إلى الخطيئة، ثم تدعنا لخطيئتنا وألمنا) فتظل (آنا) أعوامها الثمانية الأولى من حياتها الزوجية مخلصة لزوجها سعيدة بحب ابنها الصغير (سيروز) ويعبد الطفل أمه كأنها آلهة. وكانت الأمور ستجرى رخاء لولا أن (آنا كارنينا) قد زارت أخاها (ستيبان) زيارة مشئومة في موسكو.

فهنا في صحبة النبلاء الروس المرحين الذين لا قلب لهم، تقابل السيدة الكونت (فرونسكي) وهو شاب دمث وسيم ثري، يحب الجواد الطيب والحرية الطيبة والمرأة الجميلة. فما أسهل ما وقع كل من (آنا كارنينا) والكونت فرونسكي من نفس صاحبه. ولم تكن (آنا) أولى ضحايا فرونسكي فهو حين لقي (آنا) كان متورطاً في غرام أخت زوج ستيبان وكانت ممثلة ناشئة ساحرة محبوبة، من فتيات موسكو، وكان (لكيتي) كثير من المعجبين. لكنها تؤثر عليهم جميعاً اثنين فرونسكي الذي تحبه، وكوستانتين الذي تعجب به وكان (كوستانتين لفين) هذا نبيلاً من موسكو شاباً ميسوراً جاداً ذا عقل كثير الريب. فهو يعجز عن التصديق كعجزه عن التكذيب وهو يتفرج كما يتفرج العاجز الساخر بينما تتكشف المأساة لعينيه. فهو يلاحظ آنا وفرونسكي كيف ينجذب كل منهما إلى صاحبه دون أن يكون لهما في ذلك اختيار. وأن الفريستين لتدركان ذلك، وإن لم تستطيعا شيئاً لوقف هذا الانجذاب.

(وآنا) شديدة النهم في حب فرونسكي وشديدة ا الخوف من هذا الحب، فهي تحن إلى حب ابنها لها وحماية زوجها إياها، فتقرر أن تختصر زيارتها لموسكو وتهرب من افتتانها وتبتاع تذكرة إلى سنت بطرسبرج.

وفي القطار تجد فرونسكي. لقد قرر أن يتبعها.

ويتقابلان كثيراً في مجتمعات سنت بطرسبرج. وينظر المجتمع إلى علاقتهما نظرة الرضى الذي يحبس الضحك. إنهما مسلاة ممتعة.

أما زوج (آنا) فيظهرها على حماقتها في هدوء. ثم يغمض عينيه في حكمة. فهو راغب عن التورط في فضيحة طلاق، زاهد في تعريض حياته لأخطار المبارزة.

لكن الأمور تسير إلى غاية إذ يحدث حادث في سباق الخيل ويصاب فرونسكي إصابة بليغة وتبدي (آنا) قلقها أمام الملأ. فإذا عنفها كارنينا اعترفت له بحبها لفرونسكي

وتضرع (آنا) إلى زوجها أن يسرحها. لكنه يصمم على الانتقام ويضطرها أن تبقى تحت سقفه.

ورغم ما يصيب (آنا) من عذاب وهوان وقهر، فإنها تقيم على علاقتها السرية بفرونسكي، تمزقها ثلاث عواطف: حبها لولدها الصغير سيروزها وولاؤها لكيتي التي غصبت منها فرونسكي وحبها لفرونسكي. وتستطيع كيتي آخر الأمر أن تنسى فرونسكي وتتزوج من كوستانتين لفين. وهكذا تزول إحدى الصعوبات من موقف (آنا) لكن الصعوبتين الأخريين: حبها لإبنها وحبها لفرونسكي لا يزالان على عهدهما في منتهي المرارة والشدة.

وينشأ الآن تعقيد جديد إذ تضع آنا مولودة، ويبدو كارنينا سمحاً شهماً نحو ابنة فرونسكي، ولكن فرونسكي في هوانه وذلته يحاول الانتحار.

وساء موقف آنا فصار لا يحتمل فإن عليها أن تختار بين (سيروزها) وفرونسكي فتختار فرونسكي.

لكن القصة لم تنته بعد. فلا يزال لدى الكاتب خيط قاتم آخر يسهم به في خطة القصة. فتسافر آنا وفرونسكي خارج البلاد ويمضي وقت يصيبان فيه شيئاً من السعادة من حبهما المحرم.

ثم يعودان إلى روسيا ليستأنفا رجاء كارنينا أن يطلق آنا. ولكن كارنينا يرفض الطلاق. فيشتمل على آنا الهم وتوعك المزاج. ثم يأخذ لهب الغيرة في القضاء عليها فهي تتهم فرونسكي بالخيانة. وليس لها من منقذ غير النسيان.. ذلك الموت إبان الحياة الذي يجلبه المؤرفين. ثم تكون النهاية انتحارها تحت عجلات القطار.

في (آنا كارنينا) يصور تولستوى الصراع الروحي في الفرد وفي (الحرب والسلم) وهي قصة تعالج غزو نابليون لروسيا، يصور الصراع الروحي في الجنس البشري، وجهاده في الانتقال من الهمجية إلى المدنية ومن سفك الدماء إلى الوئام، ومن الكراهة إلى المحبة. إذ لا يكفي حل المشكلة الفردية ولابد من حل مشكلة البشر كافة. فحين استلقى الأمير اندريه بطل (الحرب والسلم) جريحاً في استرلتز تراءى له فجأة معنى السلام الذي يبطنه العالم (رأيت السماء التي تترامى إلى غير أمد تتأمل مطرقة هياج الأرض وتفاهتها) وقد ملأته هذه اللمحة بسرور لا يوصف. فهذا السلام الباطن، هذا النور الذي يومض بين الحين والحين في ظلام الحياة، هو شيء يتلهف تولستوى على أن يظهر عليه بني جنسه. ومع ذلك فهو يشعر أنه لا يستطيع ذلك عن سبيل فنه.

فأخذ يفكر في نوع جديد من الفن. فن إيجاد سبب من الرحمة يصل بين الإنسان وأخيه الإنسان، ليهدي الناس إلى النور، لقد فقد إيمانه بالكنيسة الأرثوذكسية، ولم يهتد إلى عقيدة أخرى بدلاً منها، ما خلا إعجابه المؤقت بروسو.

وعاد تولستوى إلى الكنيسة أثناء بحثه عن العقيدة الحقة فبحث مبادئها وعباداتها، وظل ثلاث سنوات لا يتخلف عن شيء من طقوسها، ولكن لا جدوى "أخشى أن يكون تشددي في إتباع سنة المسيح حائلاً بيني وبين المسيحية التقليدية، فالكنيسة الروسية قد صارت مؤسسة تجارية فيما أعلن. فما أبلغ تشدد القساوسة في فرض أوامر القيصر، وما أشد تهاونهم في فرض أوامر المسيح.

"وهكذا قطع ما بينه وبين الكنيسة ووصل ما بينه وبين الله" فأصبح نبي دين جديد أو بعبارة أدق صار مفسراً جديداً للدين الذي كاد أن ينسى، دين بوذا واشعيا

وكونفوشيوس والمسيح، هذا الدين الذي أمل أن يكون زعيمه المنكر لذاته ولسوف يستغنى عن كل الطقوس والكنائس والقسس: ويعتمد على بعض التعاليم البسيطة (لا تكن لأحد عدواً. أملك زمام نفسك ولا تركن إلى العنف) هذا هو الجانب السلبي من عقيدته. أما ناحيتها الموجبة فهي الاحتجاج والإنكار فهو ينكر على النبلاء إسرافهم، وعلى القسس تعصبهم، وعلى القيصر طغيانه، "فأصبح شيوعياً ومنشقاً على الكنيسة وثائراً.. أي صار بإيجاز حوارياً صحيحاً للمسيح"، فهو مستعد لأن يبذل شهرته ومركزه وثروته وحياته نفسها أن تطلب الأمر خدمة لبني الإنسان. إنه ليلبس عباءة الفلاحين ويخالط أحط الناس على أساس المساواة. لقد تواضع فارتفع. فهو قد نزل من عزلته الأرستقراطية إلى المستوى العادي للبشر وتمكن بفعله ذلك من السمو بالإنسانية إلى ذرى جديدة من السمو الخلقي.

وهتف العالم بتولستوى نبياً. ولكن أسرته تعده أحمق. وأخذت زوجته تخشى عليه الجنون. كان أبناؤه يتثاءبون ويشيحون عنه بوجوههم كلما تحدث بالأخوة بين البشر. فحياة الإيثار التام قد بدت لهم آية على الجنون لا مراء فيها. إنه لا بأس عليه مطلقاً أن يضحي بنفسه، كما قالوا. لكن ما حقه في أن يضحي بأسرته على مذبح مثله العجيبة، وهكذا أصبح غريباً في بيته.

كتب رسالة إلى صديق "لعلك غير مصدق. ولكن أنى لك أن تتصور مدى عزلتي أو مدي زراية الناس بشخصي أو هوان أمري عليهم. لكنه على ما يلقاه من عذاب عقلي يمضي قدماً في سبيله فيفسر مبادئ المسيح بلغة القرن التاسع عشر. لقد حاول المسيح أن ينشئ مملكة الله أما تولستوى فيؤمن بإنشاء ديمقراطية الإنسان فكتب عدداً من المقالات والقصص توضح أصول العواطف الإنسانية والتسامح مع المسيء. وكان جزاؤه على ذلك أن حرمته الكنيسة الأرثوذكسية من رحمتها عام ١٩٠١.

فإذا علت السن بتولستوى بدت في تعاليمه نغمة جديدة غريبة. ذلك بأنه قد صار غريباً بين بني جنسه وأولاده وزوجته، فأخذ ينظر إلى الاختلاط الجنسي كله في ضوء عجيب صوفي، فقد أصبح ناسكاً. وكان في سابق أيامه قد نعى على الفسق، أما الآن

وقد بلغ السبعين فهو يدعو إلى الانتهاء التام عن كل اختلاط جنسي. "أن من نظر في اشتهاء إلى امرأة، ولو كانت زوجته فقد ارتكب معها جريمة الفسق".

إن هنالك معنى يدعو إلى الرثاء في نظرة ذلك الرجل العجوز يحاول أن يعيد صوغ العالم بحيث يلائم ما أصابه من خور وعجز، حتى لقد ذهب إلى إفناء الجنس البشري عن سبيل تقرير العزوبة المطلقة لكن عقله كان ينسل منه حينذاك. وكان التصوف قد ملك عليه زمام أمره تماماً. فهو في قصته الأخيرة (البعث) يودع روح قديس خاطئ في جسم شاب.

فشخصية نيخلودوف دراسة في التناقض. ومما هو جدير بالملاحظة أن تولستوى قد سمى كل قصته الأخيرة باسم بطل قصته الأولى. ذلك البطل في القصة الأخيرة يبدأ محتالاً وينهي حياته شهيداً. ويعتري هدا الرجل في ظرف أعوام قليلة من التحول الخلقي ما كلف تولستوى عمره بطوله. إن البعث لمن أجمل قصائد الرحمة، ولكنها من نتاج رجل عجوز.

-٤-

كانت مأساة تولستوى أن الحياة قد امتدت به بعد أن فقد عظمته. وجعل في الأعوام العشرة الأخيرة من حياته يدعو إلى مثل اجتماعية وسياسية وخلقية، ليس إليها من سبيل إلا في عالم المثل العليا.. أو عالم العجائز.

وكلما مر الزمن زاد إيغاله في الفلسفة الساذجة. وجاء آخر فصل من حياته كما جاء جل ما فعل طوال حياته مزاجاً عجيباً من الغباء والسمو.

فإذا حل يوم ٢٨ من أكتوبر عام ١٩١٠ وكانت الساعة الخامسة صباحاً. هرب تولستوى من مأواه في بيته. ومضى يبحث عن السلام في العراء، وكان في عامه الثاني بعد الثمانين. وكان يلبس قميص الفلاحين، وقت أن أضفت السن على وجهه جمالاً، ورسم الألم فيه غضوناً، وجعل يهيم كما فعل بوذا، ويخبط في شعاب الأرض. لقد هجر بوذا بيته يلتمس الحياة. أما تولستوى فقد مضى عنه يلتمس الموت.

أراد أن يموت وحيداً، لقد وهب حياته الشخصية للرحمة والرثاء، ولكنه يفر الآن من

رحمة ذويه ورثائهم، وظل أياماً عدة يتنقل من قرية إلى قرية، وسقط آخر الأمر على قارعة الطريق، ليرقد رقدته التي لا ينهض منها أبداً. ويقول للطبيب الذي عاده (إن في العالم ملايين من البشر يتوجعون فلماذا لا تفكر إلا في؟).

فإذا كان يوم الأحد ١٠ نوفمبر عام ١٩١٠ وجد السلام الذي ظل ينشده طول حياته، وكانت الساعة قد جاوزت السادسة صباحاً بقليل حين استرخي جسمه الحطيم من الألم لهذا الخلاص العظيم الأخير. "يا لك من أخ مبارك أيها الموت".

أهم مؤلفات تولستوى

Childhood	**the Cossacks**
Two Hussars	**Three Deaths**
War and Peace	**Anna Karenina**
A Confession	**the Death of Ivan Hych**
Master and Man	**What I believe**
What is Art?	**Resurrection**
The Memories of a Madman	
Kreutzer Sonata	

وعدة تمثيليات منها:

The Power of Darkness	**the Living Corpse**

جى دى موباسان

١٨٥٠-١٨٩٣

ولد بقصر ميرونمسنل بنورمانديا، وكان ينحدر من جهة الأب من سلالة أرستقراطية تدهورت إلى مباءة الإفلاس، وكان ينحدر من جهة أمه من سلالة من العامة سمت إلى الخلق الفني– فكان دمه مزاجاً عجيباً من العناصر– نار الإباحية، وحساسية الخيال، ومرارة خيبة الرجاء، والإيقاع الشعري البارد للبحر النرمندي.

كان أبوه إباحياً يخالط النساء، ساميهن ودانيهن، وكانت أمه حالمة تجلس تلتمس الدفء في لهب الذكرى، ذكرى أخيها الشاعر الذي اخترم عبقريته الموت العجلان. لقد عرفت الرجل الكامل في أخيها، فعرفت كيف ترثي للحطام الملتوي في زوجها. وكانت تعيش على الأمل الدائم.. أنها في ابنها ستعيد صوغ الحطام إلى رجل سوي.

ونشأ الطفل الذي انعقدت به آمالها يفهم الرجل الداعر ويعبد الآلهة النقية. وكان كلما تشوش فكره لهذا الاتحاد التعس للأمزجة التي منها تخلق، ذهب إلى البحر فوجد في وجه البحر كل سرور الخلق ووحشيته، وكان (جي) يعتس حول الكهوف على طول الشاطئ، وفي أثره كلبان، وينفح الصيادين الهبات ليصطحبوه في بحثهم عن السمك في ضوء القمر.

وكان يشارك في كل مباهج الفلاحين النرمنديين في هذا الضباب الأغبش، والهواء البارد، الذي يهفو من البحر كأنه نسيم يبعث الحياة، وكان يراقص الفتيات الفلاحات في المواسم الريفية، بينما القيثارات تعزف لحناً ضاحكاً تحت أشجار التفاح، ويسير مع مواكب الرجال التي تحمل المشاعل كأنها ثعابين حمراء في الليل.

وكان يتناول قطعة من الجبن، ويعب كأساً دهاقاً من خمر التفاح مع أي صديق أو شخص غريب في المنزل، وكان يرسم الخطط الواسعة مع قدامى البحارة على التلال،

ويشرف معهم من خلال مناظيرهم المقربة على حافة المجهول (أن عروقي يجري فيها دم الجائلين في البحر، وأبهج ما يبهجني هو أن أبحر بقاربي ذات صباح ربيعي إلى موانِ مجهولة).

كانت حياته دفعة عاطفية من الشمال البارد، ولكن أمه، وأحبب بها من أم، قد صممت على أن تتحكم في الريح وتحدد اتجاهها. فبعثت به وهو بين العاشرة والعشرين إلى المدرسة الكنسية في (أيفيتوت) ولكن (جي) لم يكن يبغي أن يصير قسيساً. فأحدث ثقباً في برميل النبيذ بمخزن كبير الآباء، ودعا رفاقه في المدرسة أن يشربوا على حساب مائة قداس. وقارف بعض المخالفات الأخرى فطرد.. إلى الحرية.

وكان يحب دعاباته العملية. تنكر يوماً في ثوب شابة وقدم نفسه إلى عانس إنجليزية. فقالت العانس في خلال الحديث (تقولين إنك قد أتيت من سفر طويل، فمن أين أتيت؟) (لقد أتيت لتوى من نوميا) وهو موطن فرنسي للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة.

فاستمرت المرأة المذهولة تقول في قلق (فتاة صغيرة تسافر وحدها؟)

"ولكن–كما ترين– لي خادمتان" وضيقت فستانها في خفر وفي عينيها معنى بعيد (ولي أيضاً فارس وجندي مدرع لحراستي). فلما سمعت العانس هذا الكلام كاد يغمى عليها.

وقد اتخذ عشيقته الأولى وهو في عامه السادس عشر، وكان يدعو نفسه (بالنهم إلى الحياة) وسرعان ما قدم له عالم نرمنديا الصغير كل ما لديه من رقة ومتعة.

–٢–

والتحق باللوقيون ليعد نفسه لدراسة القانون، ووفق إلى الحصول على درجة مقبول. ولكن حدث بعد ذلك الغزو البروسي عام ١٨٧٠ عن طريق سيدان. فالتحق موباسان بقسم الإمدادات بجيش فرنسا، ولم تكن حياته مبهجة.

وبينما الجيش الفرنسي يتقهقر، كان يقرأ شوبنهور ويكتب قصائد الغزل ويحلم بالثأر

من الألمان. فتشكلت عبقرية الشباب تدريجاً من ثلج الكراهة ونار الحب.

فلما انتهى الصراع، ذهب إلى باريس يبحث عن عمل فإن دراسة القانون لا تقوى على نفقتها الآن أسرته العريقة التي أصابها الفقر. فالتحق بوظيفة كاتب في البحرية، ولم يدر أحد من رؤسائه أو زملائه الكتبة، أن أحد الأسود البشرية الضخمة قد وقع في الأسر. ولم يدر باقي باريس عنه شيئاً أو يحفل بأمره فإن خيراً كثيراً في عالم هذه المدينة، يحتجب في عليات المنازل، حيث الفنانون والشعراء يترجمون أحلامهم لعالم لا يكترث. وكان موباسان يسير في الشوارع ليلاً، يتفرس الوجوه تحت مصابيح الغاز بحثاً عن علامة يتعرف بها على أحد، عن آية على روح زميل، فلم يجد.

ثم ناداه داعي الصداقة أنه صوت السين، فهو في الفجر والمساء وفي أيام الأحد في الساعات التي لا تخطر بالبال يهدئ فورته الكبيرة بالتجديف في النهر ذهاباً وجيئة.

أن نهر السين قطعة من البحر، وأن شذأه ليجذبه من المكتب المغبر، ومن المقاهي العابقة برائحة النبيذ، ومن أحضان النساء المريبات، إنه جنونه وعشيقته وشريكته الحانية القاهرة، التي تنطوي على المتناقضات العنيفة. نعم إنه النهر الجميل الهادئ المتقلب الشذى النتن، المليء بالأحلام والأقذار! وكانت روحه تنضج تدريجاً يغلفها الضباب، وتنزلق بين أخيلة هياكل السفن ومداخنها التي تتحدث في صفير خشن كئيب، عند ملتقى العوالم الثلاثة، السماء والأرض والبحر.

"إني أجدف واستحم، واستحم وأجدف. ولقد تعودت الفيران والضفادع على رؤية الفانوس فوق قاربي في ساعات الليل، حتى أنها تخرج لتحييني تحية المساء. وإني أسير قاربي الكبير كما يسير غيري زورقاً صغيراً، وأن أصدقائي من أصحاب الزوارق في (بورجيفال) ليدهشون أعظم الدهش حين أبرز لهم في منتصف الليل، أطلب زجاجة من خمر (روم)". الليل والنهر وروح رجل عظيم واحد.

وقابل (جوستاف فلوبير) عن طريق صلات أسرته، وكان مؤلف مدام بوفاري عبقرياً بوهيمياً يصطنع في الأدب من التجارب مثلما يصطنعه في الحياة من هم أكثر جسارة.

وكان قد قدم للمحاكمة على قصته الصلبة الجبين، وعاش مهملاً كأنه مخلوق محجور عليه، لا يحب أحد أن يلمسه. بيد أنه كان غير آبه، إنه لم يمنح العالم غير حطام نحيل لذاته، ويجلس كأنه آله في معبد فنه الرائع الذي احتفظ بمفتاحه لنفسه فحسب.

لقد كان يبحث عن حواري كامل، وكان موباسان يبحث عن أستاذ كامل.

والآن يلتقي الروحان الهائمان النصفيان اللذان استويا في الوحشة فيندمجان في روح واحد، يهيم مظفراً. وعلى انفراد.

وظل (جي) طيلة سبع سنين يأتي أيام الأحد حاملاً قصائده ومسرحياته وقصصه إلى ذلك العملاق العريض المنكبين ذي الشارب الضخم والعينين القاتمتين ويشهده يجري قلمه الأزرق في كتاباته، فإذا كان المساء افترق الصاحبان بعد نكتة بذيئة من كليهما، يخفي بها قلباً موجعاً.

واستطاع التلميذ تدريجاً أن يفقه سر عبقرية أستاذه، إنها عبقرية مجيد للرماية، استطاع أن يهتك نفاق الحياة بأسهم فتاكة.

-٣-

ومضى وقت طويل قبل أن يحظى موباسان بالتفات الناس، وكان يعاني ألواناً رهيبة من الصداع، لكنه كان ينعش نفسه بالغوص من (قنطرة مغرية في منتصف الشتاء) ويبرز في المياه المتجمدة ليوجه دعابة بذيئة إلى من تجمع من الناس.

وكان يروي قصصاً ماجنة لإخوانه الكتبة في البحرية، ويهمس لمن يقابله من السيدات في الحفلات بألفاظ يجنح فيها إلى التورية.

وكان الجميع يقولون عنه (إنه أفجر شاب في باريس). إنه أفجر الشبان وألمعهم. وهو على ألمعيته–أو قل لألمعيته–كان يزج بنفسه دائماً في المتاعب، فكان الباريسيون ذوو السمعة الطيبة يعرضون عنه، إذا كتب مسلاة ماجنة وأخرجها عند رسام منبوذ من طائفته.

ودعته الشرطة إلى المحاكمة حين نظم قصيدة غير خلقية، ونشرها على صفحات إحدى المجلات المنبوذة.

وظل الصداع يعاوده دائماً، وكلما اشتدت عليه وطأته قضى الساعات يتأمل وجهه في المرآة. لعله يقاسي من إرهاق شاق في غرامه، بفتاة الشارع مثلاً التي قابلها مساء الأمس، تلك الغريبة عليه التي دخلت حياته وخرجت منها ثانية في خلال ثلاثين دقيقة.

وزاد صداعه وقلقه، وخصوصاً عند مقدم شتاء باريس. كتب إلى أمه وكان يعد حبه إياها نقطة الثبات في حياته "ديسمبر يرهبني. إنه الشهر الأسود، الشهر الكريه العميق، الذي يمثل منتصف ليل العام. لقد أعطونا مصابيح في المكتب، وفي خلال الشهر سنوقد النار...

وحين أكون وحيداً أمام مكتبي ومصباحي الحزين متقد أمامي، كثيراً ما تعتريني لحظات يبلغ مني القنوط فيها أني لا أدري إلى أين اتجه".

ولكنه كان دائماً يتجه في النهاية إلى قصصه، فيلتقط حكايات شتيتة من شفاه صائدي السمك والفلاحين والممثلات والعاهرات والكتبة. حدث مرة أنه كان على مائدة إميل زولا، وكان المدعوون سابحين في خيال الشراب، حين تكلم المضيف عن مبادئ الأدب الجديد الذي يكتبه. (لنذكر أن علينا أن نقفز إلى النجوم من سلم الملاحظ الدقيقة).

"واقترح أحد المدعوين أن يكتب كل مناقصته عن حربنا ضد البروسيين– لا على النحو الذي سار عليه المؤرخون والساسة في كتاباتهم عن الحرب، بل على النحو الذي تخيلته زبانية الجحيم، وكما وقعت على الأرض. فلنحطم كل خداع ولنبين موطن البطولة الحقة".

وأسهم (جي) في ذلك المجلد بقصة عن البطولة الحقة (كرة الشحم) كانت (كرة الشحم) امرأة محترفة من بنات الهوى، يحبها الناس حين العجلة ويزدرونها حين الدعة. وذات يوم في خلال الحرب الفرنسية البروسية وجدت نفسها على سفر من باريس إلى

هافر، تقلها عربة مع جمع من كرام القوم.

وما كاد هؤلاء القوم الدمثون يتعرفون على حقيقتها حتى نأوا بجانبهم عنها. وباعدوا بينهم وبينها. ولكنهم حين تبينوا أنها وحدها كانت بعيدة النظر فأحضرت معها غذاء شهياً نسوا زرايتهم بها، وأقبلوا كراماً على ما عرضته عليهم من الطعام. وفي هذا المساء وقفوا عند فندق كان الجنود الألمان قد احتلوه. فأمر قائد الحامية بالقبض على السفر أجمعين وصرح بأنه لن يطلق سراحهم حتى تقضي السيدة السمينة ليلة معه. فرفضت الانصياع لأمره في غضب ثائر. ولكن رفاق السفر حرصاً على حريتهم ضرعوا إليها وألحقوا عليها بشتى الحجج حتى استسلمت آخر الأمر.

وفي الصباح التالي استأنف السفر رحلتهم وعادوا من جديد إلى النأي بجانبهم زراية بتلك المرأة التي أقدمت على التضحية الكبرى من أجلهم. فهم في هذه المرة قد أحضروا غذاءهم ولكنها نسيت أن تفعل بسبب ما كان من اضطراب ففتحوا حقائبهم وأقبلوا على الطعام نهمين.

ولم يعرضوا عليها كسرة من زادهم. فثارت عبراتها وتلألأت في مآقيها. فغمغموا ورعاً وتقى (إنها دموع العار).

في (كرة الشحم) يبين الكاتب عن سخريته وزرايته بغباء البشر على أنه في كثير من قصصه الأخرى تتحول زرأيته إلى العطف. ومن هذه القصص قصته (العقد) ومن النقاد من يعدها القمة التي تناهى إليها القصص الفرنسي.

وقصته القعد هي المسلاة المؤسية لمدام لوازيل، وهي امرأة جميلة فقيرة كانت تحلم بالأمراء فزوجت من أحد الكتبة، وكانت تحلم بالقصور فسكنت في دور سفلي حقير. وليس لديها من طيب ولا حلي فاخر. وقد كانت تتوق إلى هذين كما يتوق الأعرابي الذي يجوب البحر إلى مسقط رأسه من البيداء.

ولكن بقيت لها نعمة واحدة، صديقة غنية كانت زميلتها في الدير ولكنها لم تكن تزور هذه الصديقة لأنها كانت تشقى برؤية الأشياء التي لا قبل لها بشرائها وذات مساء أقبل

زوجها إلى المنزل جذلان فرحاً (إننا مدعوان إلى حفلة ساهرة يقيما وزير المعارف وزوجته). فقالت (ولكن ليس لدي ما ألبسه) فاشترى زوجها لها فستاناً. لكنها لم تزل غير سعيدة (ليس لدي حلي).

(لماذا لا تذهبين إلى صديقتك مدام فورستير وتطلبين أن تعيرك حليها)

فصاحت صيحة الفرح (نعم هذا صحيح. كيف لم يخطر ببالي؟) وذهبت إلى صديقتها فاستعارت عقداً ماسياً جميلاً. وكانت أفتن السيدات في الحفلة الساهرة. وعادت إلى بيتها نشوى. وأخذت تخلع ملابسها أمام المرآة ثم ندت منها صرخة مباغتة (لقد فقدت عقد مدام فورستير) وعبثاً ما جرى من بحث عنه في أنحاء باريس (يجب أن نستطيع على نحو ما رد العقد) وسارت مع زوجها من صائغ إلى صائغ، حتى عثرت على عقد يشبه العقد الذي فقدته.

(ما ثمن هذا؟) (أربعون ألف فرنك. ولكني أبيعه لك مع التضحية بسته وثلاثين ألفاً) وتلت ذلك زيارات لهثى إلى أصدقائها وإلى الصيرفيين والمرابين والمقرضين، حتى استطاعا أخيراً لم أشتات الستة وثلاثين ألف فرنك. وأعادت السيدة لوازيل العقد، ثم سخرت نفسها عبدة للوفاء بالدين. ومضت أيام كانت فيها تعمل وتغسل وتدلك الأرض وتلطخ يديها وتطمس جمالها، وتنزف صحتها وكان زوجها يكدح معها في موازنة حسابات التجار. وكثيراً ما كان يسهر الليل بطوله لينسخ وثيقة بخمسة سنت للصفحة. وظلا على هذه الحال عشر سنين واستطاعا آخر الأمر الوفاء بكافة التزاماتهما: أصل الدين وأرباحه جميعاً. وذات يوم من أيام الأحد كانت السيدة لوازيل، وهي الآن امرأة عجوز مرهقة، تسير في (الشانزلزية) وسرعان ما رأت سيدة جميلة شائقة تسير في الاتجاه المقابل. إنها السيدة فورستير، حينها السيدة لوازيل (عمت صباحاباجين) فنظرت إليها السيدة فورستير دون أن تعرف من تكون (ألا تعرفيني ياجين إنني ماتيلدا لوازيل).

(أي ماتيلدا المسكينة لكم تغيرت)

(لقد أصابني عنت شديد هذه السنين. وكله من أجلك)

(من أجلي؟ كيف ذلك؟)

(لقد فقدت العقد الذي استعرته منك. لكني اشتريت عقداً آخر يشبهه تماماً. وظللت أفي بثمنه عشر سنوات) فمس ذلك شغاف قلب السيدة فورستير فأخذت اليدين المسكينتين الخشنتين في يديها (أي ماتيلدا المسكينة لكن عقدي لم يكن يساوي إلا خمسمائة فرنك على الأكثر).

–٤–

وفي خلال أيام الصداقة الوثيقة بين جوستاف فلوبير وموباسان، قدم فلوبير لصاحبه نظرية النجاح الأدبي تتكون من ثلاثة أجزاء: لاحظ، ولاحظ ثم لاحظ أيضاً. فلما مات فلوبير على حين بغتة دخل جي تلك الغرفة التي ظل يزورها أيام الأحد طيلة سبع سنين، وصعد الدرج إلى حيث أسجي الرجل الميت، ولم يكن هذا المراقب يقدس شيئاً من الأشياء.

فبينما هم يغسلون الجثة ويعدونها للدفن، كانت عيناه وعقله في شغل بجمع التفاصيل ليستخدمها في فنه مستقبلاً. وبينما هو يسير وراء عربة الموتى إلى المدفن لاحظ أن بقرة تنظر من فوق سياج وتخور في ضوء الشمس لشيء لم تفهمه.

ولاحظ عند القبر كيف أرهق الدفانون غير المهرة وتصبب عرقهم من شد أحبال التابوت وكيف مال التابوت إلى ناحية واندك في الأرض، ورفض دخول القبر حتى تعاون في إدخاله رجال أكثر عدداً. فقفز قلبه من أثر تلك الرعدة اللهثى للفنان لعدم اتساق الأشياء. فحمد الله على حضوره في هذه اللحظة ليدرك وحشية الحياة وعدم جدواها. إنه حس القصاص، غريزة طبيعية كأنها حاسة الشم عند كلب الصيد ولكن هناك كلباً كذلك.

وكان أحياناً يلقي بقلمه جانباً، ينتظر، ويتلوى من الألم ساعات حتى ينجاب الظلام عن عينيه. وكثيراً ما كان يستنشق (الأثير) ويميل على أبخرته ويحلم بانتهاء آلامه. وكان يشتري قنينات صغيرة من العقاقير المشروبة التي كانت تلتهم كل ما ادخره من مال لعطلة صيفية.

ولكن كان يكمن دائماً وراء تأوهات الآلم نغمة من الجمال الوثني (إني أحب السماء كأنني الطير، والغابات كأنني الذئب، والصخور كأنني التيتل والعشب العميق كما يحب الحصان أن يتمرغ فيه، والماء الصافي لأسبح فيه كأنني سمكة إني لأحس بأنه يتردد على خاطري شيء مشترك في كل حيوان، بعض من كل الغرائز والرغبات المبهمة للمخلوقات الدنيا فأنا أحب الحياة كما تحبها هذه الحيوانات لا كما تحبونها أنتم معشر البشر أحبها دون إعجاب بها. ودون تدله شعري في حبها، ودون تحليق إلى السموات العليا. أحبها حباً عميقاً حيوانياً، حباً زرياً ولكنه مقدس).

إنه يتظاهر أنه لا يرأف بالإنسان، وتكذبه في هذا قصصه (إني أستطيع أن أشج جمجمة شاعر لمجرد رؤية ماذا في داخلها) على أنه الآلام التي تعانيها العجماوات، تلك الآلام التي تغمض على الفهم، هي ما يروعه ويوقظ في روحه كل مشاعر الرقة، كما قال. إن صيحة الذئب في الكمين هي صيحته. وإن عبقريته التي سمت كثيراً على عبقرية الرجل العادي لترتبط بالإحساسات الجسدية لحياة أدنى في سلم التطور من حياة الإنسان.

لقد كتب – ولعله كان في أبخرة أثيره– عن امرأة فلاحة عجوز بخيلة قررت أن تلقي بكلبها في حفرة. وكان كلباً لا يقارف حتى النباح، تخلصاً من أداء ثمانية فرنكات ضريبة للحكومة على الكلب. واتصلت أول الأمر بأحد العمال لينفذ لها ما أرادت لكنه طلب خمسة بنسات أجراً له على ذلك (فبدا لها هذا مبلغاً قد بولغ في تقديره كثيراً، وعرض خادم زراعي للجيران أن ينجز ذلك لقاء بنسين ونصف بنس ولكن هذا لم يزل أجراً باهظاً؛ ولذا ذهبت السيدة بنفسها إلى الحفرة وألقت بالكلب فيها من عنقه، فسمعت أول الأمر صوتاً لوقوعه في الأرض. وكان صوتاً كئيباً تلته صيحة حادة، صيحة ولولة تمزق القلوب يبعثها حيوان جريح. وأعقبت ذلك صيحات ألم صغيرة كثيرة متتابعة، ثم ضراعات يائسة، ضراعات كلب رفع رأسه تجاه فوهة الحفرة. وفي هذه الليلة رأت الكلب فيما يرى النائم فقررت في الصباح إخراج الكلب من الحفرة. فذهبت إلى رجل يعمل في حفر الصلصال وطلبت مساعدته، لكنه طلب أربعة فرنكات أجراً على إخراج الكلب فذهلت المرأة وقالت في صيحة الغضب (أربعة فرنكات... يا له من أجر باهظ) إنها تستطيع إذن

أن تريح ضميرها بأن تلقي بكسرة من الخبز في الحفرة (ولكن في هذه الأثناء كان قد ألقي في الحفرة مع "بيرو" كلب أكبر منه. فإذا ألقت السيدة بكسرة الخبز استطاعت أن تستبين في وضوح صوت العراك الرهيب، ثم صيحات "بيرو" الشاكية، فقد عضة الكلب الكبير، وتقنع السيدة بالتخصيص قائلة: "إنها لك يا بيرو" وكان من الواضح أن "بيرو" لم يصب شيئاً. ثم قالت في نبرة من يبرر سلوكه الذاتي "إني لا أستطيع إطعام جميع الكلاب التي ألقيت في الحفرة").

وفي ضيقها بفكرة إطعام كل هاتيك الكلاب الحية على نفقتها انصرفت. بل لقد أخذت معها بقية الخبز لتأكله وهي قافلة.

وكانت العبرات تصعد إلى عينيه حين يتحدث عن العذاب الصامت الذي يلقاه أشقاء روحه. وقد نظم أنشودة رقيقة جميلة في رثاء جثمان حمار قد استلقى للانحلال وناشه الذباب على بعد خطوات ثلاث من الحقول الخضراء التي كان بها يهيم عبثاً، طوال حياة ملئت بالكدح من أجل صاحبه.

وماذا عن الإنسان ذلك الحيوان الأصغر؟ إن القدر يسيطر عليه بنفس الوحشية التي يسيطر بها الإنسان على الحمير والكلاب فيما يقول.

واستطاع بضربات قليلة من ضربات قلمه اللدن أن يعيد الحياة إلى كل جهاد الفلاحين النرمنديين في غير عناء. على أن اتصاله بهذه الأرواح المسكينة لم يكن اتصال عقل بعقل، بل اتصال حس بحس، ولمس بلمس، وشم بشم، فقد كانت حاسة الشم عنده حادة كأنها حاسة حيوانات الحقول. كان يشم عواطفهم وطرائقهم في العيش وغرائزهم بل وأفكارهم (وكل الحياة في كتاباته تبدو كأنها مجموعة من الروائح) ومعظمها روائح كريهة.

فلقد كان يتصور الحياة قبيحة (فهو يركز التفاته في نقطة صغيرة من الحياة البشرية، وهي عادة نقطة كئيبة رثة غير شائقة، ويأخذ هذا الجزء الصغير فيضغطه إلى أن يعبس أو يدمى.

ولكن أتعس قصصه يومض في روايتها بريق الشهوة، إنه يحب ذلك الاتصال الكهربي للحم البشري. فهو (رينوار٥) القلم. ولم يكن يرى فكاهة دقيقة مستخفية في قصص الحياة التي كان عليه أن يرويها، سواء قصص الفلاحين أو الأمراء، ولكنه بلغ أدق الحيل الفنية في وصفه لمسلاة الآلم والغباء والبذاءة، وكانت قصصه القصيرة إحياء لقصص لافونتين الخرافية وقصص بوكاشيو الفكهة، وقد كانت (القصة الإباحية) دائماً تستثير الشرارة السريعة للعقل اللاتيني.

وكان موباسان أستاذ الأقصوصة، لكن طريقته في سردها هي طريقة سرد الملاحم. ولقد كتب كثيراً من القصص كانت في الواقع أقاصيص وكانت كل أقاصيصه قصصاً طويلة. وأشخاصه جميعاً لا ينعمون براحة دينية أو روحية. ومع ذلك فهو شاعر متنكر في زي ساخر قاسي الفؤاد. فتشاؤمه ودقته العلمية وأسلوبه المشرق البسيط الذي ينحو فيه منحى الأدباء الأقدمين إنما هو مستعار من مظاهر جيل الشبان الذين يعيشون حوله، وكان موباسان يشعر كما يشعر بقية جيله أن الله قد خلقه لكنه يرفض ساخراً أن يؤمن بهذه الأبوة.

ولم يكن لديه مبدأ فلسفي يعيش عليه (أن هناك من الحقائق ما يساوي الناس عداً. فكل منا يكون لنفسه صورة خادعة للعالم. وهو خداع شعري أو عاطفي أو بهيج أو مقبض أو قذر أو كئيب حسبما تكون طبيعته...كخداع الجمال وهو تقليد إنساني.. وخداع الدمامة وهو فكرة متغيرة.. وخداع النذالة الذي يستهوي الكثيرين. وكبار الفنانين هم أولئك الذين يسعهم حمل الإنسانية على قبول انخداعاتهم الخاصة).

وكان مجتمع فوبورج سانت أونوري الذي يستضيفه قد ضاق به، فإنه جلف ريفي شهواني رغم كل شهرته ونأنقه. وعيناه لا تخصان شيئاً بنظراتهما أنهما لبسنا عيني رجل طبيعي. فإنهما عينان لا تنبئان بروح.

وهذا جي دى موباسان الذي أصبح أستاذ الضحك بلا مسرة ينظر في المرآة إلى

---

٥ رسام فرنسي من الانطباعيين. (المترجم)

عينيه فيتبلبل هو أيضاً. وكان وجهه يزداد نحولاً كأنما العينان تأكلان اللحم بمقتضى قانون مستمد من طبيعتهما. وكان يحلق ذقنه ذات صباح، فآتي ضباب بينه وبين المرآة، فوضع يده على رأسه المصدع، وأخذ يدرك السبب في عمق بصره بذرات الأشياء؟

لم يحدس ذلك أحد؟ إن السبب هو أن عقله يتحلل تدريجاً إلى ذرات الأشياء. فكل فكرة من أفكاره كانت تذوب في قطرات من الإدراك، وكل ذرة من أفكاره ترى كل ذرة زميلة في صورة من اللمعان المعافى قبل الانحلال الأخير.

وكان يتسلق سلم الفن من عبقرية إلى عبقرية أعظم، إلى الطفولة، إلى الإنسان البدائي وما قبله. وكان يهبط سلم التطور نازلاً إلى إنسان ما قبل التاريخ ثم نصف الإنسان.. وما دون ذلك.

ولم يكن يفهم لماذا يموت بمرض تناسلي أصابه في لحظة غامضة مجهولة أثناء مغامرة مع خيال. لم يفهم ذلك وأفزعته فكرة الموت. إني أؤمن بأن كل إنسان يموت يطويه العدم قطعاً. إن الإنسان إذا مزح مع الحياة سلكه الناس في عداد المازحين الماجنين أبد الدهر. إن هؤلاء الملايين من قراء كتبه لم يدركوا أن ما يظهر في قصصه من أوهام وأشباح، إنما يرجع إلى ساعات سرية من حياته الخاصة.

لقد طمر نفسه بكتب الطب، وقابل الأطباء في كل مكان، يسألهم من الأمراض، فاستنتج العقلاء أنه يجمع معلومات يفيد منها في كتاب جديد، في سخرية بالأطباء، ودراسة للشذوذ. فلما قال لأضيافه في هدوء ساعة العشاء (إني مهتم بالجنون، سأصف العملية التي ينحدر فيها رجل إلى الجنون تدريجاً). ترى هل وعوا ما يقول؟ وهل درت عشيقاته أنه إنما كان يختلف إليهن لأنه يخشى النوم وحيداً؟ لقد كان مصاباً بداء الكشف والتفرج على ذاته، وكان أحياناً يرى نفسه في وضوح كأنه ينظر في المرآة. ودخل حجراته بعد الظهر في أحد الأيام فوجد نفسه جالساً على مقعد يقرأ كتاباً كان قد نحاه جانباً حين برح الغرفة منذ لحظة. وكتب قصة (لاهورلا) عن رجل يتردد عليه طيفه.

وكان مرة يكتب على منضدة فجلس طيفه قبالته في سكون، وأخذ يملي عليه ما

يكتب كلمة كلمة، فشحب وجهه وصرخ، وحرك يده حركات يائسة ليطرد الطيف. وكانت قشعريرة عوالم الموتى تسري في دمه. وهو الآن يخشى قدوم الشتاء أكثر مما كان يفعل في أي وقت مضى. فيجلس مرتعشاً إلى جانب النار وحين يكون الجو دافئاً كان يوقد النار في جميع الغرف.

واشترى قارب نزهة، وأبحر تحت شمس البحر المتوسط، وجال في رمال إفريقيا. لكنه في الحر كما في البرد، كان يكتب ملاحظته وبدنه يقشعر. كان يفكر في الذباب الذي يعيش أياماً قليلة، والناس الذين يحبون أعواماً قليلة والعوالم التي تعيش قرونا قليلة. فما هو الفرق بين الدودة والكون؟ فرق بضعة أيام لا أكثر... (إني أرى الموت الآن قد اقترب مني بحيث صرت بحاجة إلى مد ذراعي لأدفعه عني. إني أراه في كل مكان وأن الحشرات التي هشمت في الطريق، وأوراق الشجر المتساقطة، والشعرات الشيباء في رأس صديق لتمزق قلبي كل ممزق وتصيح بي (تدبر) إنها لتفسد على كل ما أفعل وأرى وأطعم وأشرب وأحب– ضوء القمر اللامع ومشرق الشمس ومنفسح المحيط، والأنهار النبيلة، ونسيم أمسيات الصيف الذي يطيب تنفسه).

وهو الآن يصغى بحاسة سابعه فتوافيه مع أنسام البحر المتوسط أنباء مزعجة فإن القدر على حين بغتة أصاب أخاه الأصغر هارفي القوي البنية الجاد البعيد عن الأوهام بضربة قاضية في عقله. كما تضرب الشمس مستحماً نائماً.

فلما اصطحبه أقاربه إلى مصحة العقل أشار إلى (جى) صارخاً (إنك أنت المجنون إني أقول لك إنك مجنون العائلة) وسرعان ما كان هارفي مستلقياً على فراش الموت هادئاً غير مكترث، ولكنه بذل جهداً أخيراً بأن نادى أخاه، كما كان من عادته أن يفعل حين كانا صبيين:

(تعال نلعب في الحديقة يا جى) وما كاد جى يجفف دمعه حتى كان أخوه قد فارق الحياة.

والآن شاءت سخرية الحياة الحزينة أن تكون هذه الفترة هي فترة خلقه الأدبي

الأعظم، وكأنما قد أخطأ الطريق بغتة فدلف إلى حظيرة آلهه لا تراها العين. ذلك بأن السموم القاتلة التي تجري في دمه كانت تستخرج منه أينع أزهار عبقريته قبل أن تحطمه. فقد سطر قلمه قصصاً عن المناطق الاستوائية الهادئة المتوهجة، وعن الحب الإنساني الجميل وعن رحلات في البحر المتوسط الذي كانت أمواجه تذوب في ضوء القمر المبدع فتغدو نجوماً وكواكب.

ونما ألمه بنمو جماله، فمناضد المكتبة والمقاعد والمصابيح صارت حيوانات تسعى دخولاً إلى الغرفة وانصرافاً عنها، ونزولاً على الدرج وسيراً في الطريق أن ملايين وبلايين الجراثيم تسري في دمه، كأنها في استعراض. فإذا وضع كعبه على الأرض قفز إلى أعلى في الحال، وكان خادمه يسير وراءه في بطء خلال الحقول ذات مرة، فرأيا صليباً عليه صورة المسيح فقال (أي فرانسوا لقد كانت سنة ثلاثاً وثلاثين حين صلب. وأنا الآن أقارب الواحدة والأربعين).

لقد صار (الرسام الأكبر للعبوس البشري).. وهو يرسم وليس به حب ولا كراهة ولا غضب ولا عطف، فهو يعرض علينا كل الأرواح الغريبة العجيبة وكل منكودي الطالع عرضاً واضحاً بحيث نراهم بأعيننا نحن، فنجدهم أحق من الحقيقة نفسها. أنه يبعث إلى الحياة دون أن يصدر حكماً.. وإنه ليعدل الطبيعة في حياده وعدم اكتراثه.

وحدث بعد ساعات قليلة على ليلة رأس السنة أن وجه موباسان غداره إلى رأسه وشد زنادها، فلما وجدها خاوية شق حلقه بموسى ووقف يحملق في ابتسامة غير آبهة. فإذا هرع خادمه إلى الغرفة صائحاً قال له في هدوء (لقد رأيت ما فعلت بنفسي يا فرنسوا. لقد شققت حلقي إنها مسألة جنون مطبق) أن الرجل الطبيعي إنما قد قام بتجربة نهائية على الحيوان البشري، وهو الآن على استعداد للتخلي عن دروسه، لقد ضمد الأطباء جراحه وأوقفوا تدفق الدم.

فلما أقبل الصباح كأنه كلب الصيد يعدو في السماء، اقتادوه إلى بحره الحبيب لعل منظر قاربه الصديق الجميل (بيل آمي) يرده إلي صوابه. فأطال النظر إلى القارب بعض

الوقت، وتحركت شفتاه كأنه الطفل الذي لم يتعلم الكلام بعد. فلم يقل شيئاً، ثم انصرف عنه. إن شيئاً مما حوله لم يعد يعنيه على الإطلاق.

إنه ليطفو في دعة مع الحشائش والصفصاف على صفحة ذاك الغدير الرهيب الذي لا يزعجه مد ولا جزر.

أهم مؤلفات موباسان

Yvette
Mademoiselle Fifi
Pierre et Jean
Fort comme la mort
Bel-Ami
Une Vie
Notre Coeur
Boule de suif

إميل زولا

١٨٤٠ - ١٩٠٢

في عام ١٨٧٤ كان أربعة من الكتاب يجتمعون للعشاء في قهوة (ريش) بباريس مرة في الشهر، وكان هؤلاء الأربعة هم: زولا، وفلوبير، وترجنيف، ودودية، وكان هذا الاجتماع الشهري– أو عشاء الكتاب المبغضين كما كان يدعى– قد صار موسماً فترياً لتبادل الأفكار العظيمة، والحديث الشهي، والطعام الأشهي.

يكتب زولا في ذلك "كنا جميعاً من أهل البطنة، أما أنا فكنت بحاجة إلى البطنة. إذ كان علي أن املأ معدة قد طال عليها الخواء". وكانوا يجلسون إلى المائدة في السابعة، ويغادرون المطعم في الثانية عشرة، لا ليذهبوا إلى منازلهم. فعليهم أولاً أن يهيموا في الطرقات حتى الساعة الثانية، أو الثالثة أو الرابعة صباحاً يتذاكرون خططهم، ويتحدثون عن قصصهم التالية، ويمزقون العالم ليعيدوا تأليفه كما تهوى قلوبهم.

وينصرف ترجنيف أول منصرف، ويليه دودية ثم يسير زولا ليصحب الأب فلوبير إلى منزل الأخير في شارع موريلو، فإذا بلغا الباب قبل فلوبير زولا من كلا خديه، وافترق الصاحبان بعد إذ يقول الأستاذ كلمة لحوارية "كل شيء قد قيل أمامنا يا بني، ولم يبق لنا إلا أن نردد ما قيل. وكل ما علينا أن نقوله في ألفاظ أجمل".

وعاد زولا لا ليردد ما قيل في ألفاظ أجمل، بل ليقول أشياء جديدة في ألفاظ قدر لها أن تتجاوب في كل بقاع العالم.

–٢–

وكلمة (زولا) معناها كتلة من الأرض، وكان هذا الاسم يصدق على أميل، فهو ابن أمنا الأرض، يحب كل مخلوق عادي خرج من صميمها.

وكان إنساناً تجري في عروقه دماء مختلطة.. تحوي قليلاً من كل ما هو طيب، فجدته

إغريقية، وأمه فرنسية، وأبوه إيطالي.

كان فرانسسكو زولا مهندساً مدنياً لديه دائماً الأفكار الصالحة، يؤيدها رجال غير صالحين. وقد تمكن آخر الأمر من استشراف النجاح حين عهد إليه حكام أكس بحفر قناة تجلب الماء من الجبال إلى المدينة، لكنه لم يستطع قط أن يجاوز الاستشراف، ومات عام ١٨٤٧ قبل أن يبدأ العمل في حفر القناة تاركاً السيدة زولا بابنها أميل، وكان في السابعة، وليس لديها شيء تعوله به غير حلم خائب.

فأمضى خمس سنوات في تعلم متقطع، يتخللها كثير من رحلات الاسترخاء إلى شاطئ التورز ثم بعث بالأفاق الدميم الصغير إلى تعليم صحيح في كلية أكس.

وكان مقامه بالكلية عذاباً طويلاً متصلاً فهو متحفظ يصعب عليه كسب الأصدقاء وبه لثغة تربكه. فإذا سأله رفاق الدرس ما أسمه تلعثم وهو يجيب (ثولا) وأصبح (ثولا) اسماً يطلق عليه تهكماً، وسوط عذاب يصب على ذلك المتلعثم المرتبك الحساس.

لكنه لم يتلق عقابه متسلماً فهو محارب مكافح. وإذا وقف في وجه الدهماء كال لهم صاعاً بصاعٍ. ولقد هاجمه ذات صباح تلاميذ ملأوا فناء المدرسة فوقف مقهوراً يلهث، يحاول بأقصى الجهد أن يوقف دمعه. فذهب إليه صبي كان قد بلغ الفناء لتوه وقال له: يؤسفني ما حدث.

حسناً: إني أستطيع الذود عن نفسي.

فمد إليه ذلك القادم الجديد بده وقال في دفعة: أريد لأتخذ منك صديقاً..

– وكذلك أريد.

هذا ما قال زولا وهو يصافح اليد التي امتدت إليه. وبالمناسبة ما اسمك؟

"سيزان. بول سيزان". وهكذا بدأت الصحبة التي استمرت سنوات طويلة بين ثائرين من أولي العزم يواجهان العالم.

–٣–

كان زولا الصغير (وهو في كلية أكس) كاتباً مجيداً. فهو في عامه الثالث عشر يكتب قصة تمثيلية ذات ثلاثة فصول– ولكنه تلميذ متخلف– فإذا ترك كلية أكس إلى مدرسة المعلمين العليا بباريس لم يكن قد تحسنت حاله فهو ينقطع عن الدراسة، ويرفض أن يردد ما حفظ مني وطلب منه ذلك، ويقف وقته كله على قرض الشعر ومطالعة رابلية، ومنتاني، وهيجو، وموسيه، ونال في الامتحان النهائي صفراً في الأدب.

وجاء رسوبه ضربة أليمة لأمه فهي قد نظفت أرض المنازل وأزالت أقذارها وغسلت ملابس الناس لتنفق عليه في تعليمه بالكلية، لقد أرادت أن تجعل منه مهندساً كأبيه، الآن تتحطم آمالها وتتهشم فإن القدر يسوق أميل إلى أن يكون من الكتبة، أو يسوقه لا قدر الله إلى حياة الأديب الجدية. وكان أميل نفسه يائساً، فقد كتب إلى أحد أصدقائه: "في الأسبوع الماضي وقعت في براثن حزن حزين، فلقد بلغت العشرين دون أن أتعلم مهنة ما، فإني حتى الآن لا زلت أهيم في الأحلام، وأسير على رمال واهية، ومن يدري متى أقع؟".

وشاء حسن الحظ أن ينقذه من الوقوع الفجائي صديق قديم لوالده، وكان يدعي لبوت. فقد عينه كاتباً في مرفأ نابليون. وهو عمل يكاد يفي بغذاء جسمه لكنه لا يقدم شيئاً لغذاء روحه. لم يكن في المرفأ شيء من المرح "فظللت أقيم أشهراً في هذه الحظيرة اللعينة، والله إني لأشعر بأثر ذلك في ظهري ورجلي وأطرافي الأخرى جميعاً. وإني أجد لمكتبي رائحة كريهة. إني لأتقزز– ولسوف أقطع ما بيني وبين ذلك المخزن الخبيث".

وقطع ما بينهما بعد أشهر قليلة، ثم انزوى عامين في حمأة الشقاء والعوز والجوع والمرارة والإسمال واليأس، والأحلام ورسم الخطط لإيجاد عهد للإنسانية جديد، وخلق إنجيل جديد يضيق مسافة الخلف ما بين السماء والأرض.. ليته يستطيع صنع هذا الإنجيل. ليته يستطيع تسكين هذا الألم المبرح في معدته!.

ثم يلتئم شمله بسيزان، وكان قد تبعه إلى باريس ويسكنان بعض الغرف معاً ويحلمان معاً، ويقتلهما الجوع معاً. النبي الجديد للبيان، والنبي الجديد للتصوير، في عصر لا يحفل فيه أحد بالأنبياء، فكان زولا يكتب القصائد وسيزان يلون الصور، ولا يجد أيهما جمهوراً

يقدر بضاعته، ولو أردنا الحق لقلنا إن أحداً منهما لم يكن يستحق التفات الجمهور إليه حتى ذلك الوقت. فإن لهيب الإلهام لم يمسس بعد ذلك الوقود الذي صنعته آلامهما.

(لكني سأكتب حتماً ذلك الأثر العظيم يوماً ما. والأيام بيننا) .

وفي هذه الأثناء كان يذوق مزيداً من المرارة ومزيداً من اليأس، ومزيداً من العوز، وبلغ الجوع منه مبلغه في شتاء عام ١٨٦١- ٦٢ فأقام الفخاخ على سقف عليته يتصيد بها العصافير التي جعل يشويها على شمعة ثبتها بطرف قضيب، وكان يغمى عليه أحياناً من الجوع.

وكانت نجاته في هذه المرة أيضاً على يد صديق لأبيه. فعين هذه المرة عاملاً للف الكتب وحزمها في دار للنشر يملكها هاشيت وشركاؤه.

وظل شهوراً عدة يلف الكتب في قسم الشحن البحري، ويكتب إذا فرغ تعليقات على هذه الكتب، يتسلى بذلك ويستمتع.

وذات يوم بغته صاحب الدار وهو يمارس هوايته العابثة. فقرأ التعقيب وقال "قد تكون يا زولا متراخياً في الشحن، لكنك في النسخ أقل سوءاً. فلنجربك في قسم الإعلان".

وكانت هذه الترقية نعمة ساقها الله إلى زولا. لقد وجد آخر الأمر فرصة لكسب عيشه بقلمه.

فإذا شحذ قلمه، جعل يستعمله مثابراً في النهار والليل، فلا يفرغ من عمله الرتيب في المكتب حتى يذهب إلى المنزل- وكان يساكن أمه فيه وقتئذ، فيصيب عشاء وافراً ثم يجلس إلى كتابة غير رتيبة.

وكان قد انصرف عن الشعر إلى القصة "لقد كانت ملهمة شعري. لا غناء فيها فلأكن ناثراً منذ اليوم". وأخذ يعرض قصصه القصيرة، فسعد بأن رأى بعضها منشوراً في الجرائد المحلية. ثم جمع قدراً من هذه القصص وعرضها، لا على ناشره بل على ناشر آخر

أقل منه تزمتاً هو (هتزل ولكروا).

وكنا في أوائل الربيع من عام ١٨٦٤، حين نظر إليه (لكروا) من خلف مكتبه. فرأى صبياً بديناً مرتبكاً شعره منفوش وأنفه أفطس كأنه يتحدى.

"سيدي، أتتفضل بقراءة هذه القصص، ولو قصة واحدة منها فقط. أرجوك أن تقرأ منها أي واحدة شئت. فسترى لتوك أني صاحب كفاية".

فطرب (لكروا) لما سمع من توكيد الصبي، وإن كان قد سمعه في نغم بالغ التهيب. فوعد زولا بقراءة المخطوط. وانتظر زولا عدة أسابيع بدت له في قلقه كأنها بضع سنوات، ثم قبل الناشرون المخطوط.

قال زولا في بهجة "لقد كانت المعركة قصيرة: إني الآن على عتبة الحياة، فليس علي إلا أن أسير قدماً من هذه النقطة وأن أتابع السير". وبعد نباهة الذكر، جاء الحب والخيال.

-٤-

فقد استأجر زولا شقة في أحد الشوارع قريباً من مدرسة الطب على الشاطئ الأيسر لنهر السين، ورأى (ألكسندر ينامسلي) ابنة صاحب الحجرات التي استأجرها ذات مساء، وكانت الفتاة سمراء طويلة تأخذ بالأبصار، ذات عينين كأنهما عينا طفل في صورة إسبانية قديمة. كانت هذه الفتاة تبكي وتحاول أن تتجنبه، وعرف زولا أمرها شيئاً فشيئاً.

فهي قد كرست نفسها لعاشقها، وكان طالب طب من الأقاليم، وقد ذهب الجيب إلى بلدته وهجرها. فأخذها زولا إلى منزله واتخذها خليلة.

وما لبث أن تلقفها قلبه فاتخذها خليلة. وكانت معاشرة تساوت فيها رقة الزوج ورقة الزوجة، ولم يكد يكون بينهما أي تشابه من حيث الجسم (فزولا دميم كأنه الكابوس. وألكسندرينا، حلوة كأنها الحلم) ولئن عبد زولا جمال جسمها فقد عبدت ألكسندرينا جمال روحه.

ولسوف تثبت ألكسندرينا أيضاً –كما سنرى– أنها صاحبة روح جميل.

لقد صار زولا صاحب بيت مستقر وشهرة تنمو وتكبر في عمله. وكان معنياً بالأدب الواقعي من طراز قصة (مدام بوفاري) لفلوبير، وتمثيليات من طراز هنريت ماريشال لكونكور تلك الدراسات العلمية في الحب، التي أصابتها عيون نفذت إلى أعمق أسرار الحياة. فأراد أن يكون كذلك عيناً بصيرة تكشف عن أمراض المجتمع كي يعالج جراحه.

فكتب عدداً من القصص الواقعية، وهو يفضل أن يسميها بالطبيعية. وقد قرئت القصص على نطاق واسع، وأهين زولا على نطاق واسع كذلك "لقد سقطت من عين أهل الوقار".

وظل الجمهور يشتمه ويقرأه، ويصب في جيبه المال. فقد صار في دوائر المثقفين غير الوقورين، علماً ذائع الشهرة إلى حد ما، حتى لكأنه الأسد كما يقولون، أو بالأحرى: كأنه الدب، بوجهه هذا الأشعث وبطنه الضخمة، وذوقه الخشن غير المصقول.

وكتب سلسلة مقالات في مدح (سيزان) وغيره من الفنانين المحدثين المزدرين وإن كان يعترف بأنه لا يحسن تمييز اللون الأسود من اللون الأبيض.

وقد أثار حول آرائه المجنونة عاصفة من الخصومات. ويستمرئ جنونه وشهرته.. فكل هذا يعبد له الطريق إلى مشروعه الضخم، وهو تأليف الإنجيل الجديد الذي كان يرسم خطته طيلة سنوات عدة، والذي يرسم صورة الإنسانية كاملة غير مزدانة، كما تتضح من دراسة الأجيال المتعاقبة من أسرة واحدة. وإنها لملحمة من ملاحم الاتهام ستكون في الوقت ذاته إنجيلاً للأمل. وحين يكتب زولا ملحمة الاتهام هذه في عشرة مجلدات، يصبح على حين فجأة تلميذاً وناقداً ومعلماً لبني جنسه.

وكان قبل أن يبدأ كتابة كل قصة، يأخذ في دراسة شاملة كاملة للمشاهد والأشخاص والأماكن واللغة والآمال والمخاوف والعقائد لتلك الذرات الإنسانية التي يتركب منها بناء القصة. فكان يقرأ كتباً في الموضوع ويزور الأماكن ويحادث الناس ويرقب تصرفاتهم وأصواتهم وبهجتهم الدارجة، ويثبت ما رأى فكان يجمع لكل قصة مذكرات تملأ

مجلدات متتابعة، ثم يأخذ هذه الكتلة المستعصية من المعلومات ويعيد قراءتها ويسبكها ويصوغها في ذهنه إلى فكرة وخطة، ويتابع كل شيء في تريث ونظام وصبر. إن الكتابة عبء ثقيل.

وأخيراً بعد كد يظل عدة أشهر، ربما عدة سنوات، يولد أثر من آثار الأدب.

ولنلق نظرة عجلى على أحد هذه الآثار الفنية (لاسوموار) وكانت لهباً يندلع من كمية من الوقود ضخمة. وقد أسهب زولا في وصف إعداد هذه القصة وكتابتها. فهذه القصة صورة لما يلقى الفقراء من آلام، وإنها لصورة مخيفة. كذلك يقول زولا في مذكراته "وهي قصة تفصح هي عن مغزاها. وتدعى بطلة القصة: جرفيز ماكارت وهي امرأة من الشعب.. هي مثل من البؤساء الذين تنكرت لهم أمنا الأرض. وعاملتهم بما ينتظر المرء من زوج أبيه، وإن جرفيز لم تكد تعدو العشرين حين ولدت طفلين (كنود، وأتين) وكلاهما جاء من علاقتها غير المشروعة (بلنتيير). فقد ألقت بنفسها في حماية بلنتيير وهي بعد في سن الثالثة عشرة لتنجو من قسوة أبويها.. وكان لنتيير في أول أمره رحيماً بها، غير أنه الآن يهملها، فهو يقضي الليل بطوله في السهر خارج المنزل، ومتى عاد مع الصبح لم يكن يستطيع النهوض على قدميه، وسل عن ذلك حانته في الحي (سوموار) وامرأة أخرى هي (أديل) ولا تزال جرفيز ذات جاذبية وملاحة، غير أن بها عيباً جسمانياً واحداً هو ظلع يسير إذا مشت. وكان هذا الظلع يزيد وضوحاً حين تجهدها كثرة العمل بوجه خاص، وإنها هذه الأيام لفي غاية التعب حقاً.

وكانت ذات صباح تغسل ملابس الأسرة في مغسل عام. فيهرع ولداها إليها ليخبراها أن لنتيير قد هجرها وأقبل على (أديل) ومضى بكل ما تملك جرفيز وأضيفت إلي أنباء الأطفال المشيرة، سخرية من فرجيني أخت (أديل) وكانت امرأة قوية البنية جاءت إلى المغسل تشفياً بشهود ما أصاب غريمة (أديل). وإذا كانت جوفيز أصغر حجماً وأهش قوة ممن تعيرها وتشمت بها، فقد قفزت فوقها وركلتها وعضتها وضربتها حتى توسلت فرجيني بطلب الرحمة "لكني لن أغفر لك هذا قط" بذلك غمغمت فرجيني وهي تنسل من المغسل.

وظلت جرفيز بعض الوقت تعول نفسها وولديها بأجر ما تغسل من ملابس الناس.. وكان من معارفها (كوبو) عامل القصدير، وهو شاب يعرف قصتها التعسة مع لنتيير، ويطلب إليها (كوبو) أن تكون له خليلة ولكنها ترفض المرة بعد المرة. وأخيراً يطلب يدها فتقبل.

وتثور العواصف والاتهامات من أسرة كوبو. ويطمئن الزوجان فترة سعيدة شيئاً. فإن كوبو لعامل مجد، وجرفيز غسالة ممتازة.

ويتمكن الزوجان معاً من تهيئة منزل طيب للطفلين ولطفلة ثالثة هي (نانا) التي ولدت بعد زواجهما بأربعة أعوام.

وما هي إلا فترة قصيرة اعتكفتها مع (نانا) ثم تعود إلى العمل في المغسل. وكانت لا تحلم إلا بأن تكون صاحبة مغسل، وأن الأمور ليست بالغة السوء آخر الأمر، وخاصة إذا اشتغلت في جد، وحافظت على أمانتها وتدبر مشروعاتها. لكن مشروعاتها أصيبت يوماً بصدمة مفاجئة ذلك بأن زوجها قد هوى من سقف يصلحه، فرفضت إرساله إلى المستشفى وأصرت على العناية به في المنزل. فكانت نقاهة طويلة، خرج منها كوبو وقد صار يختلف عن الرجل القديم. فالسقوط لم يهشم جسمه وحده، بل هشم روحه كذلك. فلم يعد طموح ولا خطة ولا أمل، وإنما هي عاطفة مسيطرة هي الحانة.

وكان القدر يحاور أسرة كوبو، كما يحاور القط الجرذ. فهي تطعم لقمة سائغة من السعادة ثم تخوض لجة من الشقاء، ثم توعد بالسعادة وعداً جديداً كذوباً.

فهذا رجل كان يحب جوفيز مستخفياً هو (كونجي) الحداد ذو اللحية الذهبية، والقلب الذهبي، وقد ظهر عليها فحملها على أن تقبل منه قرضاً مقداره خمسمائة من الفرنكات، وهذا مبلغ يكفيها أن تفتتح مغسلها وتحقق حلمها.

لكن القدر كان يتربص بها في الربيع القادم كما يتربص النمر.

فقد غدت فرجيني أخت (أديل) جارة لأسرة كوبو، وهي لم تنس قط تلك الوكزة من جرفيز. فأدعت صداقة جرفيز وأخبرتها أن لنتيير قد عاد إلى قواعده (لقد هجر أديل..

وهو على حبك مقيم).

وربعت جرفيز لذلك، لكن مضت فترة من الزمن دون أن يبذل عشيقها السابق جهداً للقائها، بل لقد كان يلتمس صداقة زوجها كوبو.

فتلازم الرجلان في الحانة وأخيراً دعا لنتيير نفسه إلى مساكنتهم في منزلهم.

وكان من أثر الرجلين المنحلين في جرفيز، أنها أخذت في الانحلال البطيء. كان عليها أن تعولهما جميعاً كما تعول أطفالها. فجاهدت زمناً لتنهض بعبئها الباهظ.. ثم ناءت به. فتشاجرت مع زوجها وأهملت عملها، والتمست السلوى والنسيان بين ذراعي لنتيير. ثم كانت الصدمة الأخيرة إذ فقدت لنتيير ومغسلها وورثتهما جميعاً فرجيني.

وهي الآن مع زوجها غارقة في دوامة الحانة فينتكس كوبو من سكرة إلى سكرة حتى يزهق روحه كابوس الكحول. وأما (نانا) فهي الآن فتاة كاملة النضج، قد هجرت المنزل لتغدو من رائدات الشارع، وتحاول جرفيز أيضاً أن ترتاد الشوارع. ولكن من ذا يطلبها.. جوع وشراب ويأس، ثم إشراف على الهوة.

ويبذل الحداد (كونجي) محاولة أخيرة لإنقاذها، ولكن سبق السيف العذل، فإن حانة العالم التي تسكر الفقراء بجام اليأس المرير.. قد تقاضت أتاوتها..

-٥-

ومن مفارقات القدر أن القصص التي كتبها زولا عن الفقراء قد جعلته غاية في الثراء وفي السمنة والاكتئاب. فأنت مهما تعمل، فإن الحياة آخذة بخناقك. فحين الفقر تكاد تموت من الجوع، وحين الغنى تكاد تموت من البطنة. وكان زولا عصبي المزاج منذ طفولته، فاعتقد أنه مصاب بكل مرض معروف. وهذا يرجع فيما قال إلى ما أصابه له صحة كصحة الحصان. إنما الذي يقض مضجعه في حقيقة الأمر ليس ضعف صحته، بل حرمانه الولد فهو كان يحس أنه نصف إنسان فحسب. لماذا كتبت عليه زوجة لا تستطيع أن تنهض بوظيفة الأمومة؟ إن هنا بين خدمة امرأة أخرى (جيان روزيرو)، هي وصيفته الخاصة، وهي طويلة، صحيحة الجسم عسلية العينين، حسنة الهيئة، غضة ندية.

فما أطيبها من أم لبنيه.

ولم لا؟ فإنها لا تكاد تبلغ العشرين. أما هو فشيخ في الخمسين أشيب مستدير الجسم كأنه رأس الخنزير. لكنه إذا لزم نظاماً معيناً في الطعام استطاع أن ينقص عمره ثلاثين عاماً، ومن وزنه ثلاثين رطلاً، أما شعره الأشيب فإنما يزيده جلالاً في عيني جيان.

فيلزم في طعامه التحديد الصارم أشهراً عدة... فيمتنع عن الدهنيات والفطائر والسوائل حين الوجبات. وعاد الشيخ إلى شبابه. وكأنه فوست قد تراءى في شكله الجديد، واتخذ لجيان شقة خاصة وما كان أبلغ سروره بأن ولد له طفلان.

ولكن أين السرور من زوجته ألكسندرين. إنها تحتج وتثور وتهدد بالانفصال. وأخيراً تستسلم لما قسم لها، فتصير المرأة الأولى في بيته... والمرأة الثانية في قلبه. بل لقد تجاوزت ذلك، وإذا كان المثل الفرنسي يقول (النبالة تفرض التزاماتها) فإن الأمر كان عكس ذلك في أمر ألكسندرين فان (الالتزامات قد فرضت النبالة) فهي في تسامحها الذي أنبته حزنها تتصل بأم أبناء زوجها، وتسجل الطفلين ولدين شرعيين لزولا، وتعني بهما شخصياً مدى حياتها.

وشاء زولا أن يظهر عرفانه بجميل ألكسندرين، فأهدى إليها كتابه (الدكتور باسكال) وكتب عليه "إلى زوجتي العزيزة، أهدي هذا الكتاب الذي هو لباب تواليفي وخاتمتها". ولكنه يكتب على إحدى نسخ الكتاب إهداء مختلفاً (إهداء إلى حبيبتي جيان التي أهدتني زهرة شبابها الرائعة، والتي منحتني دنيس وجا كوب.. ولدى العزيزين اللذين ألفت لهما هذا الكتاب، حتى يعرفا مبلغ عبادتي لأمهما). وظل زولا حتى آخر يوم من حياته محافظاً على علاقتيه هاتين: إخلاصه (لزوجتي العزيزة) وعبادته (لحبيبتي جيان).

-٦-

فإذا أتم زولا قصصه العشر، (ملحمة الكفاح في سبيل الحق) لم يبق عليه إلا الراحة تحت أكاليل الغار لكن جهاده الحق قد بدا من هناك وكان الجهاد يتصل بمحاكمة الكابتن دريفوس.

ولم يكن زولا يهتم بمحاكمة دريفوس (فما هو غير يهودي آخر متهم بخيانة الوطن) ولم يكن زولا يأبه لليهود قط. بل كان يبغضهم في شبابه أشد البغض. ولكن لا تتقدم المحاكمة حتى يحس في إجراءاتها معنى عجيباً. فهو قد مرن على دقة الملاحظة حين يعد قصصه. فخامره الشك في أن تكون التهم الموجهة إلى دريفوس ملفقة على رجل شريف فشرع في درس القضية فاستيقن ما كان يرتاب فيه. لقد ارتكب الظلم الشنيع في بلاده ويقتضيه واجبه المقدس بوصفه مواطناً يحب بلاده أن يمحو الظلم. فالذي يحاكم أمام العالم ليس دريفوس بل فرنسا. فوهب زولا نفسه قلباً وروحاً لتطهير اسم دريفوس لكي يطهر اسم فرنسا.

وكان دريفوس يذوى ويضمحل في السجن الانفرادي على جزيرة الشيطان (إني بريء) كذلك كان يصيح ويكرر صياحه. وهو يؤمن في يأسه أنه لم يسمع صوته غير الرياح والأمواج.

ولكن زولا قد سمعه وأجبر العالم بأسره على أن يسمعه، فكتب رسالة ونشرها وجعل عنوانها (أني أتهم) وحلل القضية لها بعناية في هذه الرسالة، ولم يقف في هذه الرسالة عند إثبات براءة دريفوس ولكنه وجه اتهامه إلى الرجال المجرمين والنظم المجرمة "لم يبدأ هذا الأمر إلا اليوم. فقد انقسم الناس الآن إلى معسكرين يضم أحدهما المجرمين الذين لا يحبون أن يلقى على الموضوع أي ضوء، ويضم الجانب الأخر محبي العدالة الذين يضحون بأرواحهم في سبيلها. وليس لدي غير عاطفة واحدة هي حبي للنور والوضوح. وليس احتجاجي الحار الملتهب غير صرخة من صرخات الروح.. فليجرؤ الجناة على الدفع بي إلى المحاكم فهذا من شأنه أن يعجل بتفجير قوة الحق والعدل".

وقد حدث الانفجار فعلاً، وإن لم يكن انفجار حق أو عدل: بل كان انفجار بغض لزولا وعنف به "فليسقط زولا، يسقط الخائن، اشتراه اليهود" وهوجم منزله، وقذف بيته بالحجارة، ومرق بعضها

من النوافذ مروق السهم ومنعت كتبه من التداول، وأحرقت صوره وألقى بها في

السين، ودعت إحدى صحف باريس (صحيفة القول الحر) إلى قتل زولا ونهب بيته.

وأخيراً بلغ الهياج غايته فقبض على زولا بتهمة القذف: وحدثت مهزلة طويلة قيل إنها محاكمة. فكان محامي زولا كلما سأل شاهداً أن يذكر من الحقائق ما ينير جوانب القضية، قاطعه القاضي بقوله (أرفض توجيه هذا السؤال) وألقي زولا في ختام المحاكمة دفاعاً ذلقاً طلب فيه العدالة لا لنفسه بل لدريفوس. (أنه بريء. أقسم على ذلك بحياتي وشرفي في هذه الساعة الرهيبة وأمام هذه المحكمة التي تمثل العدالة الإنسانية وأمام فرنسا وأمام العالم أجمع أقسم أن دريفوس بريء. وبحق الأربعين عاماً التي قضيتها في الكد والعمل. وبحق الصفة التي قد يخولني إياها هذا الجهاد أقسم على براءة دريفوس وبكل ما كسبت وبالسمعة التي أصبت وبمؤلفاتي التي أعانت على نشر الثقافة الفرنسية أقسم أن دريفوس بريء فليمزق كل هذا شر ممزق ولتمت تواليفي جميعاً إن لم يكن دريفوس بريئاً. وإنه لبريء.

أما عن مصير زولا نفسه (فلن أتكلم.. وقد يصدر علي حكم هنا ولكني سأنتصر. فإن فرنسا ستحمد لي يوماً ما أني عاونت على إنقاذ شرفها).

ووجد المحلفون أنه قد ارتكب جريمة قذف (في حق متهمي دريفوس وساجنيه) فحكم عليه بغرامة قدرها ٣٠.٠٠٠ فرنك، فكلفه كفاحه في سبيل إحقاق الحق عمله وصحته وسمعته وما ادخره طول حياته وكسبه من أصدقاء وعاد إلى سابق سيرته منذ أربعين عاماً مزدرى محروماً وحيداً.

لكنه أقام على كفاحه، ونجح آخر الأمر في إيقاظ ضمير فرنسا، فأعيدت محاكمة دريفوس، ووضحت براءته، وأطلق سراحه. لقد انتصر زولا وعاش حسي شهد اليوم الذي تنبأ به أثناء محاكمته، والذي نحمد له بلاده فيه أنه أعان على إنقاذ شرفها.

-٧-

لقد انتهى دوره على مسرح الحياة وأن للقدر أن يؤذن بإسدال الستار. وقد أسدل على نحو مسرحي يناسب بطلاً من طراز زولا.

كنا في الثلاثين من سبتمبر سنة ١٩٠٢ وكان سيزان أقدم أصدقاء زولا قد دخل لتوه مرسمه في أكس، وأخذ يعد لوحة الدهان استعداداً لعمل اليوم، فيهرع إليه بالاستديو خادمه وقد تقطعت أنفاسه تقطعاً (مسيو سيزان مسيو سيزان لقد مات زولا).

فخفق قلب سيزان خفقة: كيف حدث ذلك؟

– حدث حادث يا مسيو سيزان ذهب زولا إلى مخدعه في الليلة الماضية، وقد ترك النار موقدة فانتشرت النار.. الغاز.. الاختناق.

لقد أطال زولا السهر ليلة موته. ووجدوا على مكتبه في الصباح التالي صفحة مخطوطة لم تتم. بها عبارة مكتوبة على عجل هي جماع فلسفته في الحياة.

(أن نعيد بالحق خلق إنسانية أسمى وأسعد).

أهم مؤلفات زولا

Rougon-Macquart	Lourdes
Nana	Paris
Rome	J’accuse

مارك توين

١٨٣٥- ١٩١٠

لم ينل مارك توين بعد حظه الكامل من الاعتراف، فلقد توج عمله بكل ألوان التكريم عدا واحداً_ هو الفهم الواعي. فسمحنا لسمعته أن ترتكز على عمله الذي يأتي في المرحلة الثانية من الجودة. فنحن نعجب به بوصفه أعظم أصحاب الفكاهة الأمريكيين، ونتجاهله بوصفه من أعمق فلاسفة أمريكا، فإذا ضحكنا من فكاهاته، نسينا ما ينطوي عليه كثير منها من إيجاع. فلقد ركزنا عنايتنا في قلنسوته ونواقيسه بحيث لم نر النبي بعد إذ تنكر في ثوب المهرج.

ولا مراء في أن مارك توين كان صاحب دعابة. بيد أن المازحين الذين على شاكلته هم رجال يعلو وجوههم الابتسام ويعمر قلوبهم الألم.

فإنهم ليضحكون كما قال ذلك المتشائم الفكه الآخر فولتير، تفادياً للانتحار فلقد تعمقوا النظر في كنه الأشياء فغلبهم الغباء المؤسف (للجنس البشري اللعين) لذا اتخذوا لأنفسهم أقنعة هازلة إخفاء لما يحتجب وراءها من عبرات.

إن من عانى أعظم الألم، تعلم كيف يضحك أبلغ الضحك. فأصحاب الدعابة وأصحاب التهكم وأصحاب السخرية القاسية.. أطفال الأدب المشاكسون، هم الثائرون بالحياة الذين غلبوا على أمرهم. فهم يثغرون أنوفهم بأصابعهم في وجه القدر، لأنهم في عجزهم يدركون أنه لم يعد لديهم إيماءة أخرى.

وكان مارك توين من أولئك الثائرين المغلوبين على أمرهم. كان يعتقد أن كل الجهاد البشري مهزلة لا تهدف إلى شيء "قصة يرويها معتوه مليئة بالضجيج والصخب وليس لها

من معنى".

فنحن نحاول أن نتخطف قوس قزح، فنغرق في الحمأة. نلتمس الوصول إلى القمر فتتهشم عظامنا. وأن الآلهة لتطرب لمنظر آمالنا العنيدة في وجه هزيمتنا الدائمة. ولكننا أيضاً فيما يعتقد مارك توين يمكننا أن نطرب إذا خففنا آلام هزيمتنا بمخدر الضحك. فإننا نستطيع النظر إلى أنفسنا نظرة موضوعية بحيث ننعم بشهود آلامنا.

(تعلم كيف تألم كما يألم ممثل في مسرحية الحياة. ولكن تعلم أيضاً بوصفك أحد النظارة أن تبسم لألمك الشخصي).

-٢-

كان صمويل كلمنس ثمرة زمانه ومكانه. فهو ابن الحدود. لذلك واجه الحياة في فكاهة عابسة كما واجهها جميع السابقين إلى سكني هذه البقاع. وهذا الطراز من الدعابة كما يقول كاتب سيرته ألبرت بجلوبين قد نما من ظرف متميز، هو مغالبة الحدود، وكانت الحرب ميئوساً منها بحيث كان أخذها مأخذ الجد معناه الهزيمة. وكانت النساء يضحكن اتقاء للبكاء. وكان الرجال يضحكون حين لا يعودون قادرين على السباب.

ونبتت من ذلك فكاهة الغرب. وهي أعذب الفكاهات وأبعدها عن التنميق، ولكن الأسى يكمن من خلفها. ولقد عرف صمويل كليمنس كثيراً من مآسي الحياة وهو لم يزل طفلاً. فلقد تربى في قرية في منتصف الغرب من فقراء البيض. فرأى الأرقاء يجلدون، والرجال يقتلون رمياً بالرصاص في الشوارع، وكان أبواه يعيشان عيشة الرحل، عيشة الحرمان خلا من الأمل والحب، وكانا دائماً في (الجناح الغربي) يسافران من شاطئ البحر إلى كنتوكي ومن كنتوكي إلى تنسى ومن تنسى إلى مسوري وفي مسوري ولد لهما صمويل (في ٣٠ نوفمبر عام ١٨٣٥).

وكان أبوه رجلاً تخلى عنه الناس، متوعك المزاج، فاتر الهمة، فكان قلما يلاعب أطفاله أو يبدي لهم أي حب، فوجد صمويل، ذلك الصبي الخشن الشكس الرث الضئيل الضعيف البنية العصبي المزاج أنه قد وقع تحت رحمة العالم التي لا ترحم وكانت

سنه حينذاك أحد عشر عاماً فأخرج من المدرسة وعمل صبياً لأحد الطابعين. وقد وصفه الطابع بأنه حدث ضخم الرأس، متلطخ الوجه بالحبر ذو قدرة متناهية على الكسل. وقد وقع في زمرة متسكعي القرية، وعلم كل جوانب الشذوذ البشري والأسى البشري. وبعد سن الثانية عشرة ببضع سنين شهد موت أخت له وأخ. وفي عامه الثالث والعشرين شاب رأسه حين مات أحد أخوته محروقاً من أثر انفجار باخرة في المسسبي. وفي سن الثلاثين بلغ من برمه بالحياة أنه "صوب غدارة مليئة إلى رأسه لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة على شد الزناد". فقرر أن يعيش وأن يترجم أساه ضحكاً. بيد أن ما صادفه في الحياة بعدئذ لم يتح له إلاً فرصاً قليلة للضحك وإن جاءته بكثير من أسباب التعظيم فقد مات ابنه الأول بعد ولادته وأصيب ثان بالتهاب رئوي نتيجة لإهمال مارك توين بسبب شرود عقله. فلقد كان يركب مع الطفل ذات صباح ثلجي وكان متدثراً بأحلامه الشخصية فنسي أن يدنو الطفل على نحو يقيه البرد. ونجا طفل آخر بأعجوبة حين ترك مارك توين عربة الطفل بلا اكتراث عند قمة تل شديد الانحدار.

(ما كان ينبغي أن يعهد إلي بهذه المهمة) كذلك قال حين التقطوا الطفل من بين الأحجار عند قاع التل، ورأسه ينزف دماً: (لم أكن مؤهلاً لأية مسئولية من هذا النوع فهذه مهمة من لديه على الأقل أوليات عقل، فإني ولا شك سأنسى نفسي حين ابني قلاعاً في الهواء).

وبعد سنوات كثيرة، عاد من جولة محاضرات ناجحة حول العالم.

فعلم أن (سوسي) أذكي أطفاله قد ماتت أثناء غيابه.

ثم كانت أقتم مآسيه جميعاً. ففي الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٩ كانت ابنته جين قد أرهقت نفسها طوال اليوم استعداداً لحفلة عيد الميلاد. فأعدت الشجرة ولفت الهدايا بأناقة وكتبت عليها العنوانات وصار كل شيء معداً للحفلة. وقبلت جين أباها على عادتها وآوت إلى مخدعها، وفي الصباح نعيت جين إلى مارك توين. فلقد أصيبت بنوبة صرعية بينما هي تستحم. ما أندر من تطامنت له شهرة تفوق شهرة مارك

توين وما أندر من فاقوه تعاسة. لقد تعلم كيف يضحك في صخب، لكن صخبه كان ينطوي على مرارة.

-٣-

وكان مارك توين ابناً حقاً من أبناء الحدود، الحدود بين الأمل البشري واليأس البشري. فهو حيثما تنقل سواء أكان ربان سفينة في المسسبي، أم كاشفاً للمناجم في نيفادا، أم مراسلاً في سان فرانسسكو فهو يزداد معرفة وألفة بالكفاح والهزائم والجهاد المتجدد الذي يقوم به (أخوته البشر، شركاؤه في اللعنة) وفي كل مكان كان يتشبع بحياة الحدود وفكاهتها. وكانت حياتها صاخبة وفكاهاتها زاخرة. وكان السابقون يحيون على الحدود بين الحقيقة المرة والخيال المسرف.

وكانت قصصهم التي خلقت في سراب صحراء خشنة، حية طروباً، تدور حول أبطال مردة، ومغامرات تفوق قدرة الإنسان. قصصاً عن أمثال شمشون من الأمريكيين الأسطوريين (كبول بنيان) الذي تصبب عرقه وهو يكدح على سفح الجبل، فتدفق إلى الوادي وكون البحيرة الملحة الكبيرة. وقصصاً خرافية عن أمثال (مانشوزن) من الامريكيين كجيم بردجس، الذي ضل طريقه في الغابة المتحجرة، بينما هو يفر من الهنود. والذي تحجر هو نفسه في وسط الهواء حين هو يقفز عبر خانق، إذ أن قانون الجاذبية نفسه قد تحجر في تلك الغابة.

وقصصاً مغرقة في الخيال عن جرادة صغيرة قطع من عجيزتها شريحة لحم ضخمة لتقدم لكل رواد أحد المطاعم. وعن شجيرة (لفت) أوغلت جذورها في باطن الأرض. فإذا شددتها تفجرت بئر ارتوازية في وجهك قذفت بك في الهواء. وعن إبرة دفعت بها فتاة صغيرة في قدمها مصادفة فظهرت بعد جيلين في رأس حفيدتها. وكان أحب شيء إلى أهل الحدود أن يستمعوا إلى السخرية الهازلة المسرفة بأصحاب الملايين الأمريكيين المستحدثين، وكان أحد أصحاب الملايين هؤلاء يملك منجماً للفضة في نيفادا، وكان ينام في السرير العلوي بأحد الفنادق وتذهب القصة إلى أنه كان ينام في السرير السفلي عامل

عادي. واستيقظ العامل من نومه وهو يعاني آلاماً مبرحة في كل أجزاء جسمه، ولم يستطع أي دواء إبراءه من عذابه حتى ذهب إلى حمام تركي. فتصبب العرق من مسامه كومة من مسحوق الفضة تبلغ قيمتها ٤١٧ دولاراً و٩٢ سنتاً، وكان قد امتصها من صاحب الملايين الذي كان ينام في سرير يعلو سريره.

هذا مثال من القصص الشعبي الخرافي الذي كان يطرب له رواد هذه البقاع في منتصف القرن التاسع عشر. وكان هذا القصص جزءاً كبيراً من الزاد الأدبي الباكر الذي طعمه مارك توين. ولكن فضلاً عن ضحك قوم صاخبين يجيشون بحب الحياة، كان ثمة حزن الشخصية الوادعة التي تجاهد الموت. فلقد كان مارك توين متشائماً، وكان يقول "أن الرجل الذي لا يتشاءم لا يعرف عن الحياة إلا أقل القليل). أما هو فيعرف عن الحياة أكثر مما يلزم. فهي لم تجاوز في نظره مباراة بين الآلهة في كرة القدم، وخير هبة تستطيع الحياة تقديمها إلينا هي الموت (إنني لم أسرف في حسد أحد إلا الموتى، إني أحسدهم أبدا).

وحين ثار أساه ثورته الأولى بعد غرق جين، أعرب عن إيمانه بأنه ما كان ليرجعها إلى الحياة لو استطاع (لم يعد في الحياة شيء بعد فقدها، وحياتي أصبحت مريرة، ولكني قانع راضٍ. لأنها أصابت أثمن هبة، هبة الموت التي تصغر أمامها الهبات وتتضاءل. إني منذ بلغت الحلم لم أرد لصديق أطلق سراحه، أن يعود إلى سجن الحياة).

إنه يرى مع الحكيم اليوناني (سولون) أنه لا ينبغي أن نعد أحداً سعيداً حتى يموت. ولباب الحكمة البشرية، هذا الذي أثمره الشقاء البشري، يجد له متنفساً دائماً في مؤلفات مارك توين. كتب في (بودنهد ولسن) يقول "إن من امتدت به الحياة إلى أن أدرك ماهية الحياة، يدرك مبلغ الدين الفادح من العرفان بالجميل الذي علينا أن نقدمه لآدم صاحب الفضل الأول على جنسنا. فلقد جلب الموت إلى العالم". ويقول أيضاً "يقول الجميع أنه ليشق علينا أننا مضطرون إلى الموت فما أعجبها من شكوى تصدر ممن اضطروا إلى الحياة". وفي قصة (الغريب الغامض) يعلق الشيطان على السعادة البشرية بقوله "لا يستطيع السعادة إنسان عاقل لأن الحياة عنده شيء حقيقي، فهو يرى مبلغ ما فيها من

هول. وإنما يستطيع السعادة المجانين".

وكان كل هذا عند مارك توين، أجل من أن يكون موقفاً متصنعاً. فإن كلماته عن الحياة والموت تحمل في ثناياها مذاق الصدق والإخلاص.

فلقد صيغت من تجاربه الشخصية، وبرهن على صحة نصيحة هوراس للشعراء في قديم الزمان: "ليس لكاتب أن يستثير بكاء الآخرين ما لم يكن هو شخصياً قد بكى" ويقول ذلك الأمريكي من ولاية كونكتيكت "إن الألفاظ لا تحقق شيئاً ولا تبعث لك الحياة في شيء، مالم تكن قد عانيت بنفسك ما تحاول الألفاظ وصفه" لقد كان مارك توين أشبه بوالت ويتمان، ذلك المفكر الكبير من رجال القرن التاسع عشر، الذي لم ينل حقه من التقدير، في أنه كان يفقه ما يقول إذ وصف الموت، الموت المبارك؛ بأنه الطبيب الوادع الذي يحررنا من أشد الأمراض هولاً، وهو الحياة.

– ٤ –

لا تخلو سخرية عظيمة من معنى الرثاء، وكانت سخرية مارك توين تنبت من رثائه وزرايته. كان يرثى لعجز الضعيف، ويزدري تهور القوي.

يقول أناتول فرانس. إنه يمكن تلخيص التاريخ الكامل للجنس البشري في كلمات قليلة (يولد الناس، ويألمون، ويموتون) أما مارك توين فكان يود لو عدلت هذه الكلمات فصارت: (يولد الناس ويجبر بعضهم بعضاً على الألم ويموتون) فهو على حبه للبشر من حيث هم أفراد يتحرش بهم غيرهم، يمقتهم من حيث هم قطيع من الذئاب يتحرشون بغيرهم.

وحين كان صحفياً شاباً نافذ البصر لاذع القلم، اضطر إلى الهرب من (سان فرانسسكو) لأنه نتقد غش رجال الأعمال وفساد الساسة. فيمم جهة الشرق فزاد بصره نفاذاً وقلمه حدة. والشرق، وبخاصة نيو انجلند يفضل بغريزته الصنف التالي في الجودة، إذا استعرنا العبارة البارعة لبرنارد دي فوتو (فالقوم المهذبون) قد عجزوا عن فهم ذلك الفوضوي الأحمر الشعر الآتي من الغرب، ولكن الفوضوي الأحمر الشعر قد فهم القوم

المهذبين. ووجدهم ليسوا مهذبين كل التهذيب، سواء في هارتفورد أو بوستن أو كامبردج أو غيرها.

وكان يعتبر الناس عموماً– بما فيهم هو– من أحط الحيوانات.

فإذا سئل هل يجرؤ على وضع إنسان في منزلة الفأر. أجاب بكل جد (كلا.. فهذا ظلم للفأر).

قال في (بدنهد ولسن) أن الفرق الرئيسي بين الإنسان والكلب هو: (أنك إذا التقطت كلباً يموت جوعاً فوفرت له أسباب النعمة، لم يعضك هذا الكلب) وكانت هذه الفكرة تشغل باله في الشطر الأعظم من سنى حياته.

وكتب قبل موته بأيام قليلة بأسلوبه الفكه الحريف (إذا بلغت الجنة فاترك كلبك خارجها، فدخول الجنة إنما يتم على أساس المحسوبية، ولو كان بالجدارة لبقيت أنت خارج الباب ولدخل هو). لقد أعلن مارك توين:

"أن الإنسان حيوان ولكنه ليس وحشاً فإنه لم يصل بعد إلى المستوى الخلقي للوحش. فالوحش يقتل من الجوع، والإنسان يقتل من الحقد. يرى الشيطان في (الغريب الغامض) صبياً صغيراً كيف يعذب الجلادون مجدفاً في الدين، وقد تقزز الصبي من المشهد فقال للشيطان (يا له من عمل وحشي) فأجابه الشيطان (كلا! بل هو عمل إنساني). يقول مارك توين: (ليس من حيوان يحترم نفسه يقبل العيش مع الآدميين لو كان له أن يختار) وفي (قصة حصان) كان حصانان فيلسوفان، الحكيم برش والحكيم مونجرل، يناقشان وسائل الآلهة ودهاء الناس.

الحكيم برش– لقد رأيت كائنات بشرية كثيرة في زماني، لقد خلقوا كما هم ولا مفر لهم من ذلك، إنهم مجرد وحوش لأن هذا طرازهم. فالوحوش تكون بالغة التوحش إذا كانت من هذا الطراز.

منجرل– من رأيي أيها الحكيم برش، أن الإنسان بالغ الغرابة وعويص الفهم. لماذا يعامل العجماوات بقسوة؟ (فترة تفكير تستمر لحظات ثم) حينما نموت أيها الحكيم برش،

هل نذهب إلى السماء و نعيش مع الناس؟.

الحكيم برش– أبي لم يكن يظن ذلك. كان يعتاد أنه لن يكون عليها العيش مع الناس في الجنة ما لم نستحق ذلك.

–٥–

ولم يكن اتهام مارك توين للجنس البشري اتهاماً معنوياً مجرداً، فهو من آن إلى آخر حتى في أشد كتبه مرحاً، يذكر أمثلة مادية على عدم إنسانية الإنسان مع الإنسان، فهو يحاول أن يعرض للسخرية كل صور الظلم والفساد والاستغلال والرشوة، والنفاق والقهر والكراهية والجشع.

وهو يحاول إغراق الظلم في طوفان التهكم. يغسل الطلاء الذهبي السطحي للعصر الذهبي. ويفضح الدمامة العارية للساسة والمستغلين الذين يكتنزون اللحم من مصائب رفاقهم، ويمزق خدع الطغاة والأباطرة، فإذا هم تحتها مجرد تلفيقات جوفاء. وكان الأمريكي من كونكتيكت والملك أرثر مسافرين في ثياب تنكرية فظن أنهما اثنان من أجلاف الريف وبيعا بيع الرقيق. فيقدر ثمن الأمريكي من كونكتيكت بثمانية دولارات أما الملك فلا يساوي أكثر من سبعة دولارات بحال من الأحوال.

والملوك في رأي مارك توين، ترف خطر. وإذا كان على الأمة أن تعبد شيئاً فليكن أسرة مالكة من القطط. وستكون أخلاق هذه القطط عموماً أسمى من أخلاق الملك العادي بكثير، وليلاحظ... أنها لم تشنق أحداً ولم تطح برأس أحد، ولم تسجن أحداً ولم تقارف القسوة أو الظلم من أي نوع. لذلك فهي أجدر بعميق الحب والتبجيل من الملك العادي من البشر. وسرعان ما تتعلق أبصار العالم المغتصب بهذه الأسرة الرحيمة الوادعة، ويبدأ الملوك القصابون في الاختفاء.

ولم يكن مارك توين يهاجم الحكام السلميين، وإنما هو يهاجم الملوك القصابين، فهؤلاء الأطفال الطغاة السيئو الخلق في الأسرة البشرية، لم تكفهم رقعة الأرض التي خصصت لهم، فاصطخبوا في طلب ما يزيد عن نصيبهم، بل ولم يقنعوا بذلك.

وكان مارك توين يمقت روح العدوان الحربي أكثر مما يمقت أي شيء آخر في العالم، ولقد خبر في صغره من الشجار ما شفاه منه بقية حياته.

قال ذات مرة إذا شاء محب للشجار أن يحاربك فاخلع سترتك في بطء وتعمد. وأنظر في عينيه مباشرة، ثم في بطء وتعمد أيضاً اخلع صدريتك، تم شمر عن ساعدك وواصل نظرك في عينيه. فإذا لم يكن خصمك قد فر من وجهك حتى ذلك الوقت فخير لك أنت أن تفر من وجهه.

وليس معنى ذلك أن مارك توين كان من أنصار التهدئة، أو أنه كان جباناً. فأمره على نقيض ذلك. إذ ما كادت الحرب الأهلية تنشب حتى تطوع في الجيش الاتحادي وظل في الخدمة حتى أخلى منها مشرفاً. فهو لا يخاف الحرب الشريفة لكنه يفزع من اللصوصية الغادرة. وهو يقول "إن تاريخ البشر زاخر بتلك اللصوصية الغادرة التي تنتحل دائماً ثوب الهدف النبيل إن قصة البشر لا تعدو سرداً موجزاً لقصة سفك دماء البشر) فقد بدأ بسلسلة طويلة من الحروب المجهولة، اغتيالات ومذابح. ثم جاءت الحروب الأشورية ثم كانت الحروب المصرية واليونانية والرومانية وما فيها من إغراق رهيب للأرض بالدماء.. وكان لدينا دائماً حروب، ومزيد من الحروب.. في كل أرجاء أوروبا وكل أرجاء العالم... أحياناً لتحقيق صانح شخصي للأسر المالكة؛ وأحياناً لسحق أمة ضعيفة؛ ولكن لم يحدث قط أن بدأ أحد المعتدين حرباً لأي هدف نظيف.. فإن تاريخ الجنس خال من مثل هذه الحرب.

ولكن أعنف ما وجهه من اتهام إلى وحشية العدوان، وهو أعنف ما كتبه أي كاتب أمريكي في ذلك، هو دعاء الجندي، تلك المقطوعة الساخرة، والدعاء الخيالي، الذي يقدم صورة مادية للعقلية النابليونية (أو لعل مارك توين كان يدعوها الهتلرية لو عاش في أيام هتلر).

(ربنا أعنا على تمزيق جنودهم بقنابلنا، فتصير جسومهم شرائح ملوثة بالدم وأعنا ربنا على أن نغطي حقولهم الباسمة بأشلاء قتلاهم الوطنيين؛ وأعنا اللهم على أن نغرق قصف

المدافع في طوفان من صرخات جرحاهم وهم يتلوون ألماً؛ وأعنا على تخريب بيوتهم المتواضعة بإعصار فيه نار؛ وأعنا على حرمانهم المأوى، فيهيمون على وجوههم مع أطفالهم الصغار بلا محب ولا صديق وسط الخراب الذي نزل بأرضهم المهجورة، في أسمال تمزقت شر ممزق جائعين صادين، تلفحهم نار الشمس صيفاً، والرياح الثلجية شتاء، كسيري الخاطر قد أضناهم العناء، ضارعين إليك أن تأويهم في القبر فتأباه عليهم. ورحمة بنا نحن عبادك أعصف اللهم بآمالهم وأجعل حياتهم وبالاً عليهم، ومد اللهم في رحلتهم المريرة، وأثقل خطاهم، وأرو الطريق غدقاً من دموعهم، ولطخ الثلج الأبيض بالدماء التي تنزف من أقدامهم الجريحة! اللهم أجب دعاءنا، ولك المجد اليوم وإلى أبد الآبدين أمين).

-٦-

كان مارك توين يمقت البغضاء، وكان هذا الشعور يشتد به أحياناً بحيث يكون عليه كما أكد ذلك (أن أمسك بقلمي، وأسطر أفكاري على الورق، مخافة أن تضطرم النار في داخلي) فلقد كان مارك توين في أوجه ينتمي إلى جماعة الأنبياء لكنه- باعترافه- كان لا يقدم للعالم دائماً خير ما عنده. فلقد كان ولعه بالترف بالغاً، وجوعه إلى الشهرة جائحاً بحيث لا يستطيع أن يقول كل ما عنده في أي كتاب من كتبه الأولى. فكان يحاول أن يغطي الثورة التي تضطرم في روحه بنوب مما يحترم الناس. أما جولته الثائرة الصريحة الوحيدة الجادة، حين حاول تطهير سياسة سان فرانسسكو فقد أخرجته هو من عمله وبيته. فأيقن أن لا جدوى من السباحة ضد التيار، فلقد وجد أن التماس النجاح يضطر المرء إلى أن يصل نفسه بمن في يدهم مقاليد الأمور. وكان آنسون برلنجيم وزير أمريكا في الصين قد نصحه يوماً بأن لا يكن لك شأن بصغار القوم، وعليك بالتسلق دائماً) وكانت هذه النصيحة كما كتب ألبرت بيجلوبين هي (إنجيل) مارك توين الذي لم يغب قط عن ذاكرته.

وقضى مارك توين الشطر الأكبر من حياته وجل عنايته منصرف إلى التسلق فلم يكن ينشط لتأليف كتاب (ما لم يكن وراءه مال، ومال كثير) إذا استخدمنا قوله. لذلك كان يحذف- أو يدع أصدقاءه يحذفون- كثيراً من مرارة الكتب التي كان يؤلفها في فترة

(التسلق) فإن قراءه لن يفهموا، ولن يحسنوا جزاء التفكير الجدي. كتب في بودنهد ولسن يقول: "ليست السخرية مما يلائم هؤلاء الناس. فإن بصرهم العقلي ليس مهيئاً لإدراكها" لذلك قدم للناس سلسلة من الكتب وطائفة من القصص الصغيرة. يوجد فيها أقل ما يمكن من المرارة ممزوجاً بأكثر ما يمكن من الحلاوة. وكان ذوقه الشخصي أسمى كثيراً من ذوق كثير من قرائه. وكان يدهش للعقلية الساذجة التي تستطيع الضحك من قصة باردة مثل The Jumping Frog بل ولم يكن فخوراً بشكل خاص بقصة Huckleberry Finn أحسن قصصه التي تنتمي إلى هذه المجموعة. وكان يتفق مع هنري جيمس على أن هذه القصص إنما تستميل العقول الأولية. وكان يكتب لجمهور كبير لأنه كان أكثر اهتماماً بماله منه بفنه. وكان يخجل لجمهوره الضخم. (أن لديكم إدراكاً للفكاهة كما تدركها الخيول لا أكثر، وجمهرتكم لديها هذا الإدراك، وتلك الجمهرة ترى الجانب المضحك من آلاف الأشياء التافهة الرخيصة. مثل المفارقات البعيدة، وخاصة تلك الغرائب والسخافات التي تثير ضحك الخيل).

إنه ليخجل لجمهوره الضخم غير الناقد، ويخجل لنفسه إذ أعوزته الشجاعة على الكتابة لقراء أصغر عدداً وأدق بصراً. قال مرة (إنك لترى أن وراء مظهري المستبشر، روحاً غاضبة مني لا تألوني زراية).

ويعترف بأن بريق الذهب قد استهواه وكان بلوغه نباهة الذكر والثراء على غير انتظار أشبه بقصة خيالية من ألف ليلة، ولم يستطع قط أن يبرأ من العجب لها. لقد اشتغل صبي طابع فربان قارب بخاري في المسيسبي فمنقباً فاشلاً عن الذهب في نفادا فمراسلاً مغموراً في سان فرانسسكو. ثم يجد نفسه على حين فجأة مؤلفاً غنياً لكتاب شهير فلقد ربح ٣٠٠.٠٠٠ دولار من قصة "الأبرياء في الخارج" وصهراً لأحد أصحاب الملايين من ملوك الفحم فأسكره النجاح وأدار رأسه دواراً كلياً. فأخذت آماله تشرئب إلى بعيد الأهداف. شأنه في ذلك شأن الكثير من معاصريه. لقد أصبح الأدب في نظره صناعة. وكان حريصاً على أن يثبت لصهره مستر روجرز أن تأليف الكتب يدر من المال مثلما تدر تجارة الفحم وما عليك إلا أن تقدم للجمهور ما يريد.

وهكذا باع الضحك بالذهب، واستحال الذهب في يده رماداً، لأنه كان شخصية مزدوجة: جسم صمويل كليمنز المنقب عن المال وروح مارك توين المحبة للحرية.

وكان من عادته دائماً أن يكتب في الأمور التي يخاطب فيها الناس كتابين أحدهما يعبر فيه عن آرائه الشخصية فلا ينشره. والثاني يعبر فيه عن آراء الناس، وهذا هو الذي يبعث به إلى الناشر. وكان يفسر ذلك بقوله: إن علي أن أكفل رزق عائلة، ولا يسعني أن أصرح بالحقيقة كاملة. ولكنه كان على تردده رائداً من الناحية العقلية إن لم يكن من الناحية الخلقية. وقد تجلت روحه الخلاقة على استحياء في **Tom Sawyer**وفي **The Prince** وفي **Captain Stormfield's Visit to Heaven** وفي **Pudd'n head Wilson** وفي**A Connecticut Yankee** وفي **The Man That Corrupted Hadleyberg** وفي **Huckleberry Fin**.

وجاءت متتالية كأنها أيام الصيف، مليئة بضوء الشمس والضحك ولكن يقاطعها. من آن لآخر قصف الرعد الساخر من بعيد. وكانت هذه الروح السباقة نفسها هي ما تكلم أخيراً دون خوف في (الغريب الغامض).

هذا الكتاب الذي لم ينشر إلا بعد وفاته نزولاً على نصيحة زوجته، قد عرض الحقيقة آخر الأمر كما رآها. فإنه بعد أن استهدف بلوغ قوس قزح فلم يجده غير سراب. وبعد إذ جمع مالاً كثيراً وبدده، وخبر (الاكتظاظ المؤسف) بالأصدقاء والشهرة، وبعد أن ذاق نعمه الحب، ومرارة فقد من أحب، قد جمع خيوط حكمته وعذابه ونسج منها قصة من عيون القصص (هي الغريب الغامض **The Mysterious Stranger**).

وكانت فكرة هذا الكتاب قد نمت في عقله منذ سنوات كثيرة (لقد عزمت منذ زمن طويل على أن أؤلف كتاباً كهذا بلا تحفظ. كتاباً لا يحفل بمشاعر أحد، أو بقصده، أو رأيه أو معتقداته، أو آماله أو أوهامه أو انخداعاته. كتاباً يقول قالتى: صادراً من قلبي مباشرة في أبسط لغة، متحللاً من كل القيود على اختلاف أنواعها) هذا ما قاله لوليم دين هولز.

كان (الغريب الغامض) فريداً في كتب مارك توين، في أن المؤلف قد كتب فيه كل ما

عنده، ولعله من الناحية الفنية يقل شأناً عن (هكلبري فن) بيد أنه أروع تواليفه من الناحية الفلسفية، وهو في اعتقادنا كتابه الوحيد الذي يرفعه إلى مصاف كبار أصحاب التهكم والسخرية، سرفنتس؛ وسويفت؛ وفولتير، وأناتول فرانس.

و(الغريب الغامض) هو قصة زيارة الشيطان لإسلدورف وهي بلدة كانت بالنمسا في العصور الوسطى. واسلدورف عالم مصغر، وسكانها قطاع من الجنس البشري. وليس هم الشيطان في هذه القصة مساعدة البشر أو إفسادهم، وإنما هو يرقب صراعنا من حين إلى حين، كأنه المتفرج المستمتع، حين لا يشغله عن ذلك ما هو خير منه. وحين أقبل على (اسلدورف) عرف ثلاثة أطفال بنفسه– فنحن جميعاً في نظر الشيطان أطفال– ومكنهم في خلال فترة قصيرة من أن يروا الحياة كما يراها هو في سامي حكمته. فبين لهم أننا قد أصرنا الحديقة الجميلة التي ولدنا فيها إلى كومة من القاذورات.

وهذا قسيس مسن هو الأب بطرس يوقف عن عمله بالكنيسة، لأنه جرؤ على توكيد القول بأن الله كله رحمة وخير، فقد تساءل أهل اسلدورف: ماذا سيبقى من تقوى الجحيم إذا سمح لمثل هذا الرجل بالبقاء واعظاً في الكنيسة. وتلهف حكام اسلدورف على قيادة الحملة الشعبية لاضطهاد الأب بطرس. فقد استنتج الحكام أن القسيس الذي يقول بأن الله لا يعذب المذنبين عذاباً أبدياً، لابد أنه شخصياً من المذنبين. ولذلك اتهموا الأب بطرس بالسرقة وحبسوه في زنزانة في انتظار المحاكمة.

فراع مشهد تعذيب الأب بطرس الصبيان الثلاثة الذين أحبوه، ولكن الشيطان يطمئنهم إلى أن كل شيء صائر إلى الخير.

وبينما القس في انتظار المحاكمة. كان الشيطان يسلي صبيين منهم بالنظر إلى قلب الأشياء وصميمها، ولم يكن مبهجاً. أما الصبي الثالث فإن الشيطان قد أعد له تسلية كريمة من نوع آخر، فلقد أغرقه، ويفسر ذلك لرفيقي الصبي الغريق وقد تصدع قلباهما فيقول: إن هذا أسعد حظ يمكن أن يلقاه أي كائن حي.

ويقدم الأب بطرس للمحاكمة آخر الأمر. ولا يكاد يبدو أن أمامه فرصة للتبرئة،

لأن أصحاب الأمر قد أحكموا إثبات التهمة عليه. ولكن الشيطان يقول للصبيين: لا تراعوا فكل شيء صائر إلى الخير.

ولقد وفى الشيطان بوعده حقاً، فهو لم يقنع بإثبات براءة القس الوادع. بل زاد على ذلك أنه كفل له السعادة القصوى بقية حياته.

وكانت الطريقة التي جلب بها السعادة للقس بطرس في غاية البساطة. فقد حمل للقس المسن في زنزانته نبأ كاذباً عن الحكم الذي صدر في قضيته: (انتهت المحاكمة وستظل بقية عمرك ملطخاً بعار السرقة) ولا يسمع الرجل المسن ذلك حتى يفقد رشده ويغدو سعيداً كالطير، ويعتقد منذ ذلك الحين أنه إمبراطور العالم، فينعم بمجد الحاكم المطلق دون أن يحمل شيئاً من همومه، فيشده صاحباً القس بطرس من هول الموقف.

ولكن الشيطان يعيد الثقة إلى نفسيهما بقوله: إن الجنون هو أقصى هبة– بعد الموت– يستطيع الآلهة أن يمنحوها الإنسان، فليس من طريقة يكفلون بها للإنسان سعادة مطلقة إلا الجنون المطبق. ذلك بأن العالم كما يقول مارك توين في الختام هو دارة الجنون، وما الحياة إلا كابوس مجنونه بين النوم والنوم "ومن عجب أنك لم تحدس أن عالمك وما فيه، هو مجرد أحلام ورؤى وخيال. مع أن سيرته تنبئ بصريح الخبال... شأنه في ذلك كشأن الأحلام، إنه يستطيع بسهولة خلق الأبناء الخيرين والأشرار، فيؤثر صنع الأشرار، ويسعه أن يكفل السعادة لكل واحد منهم، فلا يكفل السعادة لأحد منهم، وجعلهم يسرفون في تقدير حياتهم المريرة، ومع ذلك فقد اختصرها في شح ومنح ملائكته سعادة أبديه دون جهد، وطالب أبناءه الآخرين أن يصيبوها بجهدهم، ووهب ملائكته حياة خلت من الألم، وأتعس أبناءه الآخرين بألوان الشقوة والمرض العقلي، والجثماني. وتحدث عن العدل وأنشأ جهنم.. وتحدث عن الرحمة وأنشأ جهنم.. وتحدث عن الحكم الذهبي والغفران، وأجزل الثواب، وأنشأ جهنم.. وخلق الإنسان لم يستشره في ذلك، ثم حاول أن يحمل الإنسان مسئولية عمل الإنسان "إن ما أظهرتكم عليه هو الحق. ليس ثمة كون ولا جنس بشري ولا حياة أرضية ولا علوية. كل هذا مجرد حلم. حلم غريب أحمق. ليس من كائن إلا أنت، وما أنت إلا فكرة، فكرة حائرة لا جدوى منها ولا مأوى لها، تنتقل يائسة

بين القرون الخاوية".

وبعد إذ عبر آخر الأمر عما اعتقده بإخلاص، اجتاز الساحر الحزين العظيم حدود الحياة، إلى.. من يدري؟ ربما إلى حلم أجمل وأصدق.

أهم مؤلفات مارك توين

The Celebrated Jumping Frog
Innocents Abroad
Roughing It
The Gilded Age
The Adventures of Tom Sawyer
The Prince and the Pauper
The American Claimant
Joan of Are
Pudd’nhead Wilson
The Man that Corrupted Hadleyberg
Adam’s Diary
What Is Man?
Captain Stormfield’s Visit to Heaven
The Mysterious Stranger

توماس هاردي

١٨٤٠ - ١٩٢٨

ينسب إلى أرنولد بنيت أنه قال ذات مرة لهيو والبول: "إن مصيرك يتحدد يا عزيزي منذ ولادتك"، وهذه الحقيقة العالمية التي قيلت في معرض الفكاهة تتمثل كل التمثل في حياة توماس هاردي.

فقد ولد هاردي ذا جسم ضعيف وعقل قوي وروح دافقة الشعور. فكان منذ بدايته الأولى مقضياً عليه بحياة الأدب. كان في طفولته يحب أن يرقب الديدان في المستنقعات الصغيرة قريباً من منزل أبيه في دورستشير (تلك المخلوقات الصغيرة القليلة الحول التي تمضي وقتها في لهو مجنون صاعدة هابطة في الماء اللزج الفاتر بالمستنقع الجاف)، وطالما تساءل ما معنى كل هذا. فإذا علت به السن أدار التفاتة إلى ديدان البشر. وهي أكبر من صاحبتها، لكنها تستوي معها في العجز، فهي تتمرغ وتتكاثر وتموت في المستنقعات الصغيرة بالعالم. وقرر أن يجلس على جانب الطريق وأن ينفق حياته جاهداً في الكشف عن معنى كل هذا.

-٢-

كان عند ميلاده (٢ يونية ١٨٤٠) شديد الوهن بحيث صرح الطبيب بأنه ميت. ولكن بفضل ممرضة الأسرة التي صفعته صفعاً عنيفاً، أعيد إلى حياة قدر لها أن تستمر نحو تسعين عاماً.

كان أبوه مقاول بناء، سمح لابنه الصغير ذا الوجه العجوز أن يتجول في المرج بدلاً من أن يذهب إلى المدرسة (دعه يعب من ضوء الشمس عباً، فإنه يستطيع أن يمتص تعليمه فيما بعد). كان تعليم الطفل الأول إذن في الهواء الطلق فطالع كتب الجداول الجارية. وأحاط علماً بالأحياء عن طريق الحواس الخمس جميعاً، وعن طريق حاسة سادسة... عطف شامل وسع كل شيء، فهو يهتز إذا رأى أو سمع الحيوانات أو الطيور

أو الأشجار. كتب فيما بعد (تعلمت في طفولتي أن لكل جنس من الشجر صوته، كما أن له ملامحه، فإذا هب النسيم تنهد شجر الشربين وأن تستبين ذلك في وضوح كما تستبين تمايله وترنحه. وشرابه الراعي تصفر وهي تصطرع مع نفسها، وشجرة لسان العصافير تئز بين اهتزازاتها، وللزان حفيف بينا أفنانه المنبسطة تعلو وتهبط).

شعر أنه والطبيعة كلها وحدة... تصله قرابة دم بالرياح والسحب والفراشة والنملة والعصفور والسنجاب والحمل ولطالما حاول في مخيلته الحية أن يتقمص شخصية هذه المخلوقات الخارجة عنه. وجعل من نفسه خروفاً ذات مرة ونزل يسعى على أطرافه الأربعة في حقل، وأخذ يأكل العشب. فإذا رفع بصره استولى عليه الارتباك –كما قال فيما بعد– إذ رأى الدهشة في أعين الخراف الأخر من منظر زميلهم الجديد في القطيع.

فلما بلغ عامه التاسع كان قلبه قد اتسق تماماً مع قلب الطبيعة. وبدا تعليمه المنظم. فبعث به أبوه إلى أكاديمية (لاست) للشبان. وهي مدرسة حرة تبعد ثلاثة أميال عن كوخ هاردي وفي كل يوم في ذهابه إلى المدرسة وعودته منها كان يقف ليأخذ في حديث ودي مع رفاقه في اللعب، تلك الخلائق البرية في مرج (اجدن) لكنه ذو ولع خاص بمشاهدة وجوه البشر، وكان عليه إذا اقترب من دورشستر وهي المدينة التي بها مدرسته أن يعبر قنطرة من الحجر وكان يحب دائماً أن يقف وسط القنطرة ويدرس من يمرون عليها (أن في وجوه البشر لكثيراً من القصص الممتع).

وكان في المدرسة أضأل تلميذ يحمل أكبر رأس في فصله، وذهل مدرسوه من سرعة استيعابه للعلوم. فلما تخرج في السادسة عشرة كان على أتم علم بالآداب اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وخاصة مسرحيات شكسبير فهو يكاد يحفظها عن ظهر قلب.

وكان به شوق شديد إلى الالتحاق بالكلية، هذا الهادئ الشغوف بالدرس الحساس،

جود المغمور[٦] الضئيل. ولكن أباه لم يكن يحتمل هذا الترف. فقد آن للصبي أن يصيب رزقه. فيجب أن يعلم مهنة أو حرفة... تكون من السهولة بحيث لا ترهق جسمه الواهن الضعيف.

ترى هل يحترف الموسيقى؟ إن تومي عازف لا بأس به وقد تعلم العزف على أبيه، لكن العزف هذا لا يدر عليه مالاً فإنه كثيراً ما عزف مع أبيه في حفلات الزفاف بالريف. لكن كيف يدور بخلد عازف يحترم نفسه من (دورستشير) أن يتقاضى أجراً على هذه الخدمة الودية فهل من شيء آخر يستطيع محاولته؟ أيعمل في الكنيسة؟ ولكن تقف دون ذلك عقبتان... أنه فقير، وأنه ضئيل تقتحمه العين اقتحاماً فلم يبق غير مهنة واحدة إذن.. هي الهندسة. فالأب بناء مجيد فليكن الإبن رساماً مجيداً للأبنية.

وهكذا عهد بتدريب توماس هاردي إلى جون هكس وهو مهندس يتخذ له مكتباً في المدينة المجاورة في دورشستر.

لكن هاردي ليس شديد الكلف برسم اللوحات الزرقاء. ويرى في العمل آلية لا يحتملها فهو فنان لا عالم. فكان على أمانته لعمله ينفق كل فراغه في الدراسة والأحلام. كان يصحو من نومه الساعة الخامسة صباحاً وأحياناً يصحو في الرابعة وينفق ساعتين يعلم نفسه فيهما قراءة اللغة اليونانية وما هي إلا ثلاثة أعوام حتى استطاع أن يتحدث في طلاقة مع اسكلس وهوميروس وكذلك مع كتاب العهد الجديد.

وظل محافظاً طيلة هذا الوقت على مودته مع لغته الأثيرة، أجرومية الطبيعة وكان يترجم هذه الأجرومية إلى موسيقى إنجليزية، لقد عرف أنه شاعر "بدأت أكتب الشعر لأني لم أجد عنه منصرفاً. فإن أمراً قد صدر إلي بذلك من أعماق نفسي"...

أوامر من الداخل لكن لا تشجيع من الخارج "كنت أبعث بقصائدي فتعود إلي لا

---

٦ إشارة إلى إحدى قصصه **Jude the Obscure** وهي آخر ما كتب من قصص وشخصية جود فيها قريبة لشبه بشخصية هاردي. وإن أنكر هو ذلك في مذكراته. انظر حياة توماس هاردي ترجمة عثمان نويه. (المترجم)

تتخلف منها واحدة. وظلت أعواماً طويلة لا يمسها أي ناشر" وكأن هاردي لا يحسن البيع، فهو أبعد الناس عن المزاحمة والمدافعة. وظل حتى آخر أيامه لم يحذق فن الإعلان عن نفسه. قال سير جيمس م. باري ذات مرة "مهما يكن الملاك الذي يحرس أبواب الجنة فإن عليه أن يدفع بتوماس هاردي إلى داخل الجنة دفعاً" أما الآن فليس من حارس لأبواب جنة النشر يرغب في دفعه إلى داخلها دفعاً، أو حتى في مجرد دعوته، وظل أعواماً يقدم درره، لا إلى الخنازير، بل إلى ناشرين رأوها حبات من الطين.

والحق أن كثيراً من قصائد هاردي الأولى وبعض قصائده التي تلتها كذلك كانت تحوي نسبة عظمى من الطين. ولم يكن هاردي شاعراً كبيراً، فقد كانت لديه عناصر العبقرية الشعرية. لديه الموسيقى والخيال والعاطفة، وتذوق العبارة المعبرة والفكرة المركزة والسحر الذي تتلألأ به الأحرف كأنها النجوم. كل شيء كان حاضراً لديه خلا النار.

وكان هاردي يعرف هذا النقص في عناصر كفايته فهو يقول: "أخشى ألا أصير أديباً يوماً ما، لقد كتب علي أن أرسم اللوحات الزرقاء مدى الحياة".

وكذلك سافر إلى لندن مهندساً مكتملاً وشاعراً هاوياً. وعين في مكتب أحد مهندسي الكنائس يدعى أرثر بلومفيلد. وظل يعمل هنالك خمس سنوات "ذلك الرجل الملتحي الشاحب الهادئ الضئيل الذي يتكلم قليلاً ويستوعب كثيراً وهو شخص لا بأس به ولد لأبوين بالغي الفقر غير أنه فنان مكتمل في نحو السادسة والعشرين. وهو يهمل صدريته شيئاً ما، وينهش الكتب دءوباً كأنه الدودة. وقد استوعب شكسبير حتى الثمالة من الملاحظات بأسفل الصفحات، ولن ينجح مطلقاً بالمعنى الدنيوي. إذ يعوزه الجد والنشاط الضروريان لكسب معرفه الناس واستغلالهم".

هذه الصورة التي رسمها هاردي لإدوارد سبرنجروف أحد أشخاصه في رواية "علاج يائس **Desperate Remedies**" تمثله أصدق تمثيل في أواخر الحلقة الثالثة، ذلك الشاب الريفي الذي لا يأسر القلب، والذي لابد له من التحوط حذار أن يتحدث بلهجة دورستشير. هو رسام مغمور يبدو أن مستقبله لا يبشر بالنجاح.

ومع ذلك فإن هذا الرسام الشاب غير المأمول الغد يقابل ويتصبى ويتزوج من فتاة تسبقه في المكانة الاجتماعية. فقد كان منوطاً به إصلاح كنيسة سنت جوليوت في كورنوول. وهي مهمة قد ندبه للقيام بها صاحب المكتب الذي يعمل به وأثناء عمله تعرف إلى الآنسة إيما جيفورد أخت زوج أسقف كنيسة سنت جوليوت وكانت الآنسة جيفورد سليلة محامين وقسس ورؤساء شمامسة تحذق ركوب الخيل والغناء وتعرف النقش معرفة لا بأس بها وهي من المتعالين ذوي المعارف العامة. "فماذا أغراها بي وأنا ابن بناء فقير؟ إني لا أعلم" ولكنه استطاع على نحو ما أن يطلب يدها فتنسى معطفه الرث ولحيته الشعثاء فتنزلت بقولها (نعم) وهكذا "عدت من ليونيس بكورنوول" "وفي عيني بريق سحري".

ويقبل شهر عسل قصير هاذر وحياة زوجية طويلة يسودها الخلاف فإن أحدهما لم يفهم صاحبه قط فعاشا على اختلاف في النزعات الجسمية والاجتماعية. فهي تحب ركوب الجياد ويؤثر هو المشي ولم يتعلم قط ركوب الخيل ولم يستطيعا الانسجام طول حياتهما ولكن هاردي لا يشكو قط بل يحاول أن يهيئ لزوجته منزلاً مريحاً، وأن يقدم إليها على الأقل أيسر الضرورات لمن في مكانتها، وكان يعول على الهندسة في كسب عيشه فزاد ركونه إلى احتراف الأدب وأغرته إما بالتحول من

الشعر إلى النثر "ولم أرد قط أن أكتب قصصاً نثرية، ولكني اضطررت إلى صناعتها، فالظروف (وهو يشير تجملاً إلى أما) هي التي حملتني على كتابتها".

وهكذا كان الفضل في إنشاء طائفة من أروع قصص الغرام راجعاً

إلى الحاف إمرأة لا تحب زوجها.

وتبنى قصص هاردي في معظمها على نظرية الحب الموجه إلى غير محب، ويتحدث (كرستوفر جوليان) عن هذه النظرية في **The Lady of the Lake** فيقول: "لقد سمعت بالحب غير المتبادل وبالحب المتبادل، وبالحب من كل نوع. غير أن هذه أول مرة أسمع فيها بالحب المسلسل. أنت تحبينني، أنا أحب ايثل برتا... وهي تحب الله أعلم من".

فالحياة كلها إذن مسلاة من الأخطاء تدور في مملكة الغرام فكل عشيق يحب شخصاً آخر غير عاشقه وكارثة العشاق جميعاً إنه لا يوجد منهما اثنان يتبادلان الغرام.

وكان من أثر هذا الموقف الساخر القاتم الذي وقفه هاردي من العاطفة البشرية أن وجد طريقه وعراً مع الناشرين والناقدين أول الأمر. فكانت شهرته تنمو في بطء. وكان لابد من أن ينشر عدة قصص طبع بعضها من ماله الخاص حتى ينتبه العالم لوجود هذه الرقة الكبرى التي نمت من الحزن العظيم. فإن قصصه لتسودها نغمتان هما السخرية والرثاء: سخرية السماء ورثاء الإنسان. ولقد عجز بعض النقاد حتى في الأزمنة الحديثة– عن تبين هذا الجانب المزدوج من فلسفة هاردي فيقول أحد المعقبين المحدثين "أن هاردي لا يرى غير الجانب الدميم من الحياة".

ويقول ناقد آخر يعدله تعصباً: "لابد أن جداً من أجداد هاردي قد تزوج صفصافة ذات شجون" على أن جل النقاد اليوم قد صاروا يتبينون في هاردي نوعاً جديداً من الجمال، جمالاً مستسلماً ذا نغمة مؤسية. ويتبينون في الوقت ذاته جمالاً إيجابياً يضوع رحمة ورقة.

جمال جديد وفلسفة جديدة. فلسفة لا هي تفاؤلية ولا تشاؤمية، بل هي بين بين ويسميها هاردي نفسه فلسفة تحسينية. فهي جهد لتحسين العالم الذي يحوي قدراً من الشر غير يسير، غير أنه يستطيع أن يحوي قدراً من الخير كبيراً: "فواجب الناس أن يعلموا بني جنسهم كيف يواجهون ذلك الشقاء الذي كتب عليهم".

ونظرية التراحم التحسينية تلك، نظرية العجز المتبادل الذي أنبتته الشقوة المتبادلة، هذه النظرية كانت تنمو تدريجاً في فلسفه توماس هاردي. ففي قصصه الأولى كان يلوح بقبضته في وجه السماء التي لا تحفل أي احتفال بمن خلقت من الناس. وبعد ذلك نقل لومه من السماء إلى الإنسان، ولعله كان يردد مع شكسبير قوله "إن الخطأ يابروتس العزيز ليس في حظوظنا، بل هو في أنفسنا، لأننا أذلة" إنه ليس القدر ولكنه ضعفك أنت هو ما يقف دونك.. عجزك عن معرفة باب تدلف منه الحكمة إليك بدل أن يدلف الملل.. ثم أن الشر ليس من السماء، ولا من غباء الأفراد، بل إنها قسوة الإنسان في

حشد الناس، أي قسوة المجتمع.. هي المسئولة عن معظم شقائنا البشري. فكان كلما علت به السن ازداد شجاره مع المجتمع مرارة لأنه يوقع بالفرد ظلماً منظماً، وقد كتب في عام ١٩٢٨ مقطوعة شعرية في عيد الميلاد توجز ما يشعر به من حنق على تلك الوحشية المستعصية، وحشية ذلك القطيع البشري. "قيل السلام في الأرض، فترنمنا بهذه العبارة. واستأجرنا مليون قسيس ليجلبوا لنا السلام. وبعد ألفي عام من الصلاة لم نصب السلام بل الغاز السام".

كان هاردي يستثيره قتل الجسوم البشرية، وإزهاق الأرواح البشرية، وطالما عاود هذا الموضوع في قصصه الأخيرة. وكان يقول إن العقاب الذي تفرضه الجماعة جزاء على الخطأ الفردي يتجاوز حدود الرحمة الإنسانية. والعدل الإنساني، وتتمثل هذه النظرية وهذه الفكرة الرئيسية في فلسفته في قصة (تس سليلة دربرفيل).

كانت تس ضحية لقانون خلقي صارم وتقليد اجتماعي عنيف، فإن أباها الفاسق الأفاق جون دربرفيل لا يعلم بأنه من سلالة أسرة دربرفيل النبيلة حتى يختال زهواً. وتأخذ زوجته تحلم بزيجة براقة تليق بإبنتها تس؛ لذا يلح الأبوان عليها لتعمل مربية للدواجن في مزرعة السيدة غير الدمثة (ليدي دربرفيل).

وهناك تقابل تس ولد السيدة العجوز وكان يدعي (ألك) دربرفيل.. وكان وغداً وسيماً لا وازع لديه ولا ضمير يردعه، فكان غزل وجيز وخيبة أمل وطفل... وسرعان ما يموت الطفل وتعود تس إلى آلها.

ومضي بعض الوقت قبل أن تجد الشجاعة على مواجهة العالم من جديد، ولكنها تقبل آخر الأمر وظيفة حالبة بمزرعة (تالبوذي) وهناك تتعرف إلى (إنجيل كلير) وهو ابن قسيس عجوز، وكان إنجيل قد تحول من رعاية الأرواح إلى فلاحة الأرض... الأمر الذي ملأ أباه أسفاً.

وتوثقت الصلة بين الإثنين، فإذا أعلن إنجيل حبه لم تجرؤ تس على إظهاره على حياتها الماضية. فإن حلمها لأجمل من أن يحطمه ذلك الوحش الدميم، التقليد الاجتماعي.

ويقترب يوم الزفاف، وتكتب في لحظة من لحظات اليأس الصادق خطاب اعتراف مطولاً. وتقذف به تحت الباب. ولكن يدها تقودها يد القدر ذات السر الغامض، فينزلق الخطاب تحت البساط وتهتدي قبل الزفاف مباشرة إلى الخطاب وتمزقه، إن شجاعتها على تحمل العقاب لأضعف من ظمئها إلى الحب.

فيتزوجان وفي عودتهما من الكنيسة يسمعان نعيق غراب رمزاً على إنكار المجتمع. يا له من صوت جاء في غير وقته. غراب ينعق بعد الظهر، يا له من فأل سيئ.

وتقيم تس وإنجيل في منزل ريفي شاعري عتيق. وهناك يعترف إنجيل بجريمته الوحيدة فقد قضى يومين ماجنين مع امرأة حمراء اللون، وطلب إلى زوجته الصفح فتسارع إلى الصفح عنه، ثم تروي هي قصة خطيئتها، ولكن إنجيل كلير يعوزه ما لديها من استعداد للصفح. إنه المستوى الثنائي للمجتمع.. إن المرأة يجب ألا تخطئ.

ويحدث الانفصال وتعود تس إلى آلها فتأخذ أمها الأمر في يسر ولكن جراحاً بالغة قد أصابت كبرياء أبيها الدربرفيل السكير. فقد عد الأمر خطيئة منها لا تغتفر.

وتجد تس عملاً في المزارع صيفاً، وتخصص جزءاً كبيراً من رزقها لإعانة أبويها. فإذا تقدم الشتاء فقدت معظم عملها. عمل قليل الأجر قذر شاق تعقبه فترات طويلة من الجوع واليأس فقررت آخر الأمر أن تقوم بمحاولة يائسة واحدة لترى أبوي إنجيل لعلها تحيط ببعض أخباره وتكدح في سيرها أميالاً كثيرة خلال المطر والثلج ولكنها تجد دار الراعي خاوية.

فتعود أدراجها وتقضي أياماً أخرى طوالاً يعضها الجوع، ويجثم عليها كابوس الذلة التي لا أمل لها في الفرار منها. إن المجتمع يجب أن ينال منها ضريبته.

وكانت تمر يوماً بأحد مخازن الحبوب فسمعت صوتاً صخاباً لمتجول يصيح. إنه لصوت تعرفه فتنظر في داخل المخزن فترى فيه ألك دربرفيل ويتوسل إليها ألك أن تعود معه، فترفض أول الأمر ولكن فقر أمها بعد موت أبيها... يضطرها إلى الإذعان آخر الأمر.

فتمنح جسمها لألك، ولكن قلبها لا يزال في تجواله بحثاً عن إنجيل كلير. وكان هو أيضاً وقتذاك يبحث عن تس وهو تعس مريض قد خفت غضبه القديم ولم يخلف في مكانه غير شوق عميق إلى عروسه، ويجدها في نزل حديث الطراز: امرأة قد سقطت. إن القدر الذي لا يرق ولا يرحم كما يتمثل في العرف الاجتماعي.. قد عقد ظروف حياتيهما بحيث يعجزهما عن استئناف ما كان بينهما. فيأخذ إنجيل كلير في السير إلى بلدته.

وتلحق به تس في بعض ضواحي المدينة وتقول (لقد قتلته... إنه يسبك فأديت بهذا ما لك عندي من ذمم. ولم يكن من طريق لاستعادتك غير هذا).

ويخرجان من مشهد آلامهما وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه.

لقد جمع القدر شملهما آخر الأمر. ولكنها لحظة واحدة من السخرية الفاجعة. فيقبض عليها فجر اليوم، وتغرب آمالها مع مشرق الشمس، وتحاكم تس وتثبت إدانتها. وما هي إلا ثماني دقات تنبعث من الناقوس، ثم يتلوى في الهواء شبح أسود. لقد وفت تس بدينها للعرف الاجتماعي.

-٤-

حينما نشرت (تس سليلة دربرفيل) هوى النقاد على هاردي كأنهم سرب من العقبان. "إنه كاتب دنيء لا ريب" كذلك كان الحكم الاجتماعي عليه كما لخصه وليم جيمس في قوله: "من كان يستطيع أن يخلق بطلة بهذه الدناءة" وكان من المستحيل في وسط هذه الضجة الخشنة من الاتهام أن تسمع تلك الأصوات القليلة الضعيفة التي تطري الكاتب وتمتدحه. فقد أدركت هذه القلة أنه قد وجد أخيراً أديب من الإنجليز يجرؤ على الانتصار للرحمة، والتوسع في التسامح، ونبذ النفاق الاجتماعي.

أما هاردي فلم يفعل للقادحين أو المادحين غير أن هز كتفه وهو يقول (مهما يكن من الأمر فقد أودعت هذا الكتاب خير مالدي).

ووضع (خير مالدي) في قصته الهامة التالية (جود المغمور)[٧] فأثار على نفسه بركاناً من القدح والطعن. فهذا أحد المعقبين يقول في صحيفة أمريكية "أن هاردي قد أخزى نقاده.. وصدم أصدقاءه ويبدو أن عقل مستر هاردي كان في دركه الأسفل طوال كتابته هذه القصة، فهو يخرج عن طريقه ليكون قذراً وقحاً. وأني لم أتم قراءة هذه القصة حتى فتحت النافذة ليدخل إليها الهواء النقي" وقد وصف كاتب أمريكي قصة جود: بأنها من أوقح الكتب التي قرأها في حياته. ورسمت مجلة بريطانية صورة هزلية لهاردي فصورت عملاقاً ضخماً غليظاً يدوس وردة في الوحل مثيراً من الطين رذاذاً يصيب كل من وقف على مقربة، وحرق محاضر بريطاني أمام الملأ كتاب جود المغمور.

وقد اضطر هاردي حين نشرت أجزاء من الكتاب في إحدى المجلات إلى بتر الأشخاص والمواقف، فصارت هذه الأجزاء شيئاً ميتاً زالت معالمه. ومنذ ذلك الوقت صار الناشرون يرفضون قصصه، أو يعيدون كتابتها لتلائم حساسية القراء. ويروي هاردي للسيدة وارتون محزوناً أنه كان في إحدى هذه القصص قد وصف نزهة بريئة قام بها البطل والبطلة يوم الأحد، فلما عرض القصة على ناشر أسكتلندي رد إليه القصة وطالب بنقل النزهة إلى يوم آخر من أيام الأسبوع.

فامتعض هاردي وقال: (كنت أحسب أني أكتب لقراء أذكياء) لقد كانت قصصه أقوى من أن تحتملها أذواق القرن التاسع عشر المثقلة بالتقاليد. فقرر أن يعود إلى أشعاره "فلن يؤذي شعري أحداً لأنه لن يقرأه أحد".

فألف ونشر ثمانية مجلدات من الشعر الغنائي، وملحمة عن حياة نابليون. دعاها العواهل. وقد استعاد تدريجاً ما فقده من احترام.

فانتهى أمره بأن صار لا يقرأه أحد ويعجب به جميع الناس وانتقل في وقار إلى

---

٧ إن قصة جود المغمور تمثل الصراع بين نفسين مرهفتين، وبين العرف الاجتماعي الخشن القاهر الغلاب. ولم يتزوج البطلان وإن عاشا عيشة الأزواج وأنجبا الأطفال. أما زوجة البطل الشرعية، التي لم يلبث أن طلقها وإن ظلت تلاحقه، فكانت من تاجرات الجسد اللاتي تخففن من الضمير والخلق والشعور. (المترجم)

شيخوخة لم يزعجها غير فقد زوجته وكان ذلك صدمة قاسية برغم ما كان بينهما من خلافات. فالحياة العاصفة ذاتها لا تخلو من نكهة شهية.

وأعقب العاصفة هدوء، فقد تزوج ثانية وهو في الرابعة والسبعين من امرأة في الخامسة والثلاثين فاجتمع الخريف والربيع لأول مرة في وفاق تام.

ومع أن زوجة هاردي الثانية كان من حقها أن تدعو نفسها شاعرة، فقد قنعت بمجد الانتساب إلى شاعر مجيد.

وذات غروب رائع رزين أنهى يوم حياته الطويل، وترك وراءه ذكرى جميلة نبيلة، قال فيها جون ارفين:

"لقد تعلمنا منك أن القلب المعتد بكرامته يستطيع إخضاع الأقدار القاسية لمشيئته. وقد كشفت في كل ما كتبت عن روح الإنسان يقتحم طريقه من خلال الهزائم".

أهم مؤلفات هاردي

Desperate Remedies
A Pair of Blue Eyes
Under the Greenwood Tree
Far from the Madding Crowd
The Hand of Ethelberta
The Trumpet-Major
The Well-Beloved
The Dynasts

The Mayor of Casterbridge
The Woodlanders
A Group of Noble Dames
Tess of the D'Urbervilles
Life's Little Ironies
Jude the Obscure
تمثيلية شعرية

وكثير من دواوين الشعر الغنائي



الفهرس